إصدارات أنصار الإمام المهدي (عليه السلام)

الإيمان والشك

مناقشة في إثبات الخالق وخلافته المستمرة

محمد تقي العقيلي

إصدارات أنصار الإمام المهدي (ع) / العدد 236

الإيمان والشك

مناقشة في إثبات الخالق وخلافته المستمرة

محمد تقي العقيلي

المحتوى

الإهداء 0

مقدمة 1

الفصل الأول 4

أسس الحوار الفعال 4

أهمية الحوار المنظم 4

من قواعد الحوار الناجح 5

الإخلاص والنية الصادقة 6

الصبر والحلم 6

تجنب الهجوم الشخصي 8

أساسيات قبل البدء 9

على من يقع عبء الاثبات؟! 9

عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، وعدم العلم ليس علما بالعدم 10

مناهج استحصال العلم المتعارف عليها 11

مشاكل في حصر الدليل بالدليل الحسي فقط 13

المواقف العقدية من وجود الله 15

الفصل الثاني: مبدأ السببية او العلية 19

نُبذة عن السببية 20

مصطلحات مفتاحية: 24

- السبب: 24
- العلّة: 24
- السببية او العلية (Causalite): 25

تحديات مبدأ السببية 27

فلسفياً 28

علمياً 31

أولاً: بعض الظواهر تحدث بدون سبب، فهل هذا صحيح؟! 35

ثانياً: ميكانيكا الكم تلغي الحتمية، فهل هذا صحيح؟! 42

الفصل الثالث: أدلة إثبات وجود الله 45

الأصل في معرفة الله () طريق الوحي 45

الطريق العقلي 51

الدليل الأول: العدم غير منتج 54

مصطلحات البرهان: 55
الحَادِث او الحَدث: 55
القديم او الازلي: 55
العدم: 56
صياغة البرهان منطقياً 60
نظرية الانفجار العظيم (Big Bang Theory): [] 62
اقوال بعض العلماء في بداية الكون 65
شبهات وردود: على برهان "العدم غير منتج" 71
- فمن خلق اللّه؟! [] 71
- الطاقة [] لا تفنى ولا تُستحدث 77
- الاستغناء عن المُسبِّب الأول: 82

الدليل الثاني: برهان النظم او النظام [] 85

مصطلحات البرهان: 88
النظم: 88
الاستدلال على النظام والغاية دون الحاجة إلى المقارنة 92
الصدفة []: 94
صياغة البرهان منطقياً 98
الدقة والنظام في الكون: 99
ما قبل الانفجار العظيم 99
اللحظات الأولى بعد الانفجار العظيم 102
إنتاج العناصر الثقيلة وأهمية الكربون في الكون 104
النشوء والتطور والإرادة الكونية: هل هناك من يقف وراء هذه العملية؟! [] 109
البحث عن البداية: أسرار نشأة الحياة على كوكبنا 109
من جين إلى جين: كيف يبرمج الـدنا الكائنات الحية؟! 117
كيف تحدث الأخطاء؟ 126
أنظمة إصلاح الأخطاء! 126
هل يمكن أن تصدر المادة الصماء أوامراً؟! 127
نظرية التطور والارتقاء 129

الفصل الرابع: صفات الخالق 140

يجب ان تكون الحقيقة الموجدة مطلقة 143
وحدانية الله: يجب ان يكون المطلق واحداً 145

وبطريقة اخرى: اللامحدودية الالهية تنفي التعدد من اساسه 148
تقسيم صفات الله او اللاهوت:..... 150
علم الله: علم المطلق لابد ان يكون مطلقاً..... 152
إثبات صفات الله بالعقل بناءً على قاعدة فاقد الشيء لا يعطيه..... 156
شبهات وردود: على صفاته سبحانه وتعالى..... 159
- الرحيم المطلق لماذا يعذب بالنار؟!..... 159
- إشكالية الشر..... 164

الفصل الخامس: الخلافة الإلهية في الأرض..... 175
مصطلحات مفتاحية:..... 176
مفهوم الخلافة..... 176
الملك لله - لا يخلق الحكيم بلا تدبير، ولا تدبير بلا حجة..... 182
أولاً: الخلق لله..... 183
ثانياً: التدبير والتشريع للخالق..... 184
خليفة الله..... 187
صفات خليفة الله ()..... 191
قانون معرفة الحجة..... 193
أولاً: التنصيب الإلهي (النص)..... 193
ثانياً: العلم الإلهي (الأعلمية)..... 197
ثالثاً: الدعوة إلى حاكمية الله..... 199

ملحق 1: الثقافة والأخلاق..... 201
من نحن؟! ولماذا نحن مختلفون؟!..... 201
اين ولد الانسان العاقل..... 203
مسارات الهجرة الإنسانية وزمنها من القارة الأم..... 205
الإرث الثقافي للإنسان العاقل في افريقيا..... 207
تأمل..... 209
سومر بوصفها أول قمة مرئية على سلم الحضارة الإنسانية..... 213

ملحق 2: دفع الضرر المحتمل..... 218
الأصل القرآني لهذه الحجة..... 220
في كلام اهل البيت (عليهم السلام)..... 220
قاعدة دفع الضرر المحتمل بعبارة موجزة..... 222

ملحق 3: لا حياة للإلحاد..... 223

حقيقة الإلحاد: عالم بلا اخلاق! 224
الإلحاد يفتح باب الجحيم: تجسيد الفكرة خيالياً!.....225
أنانية الجينات واستحالة نشوء القيم العليا منها.....229
خاتمة:.....235

الإهداء

إلى سيدي ومولاي، مَن بذكره تحيا القلوب

إلى من أعاد للسماء صوتها في أرض أطبقت عليها الغفلة والضياع

أهدي هذه الصفحات البسيطة الى يماني آل محمد (ص)، فإن كان فيها نورٌ فمن أنفاسكم القدسية، وإن كان فيها عيبٌ فمني، وأسأل الله بحقك أن يتجاوز عن الزلل ويجعلني من الثابتين في نصرتك.

مقدمة

في هذا العالم الذي تموج فيه الأفكار وتتنازع فيه الرؤى، يعيش الإنسان ذلك الكائن الفضولي حائراً بين تساؤلاته الكبرى وصراعاته اليومية. وكثيراً ما يمر بنا سؤال لا يُقال دائماً بصوت مرتفع، لكنه حاضر في أعماقنا بحجم الكون كله: "هل الله موجود؟! وإن كان موجوداً، فهل يرانا؟! وهل يهتم بنا؟! وهل وجّه إلينا رسالة أو أرسل هادياً؟!" هذه الأسئلة ليست ترفاً فكرياً ولا أزمة طارئة، بل هي جوهر الوجود الإنساني، وبدونها يبقى العقل معلقاً في الفراغ، لا يعرف من أين جاء، ولا إلى أين هو ماضٍ، ولا لماذا وُجد أصلاً. إن الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة لا تحدد فقط معتقد الإنسان، بل تُشكل تصوّره الكامل عن نفسه وعن الحياة والموت والمعنى.

لقد كنتُ على يقين بأن هذه الأسئلة، على عمقها وخطورتها، لا تحتاج بالضرورة إلى معالجات فلسفية معقّدة، ولا إلى متون لغوية مغلقة، بل إن أجود الطرق لمقاربتها هي اللغة الصادقة البسيطة التي تحترم عقل القارئ وفطرته دون أن تتعالى عليه، ودون أن تُصغّر من شأن الأسئلة. ومن هذا المنطلق، وبناءً على رغبة بعض الأصدقاء الذين تمنّوا وجود كتاب مبسّط يمكّنهم من فهم هذه القضايا، شرعت في كتابة هذا الكتيب، لا لأقدّم فيه "كل شيء"، بل لأفتح باباً يمكن من خلاله لمن شاء أن يبدأ رحلته في عالم الالهيات. وآليت جهدي أن لا يحتاج قارئه تخصصاً دينياً أو فلسفياً عميقاً، ولا ينطلق من افتراضات عقائدية مُسبقة، بل يعتمد على البديهيات العقلية والمقدمات الواضحة التي يشترك فيها البشر، مهما اختلفت خلفياتهم أو تجاربهم.

وما أسعى إليه هنا ليس نقل القناعة من عقل إلى عقل، بل بعث الأسئلة من جديد في نفس القارئ، وفتح مجال التفكير الحر والواعي. فالإيمان، في صورته الأصيلة، لا يُفرض، ولا يُورّث، بل يُولد في القلب حينما يصدُق الإنسان في طلب الحقيقة. ولذلك فإن كل جهد بذل في هذا العمل، كان بدافع خدمة هذا الإنسان الباحث عن الحقيقة، الذي لا يرضى أن يعيش بلا بوصلة، ولا يطمئن للأجوبة الجاهزة التي لا تمنحه فرصة التأمل فيها بنفسه.

من المؤسف أن الكثير من الناس اليوم، حين يسمعون الحديث عن "الإيمان بالله" أو "الدين" عموماً، يتبادر إلى أذهانهم نماذج منفّرة أو خطابات متشددة، أو يرونه أمراً قديماً تجاوزه العقل الحديث. وهذا الظن في الغالب ليس نابعاً من سوء نية، بل من التراكمات التي تركتها بعض الصور المشوّهة للدين، سواء في سلوك بعض من يرفعون شعاره دون أن يجسّدوا روحه، أو في الطريقة التي يُقدَّم بها الخطاب الديني والإيماني أحياناً، حين يغلب عليه الجمود، أو يغيب عنه المنطق والحكمة. غير أن هذا الواقع لا ينبغي أن يكون سبباً في تجاهل المسألة أو الهروب منها، لأن السؤال عن الله ليس قضية ثانوية، بل هو السؤال الذي تتفرّع عنه كل الأسئلة الأخرى.

فالإيمان بالخالق ليس مجرّد اعتقاد تقليدي ورثناه عن آبائنا، ولا فكرة مجردة نضعها على الرف حين ننشغل بحياتنا اليومية، بل هو الإطار الذي يمنح حياتنا معناها، ويجعل لأعمالنا وزناً حقيقياً، ويمنحنا طمأنينة في مواجهة الغموض والمجهول. ولهذا، فإن إثبات وجود الله لا ينبغي أن يُقدَّم كإجابة جاهزة تُفرض على الناس، بل يجب أن يُبنى على أدلة عقليّة، وبيّنات فطريّة، تسمح لكل إنسان أن يصل إليه بذاته، بعد تأمل وتفكير وصدق في الطلب.

من هنا، جاء هذا الكتيّب ليخاطب الباحث الصادق، أيّاً كان مستواه العلمي أو خلفيته الثقافية. لا نفترض فيما قدمناه أن القارئ مؤمن، ولا نطالبه بأن يصدق قبل أن يفهم، بل نقدم له الدليل كما هو، وندع له الاختيار. وسواء أكان القارئ مؤمناً يبحث عن تعزيز يقينه، أم متردداً يطلب الوضوح، أم ناقداً يريد أن يفهم وجهة النظر الأخرى، فإن هذا الكتيب لا يستبعد أحد، بل يرحب بالجميع ويضع بين يدي القارئ ما يُمكن أن يُعينه على معرفة الحقيقة.

للعلم، فإنني لا أهدف في هذا الكتيب إلى التطرق إلى جميع التفاصيل المعقدة أو الدخول في مناقشات الفوارق الفلسفية والكلامية حول هذا الأدلة والبراهين التي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى، وإنما أسعى إلى وضع منهجية مبسَّطة قدر الإمكان، تسهل على الراغب في دراسة هذا المجال طريقه، وتمنحه مدخلاً أولياً منظماً يساعده على التوغل في هذه المباحث

شـيئاً فشـيئاً. ومن ثم فإن هذا الكتيب سـيكون بمثابة بوصـلة إرشـادية في خطواته الأولى، مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه في التوفيق والسداد.

وأســأل الله العلي القدير، بحق محمد وآل محمد الطاهرين، أن يتقبّل هذا الجهد المتواضـع بقبول حسـن، وأن يجعله خالصـاً لوجهه الكريم، لا حظّ فيه لنفس ولا نصيب لسمعة أو رياء. وأسأله جلّ شأنه أن يطهّر نيّتي من كل سوء ودغش، ويجنّبني فيه مزالق العُجب والغرور، وأن يُجري على لسـاني وقلبي ما يُرضـيه عني، ويجعله من العلم الذي يُبتغى به وجهه، ويُرفع به الجهل عن عبادِه، ويُنصر به دينه وحُجّته في أرضه، إنّه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

الفصل الأول

أسس الحوار الفعال

إن الحوار مع كل الطوائف والملل وبالخصوص الملحدين يتطلب تحضيراً فكرياً ومنهجياً مسبقاً، إذ أن القضايا المتعلقة بالإيمان بالله تعالى وبالأديان عموماً تدخل فيها جوانب عقلية وفلسفية وفطرية وعلمية، ولأن الملحد يعتمد في معظم الأحيان على حجج عقلية وعلمية، فمن الضروري أن يكون الحوار قائماً على أسس متينة ومنظمة، كما هو منهج أهل البيت (عليهم السلام) الذين علمونا أن نلزم الناس بما يتلزمون به [1]، فالله جل جلاله نور لا ظلمة فيه، ولا يغطي هذا النور كثرة السحب، فهو نور يملئ قلوب الباحثين عن الحقيقة اين ما وجودوا وارتحلوا.

في هذا الفصل؛ سنستعرض الأسس الأولية التي ينبغي على المحاور الالتزام بها لضمان أن يكون حواره هادفاً وفعّالاً، بما يضمن إيصال الفكرة للطرف الآخر بأسلوب منطقي ومؤثر.

أهمية الحوار المنظم

إن النجاح في أي حوار يتطلب تحضيراً جيداً، يتضمن دراسة الموضوعات المطروحة وفهم الحجج المختلفة التي قد يطرحها الملحد، وقد جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي (ع) قوله: "**العلم سلطان، من وجده صال به، ومن لم يجده صيل عليه**" [2]، وهذا يؤكد على أهمية العلم والتسلح به، حتى يصبح العلم والحوار ملكة عندك، وبعد إكمال التسلح بالعلم يبدا العمل على ترتيب هذا العلم والمعلومات وصقلها لتكون جاهزة دائماً للحوار والمبارزة العلمية، قال أمير المؤمنين (ع): "**التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم**" [3]، وبذلك يكون

---

1. الوافي، ج 25، الفيض الكاشاني، ص270 ابن سماعة، عن ابن جبلة، عن عدة من أصحاب علي ولا أعلم سليمان إلا أخبرني به، وعلي ابن عبد اللّه، عن سليمان أيضا، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي الحسن عليه السّلام أنه قال "**ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم**".
2. شرح نهج البلاغة، ج 20، ابن أبي الحديد، ص 319.
3. الأمالي، الشيخ الصدوق، ص 532.

المحاور مرتباً في طرحه، ويصبح أكثر قدرة على تقديم حججه بأسلوب مقنع ومنطقي.

فالفوضى والارتجال في الحوار تضعف موقف المحاور وتجعله عرضة للتشتت والانتقال من موضوع إلى آخر دون تسلسل منطقي، بينما الاعداد والترتيب المسبق يجعل الحوار أكثر ثباتاً، ويجنب المحاور الفوضى التي قد تحدث عند الاستعجال في الردود. لذلك الترتيب أو التسلسل المنطقي للحوار مع الملحدين الذين ينكرون وجود الاله يمكن أن يكون يوجز على النحو التالي:

أولاً: نبدأ بإثبات وجود العلة الأولى أو الحقيقة الموجودة – الاله – من خلال الأدلة.

ثانياً: ننتقل إلى إثبات الصفات الضرورية للإله، موضحين أنها صفات مطلقة.

ثالثاً: ثم بعد ذلك ننتقل الى اثبات الاستخلاف الإلهي وغاية الخلق.

رابعاً: بيان قانون معرفة الحجة.

خامساً: اثبات حجية خليفة الله في كل زمان عليه أفضل الصلاة والسلام.

من قواعد الحوار الناجح

إن من يتصدى للحوار، خصوصاً في المسائل الفكرية والعقائدية، لا بد له أن يتزود أولاً بأخلاق [1] الحوار، قبل أن يتسلح بحجج العقل والنقل، فالحوار ليس حلبة صراع، ولا ساحة لإثبات الذات، بل هو جسرٌ للتفاهم، ووسيلة للوصول إلى الحقيقة، وقد يكون من أعظم أسباب هداية الآخرين التزامك بالأخلاق الحميدة التي أوصانا بها الله وخلفاءه. ومن أولى القواعد التي يجب أن يتحلى بها المحاور:

1. روي عنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وقال (صلى الله عليه وآله): أدبني ربي فأحسن تأديبي، وقال (صلى الله عليه وآله): إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار**" بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 68، ص 384.

الإخلاص والنية الصادقة

إذا كان الحوار هو طريق لإيصـــال الحق الى طالبيه، فإن الإخلاص هو الروح التي تســـكنه، وتمنحه قبوله وقيمته، وكما يقولون ما يخرج من القلب يدخل القلب. إن من يخوض حواراً حول وجود الله أو القضـايا العقائدية دون أن يُطهّر نيته، يكون كمن يسـير في طريق طويل بلا بوصـلة. فكم من كلمةٍ صـحيحة أُحبط أثرها لأنها خرجت بنية اسـتعلاء أو مجادلة لا نُصـرة للحق، وكم من كلمة بسـيطة هزّت القلوب لأنها خرجت من قلب صـادق، لا يطلب بها إلا وجه الله. وإن أول ما يجب أن يراجعه المحاور عند دخوله أي حوار هو: لماذا أُحاور؟ هل أريد أن أنقذ قلباً من الضياع، وأن أدلّ إنساناً على النور؟ أم أريد أن أثبت تفوقي، وأُسـكت الطرف الآخر، وأرضـي غروري الخفي؟ وإذا صـحّحت النية، أصـبحت كل كلمة، وكل حجة، وكل لحظة صبر في ميزان الحسنات.

وللإخلاص وجهان: وجـهٌ بين العبـد وربـه، يُزكّيـه الـدعـاء ومراقبـة النفس ومحاسـبتها، ووجهٌ في سـلوك المحاور نفسـه، يظهر في احترامه للطرف الآخر، وتجنّبه للتفاخر والانفعال، فحتى لو امتلك أعظم الحجج، فإن لم يكن صـادقاً مع الله، لن تقع كلماته في قلب أحد. ولهذا، فإن أول قاعدة للحوار ليسـت في التفكير، بل في التزكية. فمن لا يطهّر نيته، لن يطهّر فكر غيره.

الصبر والحلم

الحوار في قضـايا الإيمان والعقيدة يشـبه المشـي في أرض وعرة؛ يتطلب توازناً دقيقاً بين الثبات واللّين، وبين الدفاع عن الحق والصـبر على الجهل، وبين الردّ على الشـبهة وطرح الأدلة، وهنا تظهر أهمية الصـبر، لا كفضـيلة أخلاقية فحسـب، بل كشـرط أسـاس لنجاح المحاور. فكم من حوار أُفسـد لأن صاحبه فقد صـبره أمام اسـتفزاز الطرف الآخر، وكم من قلب أُغلق لأن الصـوت ارتفع بدل أن توصـل الفكرة بهدوء. فالصـبر في الحوار لا يعني التنازل، بل هو دليل على رجاحة العقل، وثقة المحاور بما يحمل من حق. وهو لا يعني التسـاهل مع الباطل، بل اختيار التوقيت والأسـلوب الأنسـب لمواجهته. ومن نعم الله على عباده أن جعل الحِلم حليف العلم، كما نقل الصـادق (ع) عن جده رسـول الله ﷺ: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما جمع شئ إلى شئ أفضل من حلم إلى

علم." [1] فالعلم بلا حلم قد يتحول إلى سلاح يُجرح به الآخر، بدل أن يكون نوراً يهدي قلبه. أما إذا اقترن الحلم بالعلم، أصبح العلم رسالة، وأصبح الحلم وسيلة لإيصالها بلا عنف.

ففي الحوار مع الملحد أو المشكك، المحاور يمثل الدين قبل أن يمثّل نفسه. فإن كان هادئاً حليماً، عبّر عن سعة الدين ورحمته. وإن كان متسرعاً غضوباً، عبّر عن ضيق أفق وانفعال لا يليق بحامل الحقيقة. فليكن الصبر سلاحك، والحلم لباسك، ولا تكن كمن أطفأ نور حجته بنار غضبه.

وقد لخص السيد أحمد الحسن هذه القاعدة الذهبية بعبارة بليغة غاية في الجمال، حين قال: "**كونوا كالماء يطهر النجاسة ويتخللها ويسير معها حتى يزيلها عن البدن برقة وبدون اذى للبدن لا تكونوا كسكين تقطع اللحم مع النجاسة فتسببوا الالم للبدن وربما يجعله يختار النجاسة على طهارتكم من شدة الألم.**" هذه الكلمات العظيمة تُبين أن الأسلوب اللطيف قد يزيل أعقد الشبهات، بينما القسوة قد تدفع الناس للتمسك بأوهامهم لا حباً بها، بل كرهاً بأسلوب من يمثل الحق، فالحوار ليس مكاناً لتفريغ الانفعالات، ولا منصة لتسجيل النقاط، بل هو مهمة إنسانية ورسالية، تتطلب صدق النية، وصفاء النفس، وطهارة القلب من الرغبة في الغلبة أو الانتصار للذات.

ومن تمام الصبر أن يحسن الإنسان الاستماع ويصغي لمحاوره او لكل انسان يكلمه، فليس الإنصات في الحوار مجرد مجاملة، بل هو فهم حقيقي للطرف الآخر. الاستماع الصادق يفتح أبواب الفهم، ويعطي الطرف الآخر شعوراً بالاحترام، وهذا بحد ذاته قد يغير مجرى الحوار من خصومة إلى بحث مشترك عن الحق. إن كثيراً من الحوارات تفشل لأن أحد الطرفين منشغلٌ بالتحضير للرد، لا بفهم ما يُقال. أما المحاور الناجح فهو الذي يستمع بكل كيانه، ويصغي بكل اهتمام، ولا يقاطع إلا عند الضرورة، ويجعل من الاستماع أداة لفهم العمق لا لانتظار نقطة ضعف.

---

1. الخصال، الشيخ الصدوق، ص 18.

تجنب الهجوم الشخصي

ومن أعظم الآفات التي تُفسد الحوار، أن يتحول النقاش من تناول الفكرة إلى مهاجمة الشخص. فالمحاور الحق لا يُخاطب الناس من برج عال، ولا ينظر إليهم كخصوم يجب إسقاطهم، بل كنفوس تستحق الهداية. كم من كلمة جارحة أغلقت قلباً، وكم من رد قاس دفع إنساناً إلى الإعراض لا عن الفكرة فحسب، بل عن الدين كله! وقد أمرنا الله تعالى أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادل بالتي هي أحسن، لا بالأقسى ولا بالأشد. فكيف بمن يواجه من لا يعرف الله أو ينكره، أليس أولى أن يُخاطبه برفق ورحمة، ومن الأمثلة على ذلك عندما علم الله موسى كيف يخاطب فرعون، مع علم الله وموسى بطغيان فرعون، قال تعالى: "**اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى**"[1]؟!

إن هذا الأسلوب الرباني يُعلمنا أن الهدف من الحوار ليس التفوق، بل الهداية، وليس سحق الآخر، بل إنقاذه.

---

1. طه،42 – 44.

أساسيات قبل البدء

على من يقع عبء الإثبات؟!

إن أي نقاش وفي أي موضـوع كان، سـوى كان فلسـفي أو عقدي او علمي، فلا بد أن يبدأ من تحديد موقع "عبء الإثبات" (Burden of Proof)؛ إذ لا يمكن أن يُبنى حوار متكامل ما لم يُعرَف من المكلف بتقديم الدليل اولاً؛ هل فقط من يريد ان يثبت عليه يقع عبء الثبات ام الطرف النافي ايضـاً؟. الجواب ببسـاطة ان كـل مـدعي يحتـاج الى دليـل ليثبـت ادعـاءه، والطرفـان المثبـت والنـافي لأي مسـالة هم اهل ادعاء، فالنافي يدعي عدم وجود الشـيء او عدم صحته، لذلك يجب عليه تقدم دليلا على ذلك الادعاء، وكذلك بالنسـبة للذي يثبت وجود او صحة امر ما.

بعبارة أخرى نحن عندما نثبت وجود شيء ما نحن بحاجة إلى دليل، وكذلك عندما ننفي وجود شـيء ما نحتاج إلى دليل ينفي صـفة الوجود لهذا الشـيء، لذا هناك ضـرورة للبحث والتأكد من عدم وجود الشـيء قبل نفيه، ففي حالة نفي وجود الله سبحانه وتعالى، يجب علينا البحث في جميع المجالات والتأكد من عدم وجود أدلة تشـير إلى وجوده، وفي نفس الوقت يجب أن نتذكر أن الله قد لا يترك آثاراً يمكننا اكتشـافها باسـتخدام أدواتنا المحدودة، ولا اقصـد هنا ان الله يريد ان يخدعنا او ما شـابه، بل اطرح الإمكان العقلي للقادر المطلق الذي إذا أراد ان يمحي اثاره فلا يعجزه ذلك. فإذا أراد أحدهم نفي وجود الله بشـكل قاطع، فإنه يتوجب عليه تقديم دليل على أن هذا الوجود غير ممكن أو غير موجود بأي شـكل من الأشـكال. لكن المشـكلة تكمن في أن الإقرار بعدم وجود الله يتطلب الإحاطة بكل شـيء، بما في ذلك العوالم التي قد تكون خارجة عن مجال ملاحظتنا وادراكنا. فكيف يمكن لشـخص أن ينفي وجود موجود إذا كان يمكنه ان يكون خارج حدود ما يمكننا ملاحظته بأدواتنا الحالية؟!

وبالتحديد في مسـألة وجود خالق للكون، فإن من ينكر هذا الوجود يواجه مأزقاً معرفياً لا يمكن تجاوزه؛ لأنـه حين يجزم بعدم وجود الخـالق، فإنما يُلزم نفسه ضمنياً بامتلاك إحاطة شاملة بكل ما كان وما سيكون، حتـى يصح له

إطلاق هذا النفي المطلق، وهذا في ذاته ادعاء للعلم الكلي، وهو أمر مستحيل على الإنســـان المحدود في إدراكه، المحاط بجدار الحس والتجربة. فالعقل لا يمكنه اســـتبعاد وجود كيان يتجاوز أدواته، ما دام عجزه عن الإحاطة الكاملة قائماً، ولم أرى أحد من الســـابقين والمتأخرين ممن يدين بالإلحاد يقر او يعترف ان له علماً مطلقاً، لان هذا الادعاء سفيه وواضح البطلان.

أما القول بوجود خالق، فلا يتطلب هذا الادعاء الكلي، بل يكفي فيه الاستدلال بالحاجة العقلية إلى سبب أول غير محتاج، وبمشاهدة انتظام الوجود ودقته، وانسجام قوانينه، وبتلك اللمعة الفطرية التي تتقد في أعماق الإنسان منذ وجوده، دافعةً إياه نحو التســـاؤل والتوجه، لا الإنكار والتهرب. ومن هنا، فإن القول بوجود الله يســـتند إلى مرتكزات عقلية وفطرية وتجريبية، بينما النفي المطلق لا يستند إلا إلى فراغ معرفي مغلف بادعاء فلسفي لا يمكن إثباته.

وعليه، فإن المفاضـــلة بين الموقفين لا تدع مجالاً للحياد؛ فإما عقل يعترف بحدوده، ويقر بحاجة الكون إلى علة غائية، وإما ادعاء فوقي للعلم المطلق، ينقض ذاته بذاته. وحينها، يغدو الإيمان بالخالق لا مجرد خيارٍ، بل النتيجة العقلية الوحيدة الممكنة لمن يريد أن يتفكر بصدق.

عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود، وعدم العلم ليس علما بالعدم

ومن بعد ما تبين ان عبء الاثبات ليس فقط على الطرف المثبت، بل يقع على الطرفين. ننتقل الى مســـالة ضـــرورية وهي التمييز بين وجود الشـــيء والدليل الدال على وجوده، فالوجود يعني أن الشـــيء هو حقيقة قائمة خارج وعينا، بينما دليل وجود الشيء هو اتصال وعينا بوجوده من خلال ظهور دلائل تشـــير إلى هذا الوجود، هذا التمييز مهم لأن عدم ظهور الدليل على وجود الشيء لا يعني بالضرورة عدم وجود الشيء، بل يعني اننا لم نصل اليه او عدم كفاية الأدلة الحالية على وجوده، لذلك يجب التفريق بين عدم الوجدان وعدم الوجود.

مناهج استحصال العلم المتعارف عليها

يُعد استحصال العلم من أبرز انشغالات العقل البشري عبر تاريخه الطويل، وقد تطورت المناهج المعرفية التي يلجأ إليها الإنسان وفقاً لطبيعة الموضوعات والمجالات التي يتناولها، ووفقاً لقدراته المحدودة ومصادره المتاحة. ومن بين هذه المناهج، تبرز أربعة عدها البعض هي الأهم والأكثر تأثيراً في بناء الفكر البشري، وهي: المنهج الحسي التجريبي، والعقلي البرهاني، والنقلي، والفطري الحدسي. ولكل منها خصائصه ومجالاته ومصادره، كما أن بعضها قد يكمل بعضاً في كثير من الحالات المعرفية المعقدة.

المنهج الأول، وهو يعد الأوسع انتشاراً في العصر الحديث، هو المنهج الحسي التجريبي، والذي يقوم على الاعتماد على الحواس والملاحظة الدقيقة، متبوعاً بالتجربة المتكررة والتحقق المنهجي من النتائج. وقد شكل هذا المنهج حجر الأساس في تطور العلوم الطبيعية والتطبيقية، مثل الفيزياء، والكيمياء، والطب، وعلوم الأرض، وغيرها. مصادره هي الحواس المدعومة بالأدوات والتجارب، وقد بلغت بفضلها البشرية آفاقاً جديدة في فهم العالم المادي وتسخيره. غير أن نطاق هذا المنهج يبقى محصوراً في المحسوسات، ولا يمتد إلى الغيبيات أو المعاني العقلية الخالصة.

أما المنهج العقلي البرهاني، فهو اسبق تاريخياً من المنهج الحسي، كما يقول أصحاب هذا المنهج، ويقوم على تحليل القضايا من خلال مبادئ عقلية بديهية، واستعمال أدوات المنطق لإنتاج أحكام يقينية. وقد ساد هذا المنهج في الفلسفة، والرياضيات، وعلم الكلام، والمنطق، حيث تعجز الحواس عن إدراك الموضوعات، ويصبح العقل هو الحَكم الأعلى حسب ادعاءهم. ومن مصادره القضايا الأولية كامتناع التناقض، وضرورة العلية، وما يترتب عليهما من براهين مركبة. ورغم تراجع الاهتمام به في بعض المجالات المعاصرة، إلا أنه يبقى ضرورياً في تحليل المفاهيم، وتفسير المبادئ الأولى، وبناء الأسس النظرية للعلوم.

ويأتي بعد ذلك المنهج النقلي، الذي اعتبره من وجهة نظري الأهم والاصل في نظرية المعرفة واصلها، ويقوم على تلقي المعارف من مصدر خارجي

موثوق، سواء كان وحياً سماوياً معصوماً، أو روايات تاريخية، أو معاجم لغوية، أو أخباراً متواترة، غير أن المقصود هنا على وجه التحديد هو المنهج النقلي المعتمد على الوحي الإلهي دون غيره؛ إذ إن هذا المنهج، حين يكون متصلاً بالوحي الصادر عن الحقيقة المطلقة، لا يُعد مجرد وسيلة تكميلية للمعرفة كما يصفه بعض المتكبرين على الوحي وصاحب الوحي، بل يتحول إلى مصدر تأسيسي وأصيل، يعلو في مرتبته على الحس والعقل؛ لأنه يمثل اتصالاً مباشراً من المطلق الحقيقي، ومن الخالق الى الإنسان، ويوفر له من المعارف ما لا يمكن للعقل بمفرده ولا للحس أن يبلغاه، مهما أوتيا من قدرة على التأمل أو التجريب، ولذلك فإن العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه والتفسير تعتمد عليه أساساً، وكذلك كثير من مباحث العلوم الإنسانية، لا سيما حين تتصل بالنظرة إلى الإنسان، والتاريخ، والغائية، بل إن كل عاقل منصف يبحث في أصل الثقافة ومنشأ الحضارة لا يملك إلا أن يعترف بأن هذا المنهج - أي الوحي - هو الأصل الذي نقل الإنسان من كونه كائناً غريزياً عابثاً إلى كائن عاقل ذي غاية وثقافة ومنظومة قيمية راقية، إذ لولا الوحي لما استقامت للإنسان رؤية كونية متكاملة، ولا وُجدت لديه منظومة معرفية متماسكة، ولا ارتقى في درجات الحضارة، وهذا ما سيتضح لاحقاً عند تناول المباحث الخاصة باستحصال المعرفة، ومناقشة البعد المعرفي والثقافي لظهور الحضارة الأولى، ومن هنا يتبين أن المنهج النقلي - المعتمد على الوحي - ليس فقط منهجاً معرفياً، بل هو أيضاً لحظة التحول الكبرى في تاريخ الإنسان، ومنبعُ الانطلاقة الحضارية الأولى نحو التمدن والوعي والمعنى.

وأخيراً، المنهج الفطري الحدسي، الذي يعتمد على البديهة والذوق العقلي المباشر، ويستند إلى ما زُرع في النفس الإنسانية من تصورات أولية، كإدراك وجود الذات، والتمييز بين الخير والشر، والشعور بالعدل والظلم، والإحساس بالحاجة إلى علة. يستعمل هذا المنهج في مجالات العقيدة، والأخلاق، والتأملات الوجودية، ويُعدونه أساساً ضرورياً لبناء كل معرفة لاحقة، لأنه يُمثل نقطة الانطلاق التي تبدأ منها حركة الفكر. ومصادره هي الفطرة السليمة، والحدس العقلي النقي، والوجدان الإنساني الذي لم تُفسده المؤثرات الخارجية.

بالمحصلة الأخيرة، فإن جميع المناهج المعرفية الأخرى ـ كالعقلي والحسي والفطري والتاريخي ـــ لا تُعد في نظرنا مناهج تأسيسية مستقلة بذاتها، بل هي مناهج ندرسها ونتعلمها ونتقنها من باب الإلزام والاحتجاج على من يعتمدها، لا من باب أنها مصادر للمعرفة بذاتها. لأننا نقر ان المنهج المعرفي الأصيل الذي نعتمده هو الوحي الإلهي وما وافقه وما كان نتاج ثمرة الوحي فقط، والوحي قد تكفل ببيان كل شيء، ووضح للإنسان معالم الطريق، وأرشده إلى أصول التفكير، ومناهج الاستدلال، وغايات المعرفة.

مشاكل في حصر الدليل بالدليل الحسي فقط

يطرق اسماعنا ان البعض من الماديين او قل اغلب الماديين يطلبون دليلاً حسياً أو تجريبياً على وجود الله، مثل رؤية الله مباشرة أو التحدث معه، او ان يقيم عليه التجارب في المختبر، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. لكن هذا الطلب لن نقول عنه سفيه او ما شابه ولكنه ينم عن عدم احاطة بالمواضيع التي يتم مناقشتها ويحتوي على عدة مشاكل منها [1]:

🔷 **إنكار العقل بحكم عقلي:** بغض النظر عن صحة ما يدعيه أصحاب هذا الادعاء من أن المنهج المعرفي الوحيد المقبول هو المنهج الحسي أو التجريبي، إلا أننا عندما نتأمل هذا الموقف يكشف عن تناقض منهجي صارخ؛ فحين يقولون: "ما لا يُرى أو يُقاس أو يُستخلص من خلال الحس والتجربة فهو باطل"، فهذا ليس حكماً حسياً ولا نتيجة تجريبية، بل هو حكم عقلي مجرد، يُستنتج من مقدمات نظرية عقلية عن طبيعة المعرفة وأدواتها وحدودها. وبذلك، فهم يبنون موقفهم على حكم عقلي صرف، ثم يرفضون المنهج العقلي ذاته في أي استدلال آخر، خصوصاً إذا استُعمل لإثبات وجود الله أو لبحث الغيبيات. فكيف يُعقل أن يؤسسوا مذهبهم المعرفي على مقدمة عقلية لا يؤمنون بشرعيتها ولا يقبلون استخدامها في غير هذا الموضع؟!! إنهم ينكرون العقل عندما يقود إلى الغيب، ويستعينون به فقط عندما يخدم نفي الغيب، وهذا انتقائية منهجية فاضحة تُسقط دعواهم من الداخل، إذ لا

1. انظر براهين وجود الله، د. سامي عامري، تكوين الطبعة الأولى.

يمكن لعاقل أن يرفض أداة معرفية في أصلها، ثم يجعلها الأساس الحصري في تقرير حجته.

🔷 **الدليل التحكمي:** هذا دليل تحكمي لا أكثر، ولا يوجد شـــيء عقلي او حسـي يقول من اجل العلم بوجود خالق الكون او واجب الوجود، يجب ان يكون الدليل بمعاينته بالحواس بطريقة مباشـــرة، مع العلم ان كل من يقول بهذه المقولة يجب عليه ان يتنازل عن كل العلوم التي لم يحصـــل عليها دليل مثل الـذي يطلبـه الان، مثـل علم الفيزيـاء الكموميـة، وعلم التـاريخ، وحتى أفكـاره، فحسـب ادعاءه يجب الا يكون هناك افكار اصـلا لأنها ليسـت مما يمكن قياسـه مختبرياً!!

🔷 **مغالطة الصـــنف:** حصـــر الدليل بالحســـي يقع في مغالطة تصـــنيف الأشـياء. هو مثل سـؤال "ما لون الطعم الحلو؟" أو "ما طعم الرقم اثنان؟"، فالقول ان الشـــخص لن يؤمن بالله حتى يدركه بالبحث المعملي يقوم على ان الذات الإلهية تقبل الرصد المعملي وهذا لا دليل عليه اصلا!!

🔷 **فقدان الأدلة المباشـــرة في العلوم:** ان العلم المادي او الطبيعي في بعض الاحيان قد يفترض وجود قوانين او اشـياء تفسـر ظاهرة اخرى رغم غياب الدليل المباشـــر على وجودها، ووجودها - الفرضـــية التي لم تثبت بالدليل القطعي - هو الوحيـد الـذي يجعـل بقيـة الظواهر مفهومـة ومثـال على ذلـك المجال المغناطيسي.

بالإضـــافة الى ذلك، عند التأمل في مواقف أصـــحاب هذا المنهج نجدهم يعتمدون بشـــكل كبير على تقليد الغير في فهمهم للعلوم الطبيعية، حيث يؤمنون إيمـانـاً قطعيـاً بـالكثير من القوانين والنظريـات التي لم يختبروهـا بأنفســـهم، بل يســـتندون إلى ما ينقله العلماء والمختصـــون، وحتى العلماء أنفسـهم يقتصـر عملهم على مجالات محددة ولا يمكن لأي شـخص أن يتحقق بشكل مباشر من صحة جميع العلوم الطبيعية. أضف إلى ذلك أن هذه القوانين العلمية باعتراف أغلب العلماء ليست حقائق مطلقة، بل هي أفضل الاجتهادات المبنية على المعطيات المتاحة، وقابلة للتغيير والتطوير مع التقدم العلمي، وهذا يعني أن غالبية الماديين يعتمدون في معرفتهم على التقليد الاعمى

للآخرين، دون أن يخضعوا تلك المعرفة للمنهج الذي يطالبون الآخرين باتباعه، وهنا تظهر المفارقة: هم ينكرون أي إيمان غير تجريبي بحجة أنه "تقليد" أو "غير علمي" بينما يتبنون بأنفسهم منهج التقليد في قبول ما لا يستطيعون التحقق منه بشكل شخصي، حيث يقبلون بالمعارف العلمية التي ينقلها لهم مجموعة من الافراد دون ان يجربوها او يختبرونها، ويرفضون كل ما لا يوافق أهواءهم تحت ستار التجريب، مما يبرز تناقضاً في منهجهم الفكري! والذين ينحون هذا الطريق، فإنهم بطريقة أو بأخرى يحاولون تقييد أو حصر كل شيء ضمن إطار مادي بحت، مما يُقلّل من قيمة المسائل العقلية والمنطقية، ويسعون إلى إنكار أي وجود غير مادي أو غير محسوس، ويهمشون بذلك القضايا التي تتجاوز المحسوسات مثل القضايا الفلسفية والعقلية، هذا الاتجاه يؤدي إلى إقصاء الأمور التي تتطلب التفكير المجرد والعقلي، وكأن الحقيقة كلها تختزل فيما يمكن رؤيته أو لمسه فقط، بينما هناك الكثير من الحقائق التي ندركها بالعقل والمنطق ولا ترتبط بالمادة بشكل مباشر، بل ان كثير من العلماء والعقلاء اثبتوا ان حواسنا ليست هي افضل الحواس ولا حتى يمكننا ان نثق بها ثقة عمياء، فكثير من الأمور التي قد نستحصلها من حواسنا لا حقيقة لها في الواقع كالسراب مثلا.

المواقف العقدية من وجود الله

🔷 **المذهب الألوهي** (Theism): هو المذهب الذي يؤمن بوجود ذات كاملة الصفات، ويُطلق عليه مصطلح واجب الوجود "الله"، أصحاب هذه العقيدة يؤمنون بأن هذا الإله يتواصل معهم من خلال الرسل، ويقصد بهذا المصطلح أصحاب الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلامية.

🔷 **الربوبية** (Deism): هو مذهب يؤمن بوجود ذات أزلية قادرة خلقت الكون وجعلته يسير وفق نظام معين دون الحاجة للتدخل فيه. يرى أصحاب الربوبية أن الكون هو السبيل الوحيد لمعرفة الله ولا حاجة لإرسال وحي كي نعرفه. كما أنهم لا يؤمنون بالأديان ولا يرون أن الخالق تواصل مع البشر، خلافاً لعقيدة الالوهية التي تؤمن بتواصل الله مع البشر من خلال الوحي والرسل.

🔷 **الإلحـاد** (Atheism): هو المـذهـب الـذي ينكر أو ينفي وجود اللـه [1]، وينقسم إلى قسمين:

- **الإلحاد الإيجابي** (Positive Atheism): الذي يبني اعتقاده على أدلة يدعي انها تنفي وجود الله، وهو نادر لأن مسـألة نفي وجود الله تعتبر من المسال المتعذرة.

- **الإلحاد السـلبي** (Negative Atheism): الذي لا يملك دليلاً على نفي وجود الله وينكره ببسـاطة. وغالباً ما يعتبرون أن حجج الموحدين ليست كافية لإثبات وجود الله.

🔷 **اللاأدرية** (Agnosticism): أصحاب هذا المذهب يرون أن من المستحيل الحكم بوجود الله أو عدمه، ويتركون الأمر دون اتخاذ أي موقف سواء بالإثبات أو النفي. حجتهم تكون إما تسـاوي الأدلة المثبتة والنافية لوجود الله، أو عدم وجود دليل يرجح كفة الإثبات على النفي أو العكس. وهو "مصـطلح صـاغه (توماس هنري هكسـلي) في عام 1896 للدلالة على تعليق الاعتقاد في عدم وجود معطيات ملموسـة. ومن هنا يأتي المعنى العالم للمصـطلح: العقيدة القائلة بأنه لا يمكن معرفة الجوهر الخفي للواقع." [2]

🔷 **الشـيئية** (Ietsism): هو المذهب الذي يؤمن بأن خالق الكون هو قوة لا يمكن وصـفها أو إدراكها، ويكتفون بقول إن قدرة هذه القوة تتجاوز قدرة العقل البشـري على الإدراك. يختلفون عن الربوبية لأنهم أقل وضـوحاً في تحديد خصائص هذه القوة.

🔷 **اللااكتراثية** (Indifference): تعتبر موقفاً عقليا حيث لا يكترث أصحاب هذا الموقف بمسألة وجود الله من عدمه، فهم لا يبحثون في هذه المسألة أو يهتمون بها، سواء ثبتت الأدلة أم لم تثبت. [3]

---

1. الالحاد: "الموقف الذي يؤكد عدم وجود الله. انه يقترح انكارا ايجابيا وليس مجرد تعليق للايمان." ويليام رو- أحد اقطاب فلاسـفة الالحاد في العصور الاخيرة - الالحاد - 73

2. قاموس الفلسفة، الجزء الأول، مجموعة مؤلفين غربيين، ترجمة لطفي السيد منصور، دار الرافدين، الطبعة الأولى. ص 60.

3. "لا يرى اللااكتراثي أهمية لسؤال الوجود الإلهي؛ لأنه لا يعتبره مركزياً في صياغة فهم الإنسان للعالم أو قِيَمِهِ أو فِعلِهِ. الوجود المباشر الحيني هو ما يشغل اللااكتراثي، والسؤال عن ما عداه لا معنى له في الأغلب" د. سامي عامري - براهين وجود الله - تكوين الطبعة الأولى - ص 69.

تنبيه؛ قبل الدخول في أي حوار مع الملحدين حول قضـــايا الإيمان ووجود الله، من المهم أن نبدأ بطرح أسئلة تأسيسية تساعد على فهم موقف الطرف الآخر ورســـم صـــورة عن الطريقة التي ينظر بها إلى المعرفة والوجود. فالحوار ليس تبادلاً عشوائياً للكلمات، وإنما عملية تحتاج إلى توجيه واضح يكشف عن المنطلقات الفكرية للطرف المقابل، ويحدد منذ البداية مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف. هذه الأسئلة ليست مجرد إطار شكلي، بل هي مفاتيح حقيقية تفتح أبواب النقاش، وتحول دون الانجرار إلى تفاصـــيل جانبية قبل معالجة أصـــل القضية.

وأول ما ينبغي التوقف عنده هو نظرية المعرفة لديه: هل يعتمد على المباحث العقلية وحدها؟ أم يحصـــرها في التجربة الحســـية والعلم التجريبي فقط؟ أم أنه يجمع بين العقل والتجربة معاً؟ إن تحديد هذه الأرضية يساعدنا على معرفة الأسلوب الذي يمكن محاورته به. بعد ذلك يُطرح السؤال الجوهري المتعلق بنشأة الكون: كيف يفسر وجوده؟ هل يراه وليد عدم مطلق، أم يعتقد أن وراءه سـبباً أول أو قوة أزلية؟ هذه الأسـئلة تكشـف موقفه الحقيقي وتحدد مسـار النقاش: فإن أنكر أي سـبب للكون، صـار ملزماً أن يبرهن على هذا النفي، وهو ما يتجاوز قدرة العقل البشـري المحدود، أما إذا أقرّ بوجود سـبب أول لكنه لم يعرف طبيعته، فإن باب الحوار ينفتح حول ماهية هذا السـبب وخصـائصـه، وهل هو واجب الوجود الذي نسميه الله سبحانه وتعالى.

وعليه نحن حين نخوض الحوارات في هذا الموضوع، لا نرغب في الانشغال بجدالات بيزنطية لا تســـمن ولا تغني من جوع، بل نقصـــد أن نكلم من يطلب الحقيقة بإخلاص، لا من يتخذ الإلحاد وســـيلة للعبث والمراء. فكثير ممن ينتســـبون إلى هذا التيار لا يملكون موقفاً جدياً، بل ينكرون كل شـــيء لمجرد الإنكار، وبعضـهم يذهب إلى حدّ إنكار الوجود الخارجي نفســه، وآخرون ينكرون البـديهيـات العقليـة التي يقوم عليهـا كـل نقـاش. وهؤلاء في حقيقتهم لا يسـلكون طريق البحث عن الحقيقة، وإنما يمارسـون العبث والتشـغيب، فهم لا يثبتون ولا ينفون على أسـس عقلية، بل يضيّعون أوقاتهم وأوقات غيرهم في مهاترات سطحية لا تليق باي انسان عاقل. ونحن وقتنا أثمن من أن نضيعه في مثل هذه الألاعيب الصـــبيانية، فهي لا تزيد على أن تكون لهواً فكرياً ولعب

أطفال، بينما غايتنا الأولى والأخيرة موجهة إلى من يطلب الحق بجدّ، ويريد أن يصل إلى يقين راسخ يُقيم به حياته على أساس متين.

الفصل الثاني: مبدأ السببية او العلية

مدخل لدراسة السببية بين الفلسفة والعلم

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) [1]

"بإنكار المبادئ العلمية، يمكن للمرء أن يحتفظ بأي مفارقة" [2]

– جاليليو جاليلي [3]

يُعد مبدأ السببية أو العلية من المبادئ الأساسية في حياتنا الفكرية والعلمية، فمنذ بداية إدراك الإنسان لوجوده، وجد نفسه محاطاً بعالم من الظواهر والأحداث التي تتطلب تفسيراً ملحاً، فالسببية او الاسباب تجعل العالم مفهوماً ومعقولاً، فهي توضح كيف أن لكل نتيجة سبب، ولكل سبب نتيجة، مما ينسج شبكة معقدة من العلاقات التي تُشكِّل واقعنا المادي والوجودي.

وبما أننا نهدف إلى معرفة الحقيقة المتمثلة في هذا الكتيب في إثبات وجود الله من خلال مجموعة من الأدلة التي تتطلب فهماً عميقاً للمبادئ الأساسية التي تحكم الفكر الإنساني، لذلك أفردت فصل خاص بمبدأ السببية، هذا المبدأ الذي نجده في العلوم الطبيعية والفلسفية وفي حياتنا اليومية، فهي تمثل المنطق الذي نستند عليه لفهم كيف تعمل الأشياء من حولنا، ومن ثم كيف نصل إلى استنتاجاتنا بشأن الكون ووجود الخالق.

أهمية هذا الفصل تكمن في أنه يضع حجر الأساس لفهم الكون والعالم من حولنا بصورة صحيحة دون الدخول في التناقضات، وأيضا الأدلة التي ستتناولها الفصول اللاحقة اغلبها مبنية او متضمنة مبدأ السببية. لذلك، أفردنا هذا الفصل لتوضيح هذا المبدأ وتقديمه بطريقة شاملة، تشمل الجوانب العلمية

---

1. الكهف:84.

2. تعني أن التخلي عن القواعد الأساسية للعلم والمنطق، مثل مبدأ السببية، يسمح بقبول أفكار متناقضة أو غير عقلانية دون الحاجة إلى تفسيرها، فعندما يُنكر الإنسان هذه المبادئ يفقد الإطار المرجعي للحكم على الأمور، مما يتيح له تصديق أي شيء حتى لو كان يتعارض مع العقل والملاحظات العلمية، على سبيل المثال إنكار مبدأ السببية يؤدي إلى قبول فكرة أن الحياة المعقدة نشأت من صدفة تامة دون تفسير منطقي، او ان العدم المطلق اوجده!! وهذا ما لا يقبله العقل، فالعبارة تسلط الضوء على أن رفض المبادئ العلمية يفتح الباب للفوضى الفكرية ويعيق الفهم العقلاني للحقيقة.

3. جاليليو جاليلي (1564– 1642م): عالم فيزياء وفلك ورياضيات وفيلسوف إيطالي، يُعتبر أحد أبرز الشخصيات العلمية في عصر النهضة الأوروبية. ساهم بشكل كبير في تطوير المنهج العلمي الحديث واعتماد التجربة والملاحظة كوسيلة لفهم الظواهر الطبيعية. اشتهر بأبحاثه في مجال الحركة والجاذبية، واكتشافاته الفلكية باستخدام التلسكوب، مثل اكتشاف الأقمار الأربعة الكبرى للمشتري التي تُعرف اليوم بأقمار غاليليو. واجه صداماً مع الكنيسة الكاثوليكية بسبب دعمه لنظرية مركزية الشمس لكوبرنيكوس، وأُجبر على التراجع عن آرائه تحت تهديد محاكم التفتيش.

والفلسـفية، وتتناول الإشـكالات التي طُرحت حول هذا المبدأ عبر التاريخ دون تعقيد قدر المسـتطاع. فهذا الفصـل يمثل نقطة انطلاق لفهم الأدلة الأخرى التي سنطرحها في هذا الكتيب، وسيوضح لك، عزيزي القارئ، أن السببية ليست مجرد مفهوم نظري، بل هي المبدأ الذي يُبنى عليه فهمنا للكون وحقيقة واغلب ادلة اثبات وجود الله بصورة عامة، وسنعرف ان السببية هي من المبادئ التي لا تزال ثابتة حتى بالمستوى ما دون الذري، في حين ان البديهيات الأخرى قد اخترقت، ولا اشكال في خرقها لان البديهيات لها حدود فهي ليس مطلقة، حتى على مستوى مبدأ عدم اجتماع النقيضين فهو أيضا قد اخترق في عالم ما دون الذري.

نُبذة عن السببية

مبدأ السببية هو أحد المفاهيم الأساسية التي كونت تفكير الإنسان منذ العصور الأولى، وله تأثير واسع في الفلسفة والعلم. وقد يكون انبثاقه الأول لدى الانسان عندما سعى لربط الأحداث بعضها ببعض والبحث عن تفسيرات لأسباب الظواهر الطبيعية التي لاحظها. ولا يخفى ان وعي الانسان في تلك العصور الأولى ليس كوعي الانسان الان وقد تكون الأسئلة الأولى التي شغلت ذهن الإنسان القديم بسيطة، مثل: لماذا تسقط الأمطار؟ لماذا تنمو النباتات؟ ومع مرور الوقت، بدأ الإنسان يدرك أن لكل ظاهرة سبباً يدفعها، وأن هذا السبب يؤدي إلى نتيجة محددة.

ثم عالجته الفلسفة اليونانية القديمة [1]، فقد تناول أرسطو مبدأ السببية بشكل مفصل كما تنص بعض المصادر التاريخية، حيث قسم الأسباب إلى أربعة أنواع: السبب المادي (ما تصنع منه الأشياء)، والسبب الصوري (الشكل أو التصميم)، والسبب الفاعل (المحرك أو الصانع)، والسبب الغائي (الغاية أو الهدف)، ولكن ارسطو احتاج الى السبب الأول فقط للإيجاد، او قل في الحركة الأولى، ولا حاجة له في استمرار الحركة، وهو ما سماه بالمحرك الأول. هذا

1. بدأت بالحضارة اليونانية ليست لأنها اول الحضارات التي تناولت هذا المبدأ، او ان لها السبق باكتشافه او ما شابه، بل من باب الاختصار وعدم الاستطراد، وأيضا بسبب ما متعارف عليه عند الأغلبية. والا كثير من الأبحاث التاريخية تُثبت وتبين ان الحضارة اليونانية هي حضارة متعلمة على يد الحضارة المصرية وهي بدورها متعلمة من حضارة بلاد الرافدين، لأنها الاقدم وهي الأصل لكل الحضارات والثقافات الإنسانية.

التحليل للسببية أسس لفهم أعمق للعالم ووضع حجر الأساس للتفكير الفلسفي حول العلاقة بين الأسباب والنتائج، بعدها جاءت العصور الوسطى حيث تأثر المفكرون العرب والمسلمون بأفكار أرسطو والحضارة اليونانية بشكل كبير، أمثال ابن سينا والفارابي والغزالي، الذين أضافوا أبعاداً جديدة لفهم السببية، وناقشوا العلاقة بين الإرادة الإلهية والسببية الطبيعية. كان الغزالي، على سبيل المثال، ناقداً لفكرة السببية الحتمية في الطبيعة، حيث رأى أن الله هو السبب الحقيقي لكل شيء، وأن العلاقة بين السبب والمسبب ليست بالضرورة حتمية، بل هي مجرد عادات خلقها الله في العالم. في المقابل سعى ابن رشد الفيلسوف الأندلسي، إلى الدفاع عن فكرة السببية الطبيعية والربط بينها وبين الحكمة الإلهية، مشدداً على أهمية الأسباب في تفسير الظواهر. هذا الجدل بين الفلاسفة المسلمين حول طبيعة السببية أثر بشكل كبير في الفلسفة الغربية في وقت لاحق، ومع دخول عصر التنوير في أوروبا ظهر الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم [1]، الذي طرح تساؤلات عميقة حول طبيعة السببية، حيث رأى هيوم أن السببية ليست شيئاً يمكن ملاحظته بشكل مباشر في العالم، بل هي مجرد توقعات تنشأ من تعودنا على رؤية أحداث معينة تتعاقب معاً، فهو شكّك في معرفتنا الحقيقية بالعلاقة السببية بين السبب والمسبب، ورأى أنها تقوم على العادة او التكرار أكثر من كونها ضرورة عقلية، وقد شكلت أفكاره تحدياً كبيراً لمفهوم السببية السائد في زمانه.

وبعدها جاء إيمانويل كانط [2]، وهو بدوره تأثر بأفكار هيوم، لكنه رد عليه ليعيد صياغة مفهوم السببية ويضعها في إطار مختلف. وبالنسبة لكانط السببية ليست شيئاً يأتي من التجربة، بل هي جزء من الإطار العقلي الذي يستخدمه الإنسان لفهم العالم، فالسببية عند كانط هي شرط قبلي لجعل

1. ديفيد هيوم (1711– 1779م): فيلسوف ومؤرخ واقتصادي إسكتلندي، يُعدّ أحد أبرز أعلام الفلسفة التجريبية في العصر الحديث وأحد مؤسسي فلسفة الشك. ركّز في فلسفته على أهمية التجربة الحسية كمصدر أساسي للمعرفة، وقدم نقداً عميقاً لمفاهيم السببية والاستدلال العقلي. عُرف بكتابه "تحقيق في الفهم البشري" الذي ناقش فيه قضايا مثل الإدراك، العادة، والعلّية، وكتاباته أثرت بشكل كبير في الفكر الغربي الحديث، خاصة في مجالات الفلسفة، الأخلاق، والعلوم الاجتماعية.

2. إيمانويل كانط (1724–1804م) فيلسوف ألماني بارز يُعدّ أحد أهم مفكري عصر التنوير، حيث أسس الفلسفة النقدية وأحدث ثورة في الفكر الغربي. أبرز أعماله كتاب "نقد العقل المحض(Critique of Pure Reason) "، حيث قدّم رؤيته حول حدود المعرفة ودور العقل في فهم الواقع. كذلك كتابه "نقد العقل العملي(Critique of Practical Reason) " و"نقد ملكة الحكم(Critique of Judgment) "، واللذان تناولا قضايا الأخلاق والجمال. ترك كانط تأثيراً عميقاً على الفلسفة الحديثة، خصوصاً في مفاهيم الحرية والأخلاق ودور التجربة والعقل في تشكيل المعرفة الإنسانية.

التجربة البشـــرية ممكنة، وهي جزء لا يتجزأ من كيفية فهمنا للعالم من خلال إدراكنا للزمان والمكان. اما في العصـــر الحديث، فقد تطور مفهوم الســـببية مع تطور العلم، وخاصـــة مع ظهور الميكانيكا الكلاســـيكية [1] في الفيزياء، حيث قدم إســـحاق نيوتن [2] قوانين الحركة التي أصـــبحت تُعتبر تجســـيداً لمفهوم الســـببية في الطبيعة، فكل حركة لها ســـبب، وكل قوة تؤدي إلى نتيجة يمكن حســـابها والتنبؤ بها. هذه الفكرة قدمت نموذجاً صـــارماً لفهم العالم المادي، حيث يمكن تفســـير الظواهر الطبيعية من خلال قوانين دقيقة وحتمية مما يتيح لنا معرفة مستقبل الأمور على ضوء حاضر الاشياء.

لكن مع ظهور النظرية النســـبية [3] وميكانيكا الكم [4] في القرن العشـــرين، بدأ مفهوم الســـببية الكلاســـيكي يخضـــع لإعادة تقييم واســـعة النطاق، فقد أظهرت نظرية الكم أن الأحداث على المســـتوى دون الذري قد لا تكون خاضـــعة لنفس قوانين الســـببية التي نعرفها على المســـتوى الكبير، أحياناً لا يمكن تحديد الســـبب الدقيق لحدث معين، بل يتم وصـــف الاحتمالات فقط، بل ان بعض الاحداث تبدوا انها تحدث بدون ســـبب، هذا أثار جدلاً جديداً حول مدى دقة الفهم الكلاسيكي للسببية، ودفع العلماء والفلاسفة إلى إعادة النظر في كيفية تفسير العلاقة بين الأسباب والنتائج.

واليوم؛ مع اســـتمرار النقاش المحتدم حول الســـببية في الفلســـفة والعلم، فأصحاب الفلسفة وبعض العلماء لا يرون مستقبل لاي شيء دونه، فهو الركيزة

---

1. الميكانيكا الكلاسيكية: فرع من فروع الفيزياء يختص بدراسة حركة الأجسام تحت تأثير القوى، ووضع القوانين التي تحكم هذه الحركة. تُعد من أقدم وأهم النظريات الفيزيائية، حيث وضع أسسها كل من إسحاق نيوتن وغاليليو غاليلي في القرن السابع عشر. تعتمد الميكانيكا الكلاسيكية على قوانين نيوتن الثلاثة للحركة وقانون الجذب العام، وتُستخدم لفهم وتفسير حركة الأجسام الكبيرة نسبيًا التي تتحرك بسرعات أقل بكثير من سرعة الضوء. تشمل تطبيقاتها حركة الكواكب، الآلات الميكانيكية، والهياكل الهندسية. تعد الأساس الذي بُنيت عليه الفيزياء الحديثة مثل الميكانيكا النسبية والكمية.

2. إسحاق نيوتن (1643– 1727م): عالم رياضيات، فيزياء، وفلك إنجليزي، يُعدّ أحد أعظم العلماء في التاريخ وأكثرهم تأثيرًا في تطوير العلوم. وضع قوانين الحركة الثلاثة وقانون الجذب العام، والتي شكلت أساس الميكانيكا الكلاسيكية. كما ساهم في تطوير حساب التفاضل والتكامل بشكل مستقل عن لايبنتز. وقام بدراسات رائدة في البصريات، مثل تحليل الضوء الأبيض إلى ألوانه باستخدام المنشور. نشر أهم أعماله في كتابه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" الذي يُعتبر من أبرز الأعمال العلمية. كان لنيوتن دور كبير في تطوير المنهج العلمي الحديث وتأثيره امتد إلى العديد من مجالات العلم والفكر.

3. النظرية النسبية هي نظرية علمية صاغها ألبرت أينشتاين، تتكون من النسبية الخاصة (1905م) والنسبية العامة (1915م). تشرح الخاصة كيف أن الزمن والمسافة يتغيران عند السرعات العالية، وتربط الكتلة والطاقة بعلاقة E=mc^2. أما العامة، فتُفسر الجاذبية بأنها انحناء في نسيج الزمان والمكان نتيجة وجود الكتل الكبيرة. هذه النظرية أحدثت ثورة في فهمنا للكون، وفسّرت ظواهر مثل انحراف الضوء حول النجوم وحركة الكواكب وغيرها من الامور.

4. ميكانيكا الكم: هي فرع من فروع الفيزياء يختص بدراسة سلوك الجسيمات الدقيقة جداً، مثل الإلكترونات والفوتونات، حيث تتصرف بطريقة غريبة وغير حتمية تجمع بين خواص الموجات والجسيمات. تعتمد على مبادئ مثل مبدأ عدم اليقين والطبيعة الاحتمالية للظواهر، وهي أساس التكنولوجيا الحديثة كالإلكترونيات والحوسبة الكمية.

في فهم العالم والظواهر عندهم، اما البعض وخصوصاً التيار الذي يميل للإلحاد فهم يحاولون الطعن به والتخلي عنه في أي تعثر للفهم او العقل البشري في إدراك ســـبب ظاهرة معينة، ولكن يبقى مبدأ الســـببية جزءاً لا غنى عنه في سعي الإنسان لفهم الكون وربط الظواهر بعضها ببعض، من الأسئلة البسيطة التي طرحت في الماضـــي إلى التحديات المعرفية التي تواجهنا في العصـــر الحديث.[1]

1. لمن يريد الاطلاع عن المسائل التاريخية بخصوص الفلسفة والعلوم فهذه بعض المصادر:

-"تاريخ الفلسفة القديمة" - فريدريك كوبلستون (A History of Philosophy by Frederick Copleston) كتاب موسوعي.

-"تاريخ الفلسفة" - يوسف كرم.

مصطلحات مفتاحية:

🔷 السبب:

لغة: الحبل مطلقاً، أو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير الى ما يُتوصل به الى شيء. فكل شيء يتوسل به الى غيره فهو سبب، (والجمع أسباب). وقيل هو ما يكون طريقاً ومفضياً الى الشيء مطلقاً، وهذا المعنى يشمل العلة والسبب. [1]

اصطلاحاً: "**هو ما يكون الشيء محتاجا إليه إما في ماهيته أو في وجوده**، على حين أن الشرط هو ما يتوقف عليه وجود الشيء كالوضوء للصلاة. وقيل أيضا: إن السبب ما يلزم من عدمه العدم، ومن وجوده الوجود، على حين أن الشرط ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده لذاته وجود ولا عدم." [2] "وابن سينا عرّف السبب بأنه كل ما يتعلّق به وجود الشيء من غير أن يكون وجود ذلك الشيء داخلا في وجوده أو متحققا به وجوده". [3]

🔷 العلّة:

"بالكسر وتشديد اللام لغة اسم لعارض يتغيّر به وصف المحل بحلوله لا عن اختيار، ولهذا سمّي المرض علّة. وقيل هي مستعملة فيما يؤثّر في أمر سواء كان المؤثّر صفة أو ذاتا." [4] [5]. وعموما لا يوجد فرق بين السبب والعلة ولا بين المسبب والمعلول عند الفلاسفة وهذا ما بينه اغلب أصحاب المعاجم وأصحاب المهنة أمثال ابن رشد والغزالي في طيات كتبهم او كلامهم، واقتبس من كلام الكفوي في كتابه الكليات "**والسبب والعلة يطلقان على معنى واحد عند الحكماء، وهو ما يحتاج اليه شيء آخر، وكذا المسبب والمعلول فإنهما يطلقان عندهم على ما يحتاج الى شيء آخر، لكن أصحاب علم المعاني**

---

1. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ج1 ص458. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ج1 ص145.
2. المعجم الفلسفي، ج 1، جميل صليبا، ص 647-648.
3. المعجم الشامل للمصطلحات العلمية والدينية، ج 2، ابراهيم حسين سرور، ص 570.
4. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج 2، محمد علي التهانوي، ص 160.
5. "(العلة) هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه." التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص 66.

يطلقون العلة على ما يوجد شـيئاً، السـببَ على ما يبعث الفاعل على الفعل. والحكماء يقولون للأول العلة الفاعلية، وللثاني العلة الغائية." [1]

🔷 السببية او العلية (Causalite):

اختلف الفلاسفة والعلماء وأصحاب علم الكلام الإسلامي في وضع تعريف لمبدأ السببية، وبيان حدود هذا المبدأ. وكان الفلاسفة المسلمين لهم اطروحات كثيرة اقتبسوها من الوحي الإلهي او من تعاليم اهل البيت ع، ولكنهم وللأسف الشديد لم يرتكزوا على ما جاء على لسان الوحي، فاختلفوا وتفرقوا الى ممل ونحل. مع ذلك كانت الفترة الإسلامية من اهم الفترات الفلسفية والعلمية التي جاءت بعد الفترة اليونانية في هذا المجال، فهي قد سبقت الغربية بكثير، واغلب المؤرخين يشيرون الى ان ما في الفلسفة الغربية هو من شذرات الفلسفة الإسلامية مع تطوير لها. فمنهم من جعل السببية هي عبارة عن علاقة بين السبب والمسبب، وهذا العلاقة قال بعضهم انها حتمية والبعض الاخر نفى الحتمية وجعلها احتمالية، واستمرت الاختلافات الى يومنا هذا، لا اريد ان ادخل في كل تلك التفاصيل لأنها تعتمد على مقدمات وامور يجب دراستها حتى يتمكن القارء من أدرك المسالة، ما يهمني هو بيان مفهوم السببية بصورته البديهية وما نحتاجه في بحثنا فقط.

السببية: هي أن يكون لكل حدث أو تغير سبب أو علة أدت إلى حدوثه أو تغيره. [2] والسببية بهذا المفهوم هي تكاد تكون بديهية او من المسلمات العقلية، لأنها مبنية على مسلمة عقلية لا يمكن ان تنقض عند العقلاء ولا في العلم الحسي او الطبيعي، **وهي ان العدم المطلق لا ينتج شيء لأنه لا شيئية فيه** [3]، لذلك لابد من جود سبب اوجد ما لم يكن موجوداً، وهذا الامر ليس متعلقا فقط في المنطلق العقلي بل هو اهم ركيزة في العلم الطبيعي او الحسي، فهي - العلوم الطبيعية - تعتمد على المشاهدات والربط بينها من خلال تلك العلاقة التي تنبني بين السبب والمسبب، فلا

1. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لابي البقاء الكفوي، ص 504 - 505.
2. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، ص571.
3. من تعريف العدم المطلق للسيد أحمد الحسن في وهم الألحاد.

يوجد شـــيء اســـمه تأثير بلا مؤثر ابداً لا عقلياً ولا علمياً، حتى على مســـتوى ميكانيكا الكم التي سيتم تناول بعض من مواضيعها فيما بعد.

وأيضـا أكد الكثير من الفلاسـفة والعلماء على مبدأ السـببية بهذا المعنى، وبينوا انـه بـديهي ولا نقـاش فيهـا، ومن بعض الـذين قـالوا ذلـك لالانـد [1] في معجمه الفلسـفي فيقول: السـببية (المبدأ أو القانون): أحد المبادئ الأسـاسـية للفكر، أو المبادئ العقلانية. الصـيغة الأكثر شـيوعاً لهذا المبدأ هي: "**كل ظاهرة لها سـبب**."(وليس: كل نتيجة لها سـبب، فهذا يُعد تكراراً للمعنى، وفقاً للفهم الحالي لكلمة "نتيجة").

"Causalité (Principe ou loi de) :L'un des axiomes fondamentaux de la pensée, ou principes rationnels. L'énoncé le plus usuel est celui-ci : " Tout phénomène a une cause. " (Et non : tout effet a une cause, ce qui est tautologique, au sens actuel du mot "effet")." [2]

ويقصـــد بكلمة "ظاهرة" حســـب معنى "phénomène" فهي تأتي مرادفة لكلمة (حدث او ممكن) في العربية، وحسب هذا المعنى يكون التعريف صحيح.

وأيضا صـرح بذلك الفيلسـوف الألماني كانط في كتابه نقد العقل المحض، حيث وضح كانط أن السببية شرط قبلي للمعرفة، حيث لا تأتي من التجربة، بل هي جزء من إطار عقلي مسـبق ينظم العالم. السـببية شـرط عقلي يُسـهم في بناء التجربة البشـرية، وهي جزء أسـاسـي في فهمنا للظواهر الطبيعية وبين ان التنازل عن المبادئ العقلية ليس بالأمر الصائب، وجاء ذلك ضمن رده على دافيد هيوم الذي أنكر المعارف القبلية، ومن تلك المبادئ السببية، ويلخص قول كانط إلياس بلكا في كتابه الوجود بين السـببية والنظام "**اعتقد كانط ان السـببية قـانون "طبيعي" ومبـدأ من مبـادئ الـذهن البشـــري، وانـه لا يجوز بحـال التنازل عنه أو التشـكيك فيه...**" [3]، اما سـبينوزا [4] فقد صـرح واكد على ان

---

1. أندريه لالاند (1867–1963): فيلسـوف فرنسـي وأسـتاذ في جامعة السـوربون، اشـتهر بتأليفه "Vocabulaire technique et critique de la philosophie". يُعتبر هذا العمل مرجعاً مهماً في مجال المصـطلحات الفلسـفية، حيث يقدم تعاريف وتحليلات دقيقة لمفاهيم فلسـفية متعددة، مما جعله أداة مهمة ومرجع لأغلب الباحثين والدارسين.

2 .Lalande, André. Vocabulaire technique et critique de la philosophie. Paris : Presses Universitaires de France, p. 126.

3. الوجود بين السـببية والنظام دراسـة في الأسـاس الشـرعي والفلسـفي لاسـتشـراف المسـتقبل، إلياس بلكا، المعهد العالمي للفكر الإسـلامي، الطبعة الأولى 2009م، ص 115.

4. باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza): فيلسوف هولندي من أصل يهودي برتغالي (1632–1677)، من أشهر فلاسفة العقلانية في العصر الحديث. اشـتهر برؤيته للكون ككيان واحد لا ينفصـل فيه الله عن الطبيعة، في ما يُعرف بـــ وحدة الوجود. من أشـهر أعماله الأخلاق، حيث قدّم تصـوراً

العلة شـــرط المعلول بقوله: "**اذا وجُدت علة معينة نتج عنها بالضـــرورة معلول ما، وعلى العكس، إذا لم توجد أي علة معينة كان من المحال أن ينتج عنها أي معلول.**" [1] فهو يرى أن العلية (الســببية) مبدأ ضـروري لا يمكن التخلي عنه، إذ يؤمن بأن كل شـيء في الوجود يحدث نتيجة سـبب محدد، ولا يمكن أن يقع أي حدث دون وجود علّة تسـبقه، فالعلّة شـرط أسـاسـي لوجود المعلول. ويقول في موضـوع اخر: "**لا بد أن يكون لكل شـــيء ســـبب أو علة معيّنة تفسـر وجود هذا الشـيء او عدم وجوده. وإن وُجد مثلاً مثلث، لابد من وجود علة أو سـبب لوجوده، وإن لم يوجد، لابد أيضـا من وجود علة أو سـبب يمنع وجوده أو ينزع منه الوجود. ثم إنه لابد لهذه العلة أو السـبب إما أن تتضـــمنها طبيعة الشـــيء أو أن توجد خارج الشـــيء. والعلة التي تفسّر مثلاً عدم وجود دائرة مربعة أنما تشير إليها طبيعة الدائرة المربعة نفسها من جهة انطوائها على تناقض وعلى العكس...**" [2]

تحديات مبدأ السببية

يجب التنبيه الى قضـــية، ان المســـيرة العلمية البشـــرية هي تكاملية ومتدرجة على جميع الاصـعدة، فالمطلع على المسـائل العلمية والفلسـفية يعرف ذلك جيداً، وليس دائما الاجماع يكون على صـــواب، فقبل كوبرنيكوس كانت غالبية البشـرية تعتقد ان الأرض هي مركز الكون وبقية الكواكب والنجوم هي التي تدور حول الأرض، وقد اثبت الزمن عدم صـــحة ذلك، فعلينا دائما ان نكون واعين وباحثين عن الحقيقة، وليس من الصواب عند أي مطب نتخلى عن كل ما كسبناه سابقا، فالطعن في قانون السببية يعد تدميراً شاملاً للمنظومة الفلســـفية والعلمية الإنســـانية من دون رجعة، وهذا ليس من فعل العقلاء، فـالعقلاء يبحثون عن الحلول عنـد التعثر وليس هـدم المنظومـة برمتهـا. وســنتناول تحديات مبدأ الســببية بصـورة مختصـرة في المجالين الفلســفي والعلمي.

رياضياً للفلسفة والأخلاق، قائماً على الضرورة والعقل. أثارت آراؤه جدلاً واسعاً، وتعرض بسببها للطرد من الجماعة اليهودية، لكنه ترك أثراً عميقاً في الفلسفة الأوروبية الحديثة.

1. علم الأخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، ص32.

2. علم الأخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، ص40 -41.

فلسفياً

وجهت بعض الانتقادات القوية لمبدأ السببية وبدأت هذه الانتقادات تقريبا مع الفلاسفة المسلمين، وأبرز الفلاسفة والعلماء المسلمين الذين انتقدوا مبدأ السببية هم أبو حامد الغزالي، فخر الدين الرازي، ابن تيمية، وابن حزم. يُعتبر الغزالي من أوائل من **اعترضوا على حتمية العلاقة بين السبب والمسبب** في كتابه تهافت الفلاسفة، حيث رأى أن الأحداث تحدث بإرادة الله المباشرة وليست نتيجة لعلاقات سببية حتمية، ضارباً مثالاً على ذلك بالعلاقة بين النار والاحتراق، حيث يؤكد أن الله هو الذي يخلق الاحتراق عند ملامسة النار للشيء القابل للاشتعال، وأن هذه العلاقة ليست حتمية بل "عادة" أرساها الله في هذا العالم. ايضاً فخر الدين الرازي اعترض على حتمية السببية، مشيراً إلى أن الله قد يتدخل مباشرة في الأحداث، وأن الأسباب الظاهرة قد لا تكون دائماً هي الحقيقية. أما ابن تيمية، فقد أكد على أن الله هو الفاعل المطلق، وأن القوانين السببية تعمل ضمن "عادة" أرساها الله ولكنها ليست حتمية، إذ يمكن لله تغييرها كما يشاء، وابن حزم من جانبه، وإن لم يتناول السببية بشكل موسع، لكنه كان يشكك في استقلالية الأسباب الطبيعية، معتبراً أن الظواهر في الطبيعة تعتمد كلياً على إرادة الله ولا تملك قوة ذاتية.

عموماً هذه الانتقادات كلها لم تكن ناظرة للطعن في جوهر مبدأ السببية الذي ينص على ان كل حادث لا بد له من محدث او سبب اوجده، بل كانت ناظرة لطريقة الربط بين مفهوم السببية وعلاقته بالحتمية، وكان رفضهم للحتمية المطلقة المرتبطة بالأسباب.

لكن بدأت الازمة في العالم الغربي خصوصا عندما انتقد دافيد هيوم [1] مبدأ السببية، ويقول البعض على ان ما جاء به هيوم هو مستوحى من أطروحة الغزالي والعلماء المسلمين في كلامهم حول السببية، ومختصر ما طرحه هيوم هو أن العلاقة السببية ليست حتمية أو نابعة من العقل، بل هي

---

1. دافيد هيوم (1711–1776) فيلسوف أسكتلندي وعالم اقتصاد ومؤرخ، من أهم أعماله "رسالة في الطبيعة البشرية (A Treatise of Human Nature) التي تناول فيها أسس الفهم البشري، وكتاب "بحوث في الفهم البشري(An Enquiry Concerning Human Understanding) "، و"بحوث في مبادئ الأخلاق .(An Enquiry Concerning the Principles of Morals) "قدم في هذه الكتب نقداً عميقاً لمفاهيم المعرفة والأخلاق والعقل، ما جعله من أبرز الفلاسفة التجريبيين في العصر الحديث.

نتيجة تكرار وتعود على رؤية أحداث معينة تتبع بعضها البعض. فوفقاً لهيوم، عندما يلاحظ الإنسان حدوث أمرين بترتيب معين بشكل متكرر، يتولد لديه توقع بأن الحدث الأول يؤدي دائمًا إلى الثاني، حتى وإن لم يكن هناك رابط ضروري بينهما، لذا؛ فإن مفهوم السببية عند هيوم ليس إلا توقعاً نفسياً ناتجاً عن تكرار التجربة، وليس استنتاجاً عقلياً يعتمد على منطق صارم.

يميز هيوم بين "**الانطباعات**" و"**الأفكار**"، حيث تمثل الانطباعات التجارب الحسية القوية المباشرة، بينما الأفكار هي صور باهتة لهذه الانطباعات. ومن خلال التكرار، ينشأ في أذهاننا مفهوم السببية كفكرة تتبع الانطباعات المتكررة للأحداث المتتابعة، مما يجعلنا نعتقد بوجود علاقة سببية. ويعتمد هيوم في توضيح هذه الفكرة على ثلاثة مبادئ تربط الأفكار في العقل: التشابه، والتجاور (في المكان أو الزمان)، وعلاقة السبب بالأثر، لكنه ينفي وجود علاقة سببية ضرورية في الواقع الطبيعي، مشيراً إلى أن هذه العلاقات السببية هي مجرد "عادة" عقلية وليست قانوناً يحكم العالم بضرورة.

واجهت أطروحة هيوم كثيرا من الردود وعلى راسها ما قدمه كانط في كتاباته وبالخصوص كتابه نقد العقل المحض، ولكن هيوم لم يكن نقده موجها كمن سبقه لجوهر السببية، بل كان موجها للمنظومة العقلية بصورة عامة وللعلاقة الحتمية بين السبب والمسبب، وهذا ما نص عليه هو بنفسه في احد رسائله التي أرسلها إلى (جون ستيوارت) سنة 1754م؛ أي: بعد تأليفه لكتابه "An Enquiry Concerning Human Understanding" (1748م) الذي أصّلَ في فصله الرابع لنظرية العلاقة الاقترانية بين الأشياء، بقوله: "ولكن اسمح لي أن أقول لك **إنني لم أقرر البتّة ذاك الادّعاء السخيف أن شيئاً ما من الممكن أن ينشأ دون سبب.** أنا لم أقرّر إلا أن يقيننا في خطأ تلك الدعوى لم ينجم عن حدس ولا عن برهان، وإنما من مصدر آخر". [1] بالإضافة لذلك فإن ما جاء به هيوم لا يمكن ان يكون موافقا لا للعقل ولا للمنطق العلمي ولا للواقع العملي، فقانون الجاذبية يُظهر السببية كقانون طبيعي؛ فالأشياء تسقط نحو الأرض بسبب قوة الجذب الكتلي، بغض النظر عن تكرار التجربة من عدمه، وفي مختبر الكمياء مثلا تُثبت التجارب وجود علاقات سببية ثابتة؛ فعند خلط

1. براهين وجود الله، في النفس والعقل والعلم، د. سامي عامري، ص 420.

حمض الهيدروكلوريك (HCl) مع هيدروكسيد الصوديوم (NaOH)، ينتج كلوريد الصوديوم (ملح الطعام)، وهذا ليس مجرد تكرار بل نتيجة لعلاقات كيميائية محددة. فالسببية إذن هي ضرورة عقلية وواقعية تفسر الظواهر الطبيعية بشكل عقلاني ومنطقي، وتُعتبر جزءاً من النظام الداخلي للكون وليست توقعات نفسية عشوائية، ومن الأمثلة البسيطة المستوحاة من الحياة الطبيعية للإنسان هو مثال الجوع والشبع يُظهر علاقة سببية واضحة ومفهومة في حياتنا اليومية، عندما يشعر الإنسان بالجوع يدرك أن هذا الشعور ناتج عن حاجة جسمه للطاقة والمواد الغذائية، وعندما يتناول الطعام يزول الجوع تدريجياً ويشعر بالشبع، وذلك لأن الطعام يوفر العناصر اللازمة للجسم التي تُعيد توازن الطاقة لديه. هذه العلاقة ليست مجرد تكرار اعتدنا عليه، بل هي علاقة سببية بيولوجية؛ فالجوع يحدث نتيجة انخفاض مستويات السكر في الدم وإفراز الجسم لهرمونات تُحفّز على تناول الطعام، والشبع يحدث نتيجة إطلاق هرمونات أخرى تُعطي إشارات للدماغ بأن الجسم قد حصل على حاجته من الغذاء، هذا المثال يعكس فهماً ضرورياً للسببية في عملية الجوع والشبع، وهو أبعد من مجرد عادة نفسية، بل هو تفسير يعتمد على معرفتنا بالعمليات البيولوجية التي تحكم جسم الإنسان. ويؤكد الفيلسوف **و. ت. ستاس** [1] على قانون السببية بقوله: "**كل دارس للمنطق يعلم أن هذا هو أعظم قوانين العلوم، وأساسها كلها. إذا لم نكن نؤمن بحقيقة السببية، وأن كلَّ ما له بداية فله سبب... فستنهار جميع العلوم في وقت واحد لتصير غباراً**" [2]

وخلاصة القول ان السببية مبدأ لا يمكن نقضه، ومن ينكر هذا المبدأ فهو لا يبقي حجر على حجر، وحتى ان قدم ادلة لإنكار السببية فهو بذلك يؤمن بالسببية دون ان يشعر. اما بالنسبة للحتمية فنحن أيضا لا نؤمن بالحتمية

---

1. و. ت. ستاس (1886– 1967م): فيلسوف بريطاني في القرن العشرين، عُرف بمساهماته في مجالي الفلسفة الأخلاقية والدينية. يُعتبر من أبرز المفكرين الذين حاولوا دمج الفلسفة التحليلية مع الفلسفة المثالية. أبرز أعماله تناولت العلاقة بين الدين والعقل، حيث دافع عن فكرة أن التجربة الدينية ليست بالضرورة متناقضة مع العقل أو المنطق. من أهم مؤلفاته "التصوف والعقل" و"الروحانية" حيث تناول فيهما التأثيرات الروحية والدينية في حياة الإنسان وشرح كيف يمكن التنسيق بين التجربة الدينية والواقع العقلي.

2 .W.T. Stace, A Critical History of Greek Philosophy (London: Macmillan and Co., 1934), p. 6.

المطلقة، بل ان الامر كما بينوه اهل البيت (ع) منذ قرون هو امر بين امرين [1]، وهذا ما سنذكره عندما نتناول مسالة الفيزياء الكمومية والحتمية.

علمياً

بدأ الشك العلمي في مبدأ السببية بوضوح في أوائل القرن العشرين مع ظهور ميكانيكا الكم، وهي نظرية قدمت منظوراً جديداً حول سلوك الجسيمات على المستوى الذري ودون الذري، حيث أظهرت التجارب أن هذه الجسيمات لا تتبع قوانين السببية الكلاسيكية التي كان العلماء يعتبرونها حتمية في الفيزياء التقليدية. فقبل مجيء ميكانيكا الكم، كانت الفيزياء تعتمد على السببية المطلقة، التي تفترض أن لكل حدث سبباً محددا، وأنه من الممكن توقع نتائج الأحداث المستقبلية بدقة بناءً على معرفة الظروف الحالية، كما في قوانين نيوتن للحركة، لكن مع بزوغ فجر ميكانيكا الكم، برزت ظواهر غريبة على المستوى الذري، مثل مبدأ عدم اليقين لهايزنبرغ، الذي ينص على أنه لا يمكن تحديد موقع وسرعة الجسيم بدقة في آن واحد، مما يعني أن هناك حدودا أساسية للمعرفة، وهو ما يحد من قدرتنا على التنبؤ الدقيق بالأحداث بناءً على الأسباب.

إضافة إلى ذلك، قدمت ميكانيكا الكم مفهوم التراكب الكمومي، حيث يمكن للجسيم أن يكون في عدة حالات في نفس الوقت حتى يتم قياسه، في تجربة الشقين التي تُعد من أبرز التجارب في هذا السياق، يظهر الجسيم نمط تداخل عندما لا يُقاس، مما يعني أنه يتصرف كموجة ويمر عبر الشقين معاً، لكن عند قياسه يختفي هذا التداخل ويتصرف كجسيم يمر من شق واحد. هذا التغير المفاجئ والسريع الذي يحدث عند القياس، ويُعرف بانهيار دالة الموجة، أثار حيرة العلماء لأنه لا يوجد سبب ظاهر لهذا التغير سوى فعل القياس نفسه، علاوة على ذلك، جاء تأثير التشابك الكمومي الذي يظهر في تجربة EPR [2]،

---

1. "عن أبي عبد الله عليه السلام قال:"**لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين**" الكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 208.
2. تجربة EPR هي تجربة فكرية اقترحها ألبرت أينشتاين وناثان روزن وبوريس بودولسكي في عام 1935م، بهدف التحدي لنظرية الكم. اعتمدت على فرضية وجود جسيمين مشتبكين يمكن أن يؤثرا على بعضهما البعض بشكل فوري، بغض النظر عن المسافة بينهما، مما يتناقض مع

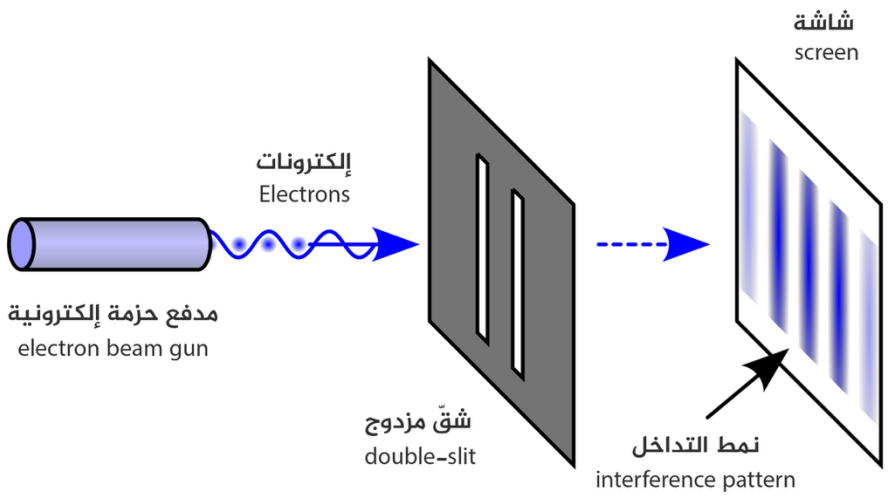

صورة توضيحية: تجربة شقي يونغ أو تجربة الشق المزدوج.

ليضيف مزيداً من الغموض في التشابك، حيث يمكن لجسيمين متشابكين أن يؤثرا على بعضهما البعض لحظيا، بغض النظر عن المسافة بينهما، وهذا يطرح تحديا للسببية التقليدية التي تعتمد على التأثيرات المتسلسلة في المكان والزمان. هذه الظواهر الكمومية دفعت بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن السببية المطلقة قد تكون مجرد خاصية تقريبية على المستوى الكلاسيكي، بينما على المستوى الكمومي يصبح سلوك الجسيمات احتماليا ويصعب تفسيره بالطرق التقليدية.

هذا الشك في السببية لم يكن مجرد نزعة فلسفية او نزعات نفسية كما يدع المشككون، بل جاء من نتائج تجارب علمية قادت إلى صياغة تفسيرات مختلفة، مثل تفسير كوبنهاجن [1] الذي يقترح أن دالة الموجة ليست تعبيرا عن واقع حقيقي، بل أداة حسابية، وتفسير العوالم المتعددة الذي يطرح أن جميع الاحتمالات تحدث في عوالم موازية. باختصار؛ أظهرت ميكانيكا الكم أن السببية الكلاسيكية ليست قانونا مطلقا، بل قد تكون خاصة بالمستوى الكبير

مبدأ المعلوماتية المحلية في الفيزياء الكلاسيكية. رفض أينشتاين هذا المفهوم، ووصفه بأنه "عمل عن بُعد"، بينما دعمت التجارب الحديثة مثل تجربة آلان آسبكت في الثمانينات نتائج التشابك الكمومي، مما أظهر صحة الظاهرة وأكد على تعقيدات نظرية الكم.

1. تفسير كوبنهاجن: هو أحد التفسيرات الرائدة لميكانيكا الكم، طُور على يد الفيزيائي نيلز بور وأتباعه في عشرينيات القرن العشرين. ينص هذا التفسير على أن الجسيمات دون الذرية لا تمتلك خصائص محددة (مثل الموقع أو السرعة) قبل قياسها، وبدلاً من ذلك تكون هذه الخصائص في حالة من الاحتمالات أو "التراكب الكمومي"، وعند إجراء القياس "تنهار" الدالة الموجية للجسيم ليأخذ قيمة محددة، ووفقاً لتفسير كوبنهاجن من غير المجدي أن نسأل عن حالة الجسيم قبل القياس، حيث يعتمد وجود خصائص محددة على عملية الملاحظة أو القياس نفسها.

أي ما فوق الذري، بينما تخضع الجسيمات دون الذرية للاحتمالية، مما قاد إلى إعادة تقييم أحد أهم المبادئ التي تقوم عليها الفيزياء والعلوم الطبيعية. وكانت هذه النتائج المبنية على فيزياء الكم صادمة للجميع وقد صرح غير واحد من العلماء ان ما تم طرحه في فيزياء الكم هو اغلق الباب امام فهمها ومعرفتها بصورة صحيحة بنفيها للسببية. وقد استغل الملحدون هذا الطرح من اجل نقض ما يعتقد به المؤمنين من ادلة على اثبات وجود الله، وقد ذهبوا بها عريضة، إلى أن جاء الرد الساطع للسيد أحمد الحسن في كتابه "وهم الإلحاد: آيات الربوبية في الكون"، حيث قدّم بياناً حاسماً يجمع بين القوة العلمية والبرهان العقلي لدحض الفهم الخطأ للنظريات العلمية، بأسلوب يتميز بالمتانة والوضوح العميقين، فالإمام نطق بالقول الفصل في وسط هذه العشوائية بين المنكرين والمتبنين والملحدين، كاشفاً نقاط الضعف بتفصيل دقيق مبني على ما قدمه المنهج العلمي والأدلة العقلية. وسأطرح ان شاء الله بعضاً من ردوده التي رد بها على هذه الادعاءات في هذا الكتيب.

أُذَكر حين نناقش مبدأ السببية، علينا أن نضع في عين الاعتبار أنه يُعد من الركائز الأساسية التي قامت عليها العلوم الطبيعية، حيث أثبت هذا المبدأ موثوقيته وثباته عبر العصور ولم يثبت أنه تخلف في أي من المسائل العلمية الراسخة، ويؤكد على ذلك العالم **ديفيد بول** [1] بقوله: "في الطبيعة لا شيء يظل ثابتاً؛ كل شيء في حالة دائمة من التحول والحركة والتغيير. ومع ذلك، **نكتشف أنه لا شيء ينبثق من اللاشيء ببساطة من دون وجود سابقة كانت موجودة من قبل**. وبالمثل، لا شيء يختفي دون أثر، بمعنى أنه لا شيء يتحول إلى اللاشيء بشكل مطلق لاحقاً. **يمكن التعبير عن هذه الخاصية العامة للعلم من حيث المبدأ الذي يلخص نطاقاً واسعاً من مختلف التجارب وهو الأمر الذي لم يتناقض في أي ملاحظة او تجربة علمية او غير ذلك؛ أي أن كل شيء يأتي من أشياء أخرى ويؤدي الى أشياء أخرى.**" [2] ويضيف "**هذا المبدأ ليس مجرد بياناً لوجود السببية الطبيعية، بل هو اساسياً أكثر من السببية لأنه أساس أمكانية فهمنا للطبيعة بطريقة**

1. ديفيد بول: فيزيائي امريكي ساهم بشكل كبير في الفيزياء الكمومية والفيزياء النظرية والفلسفة وعلم النفس العصبي واحد أعضاء مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية في الحرب العالمية الثانية.

2. السببية والصدفة في الفيزياء الحديثة، ديفيد بوم، ص11.

عقلانية." [1] وكلامه صريح في اثبات مبدأ السببية ولا يحتاج الى تعليق. اذن لإثبات أن هذا المبدأ ليس مطلقاً أو قد يتخلف في موضع ما، نحتاج إلى دليل قطعي وصريح، وليس مجرد غياب التفسير أو عدم القدرة على إثبات السبب، فعندما نرى ظواهر في فيزياء الكم تبدو كأنها تحدث دون سبب ظاهر، فإن هذا لا يعني أن مبدأ السببية قد انهار، بل يعني أننا لم نصل بعد إلى الفهم الكامل أو الدليل القاطع على الأسباب الكامنة خلفها، وقد أقر العلماء بأن هناك جوانب عديدة في ميكانيكا الكم لم تُفهم تماماً الى يومنا هذا، مما يشير إلى أن الأبحاث المستقبلية قد تكشف لنا المزيد عن الأسباب المخفية التي تتحكم في هذه الظواهر.

ومن هؤلاء العلماء الذين يقرون بان النقاش في مسألة ميكانيكا الكم مازال مستمر، هو عالم الفيزياء الروسي ألكسندر فلنكِن [2] بقوله ان:

"Quantum mechanics is a phenomenally successful theory. It explains the structure of atoms, the electric and thermal properties of solids, nuclear reactions, and superconductivity. Physicists rely on it with complete confidence—and yet, the foundations of this theory are notoriously obscure, and debate about its interpretation is still ongoing... Since the choice of interpretation does not affect any results or predictions of the theory, most practicing physicists take an agnostic attitude toward the foundations of quantum mechanics and spend little time worrying about such issues. In the words of the particle physicist Isidor Rabi, "Quantum mechanics is just an algorithm. Use it. It works, don't worry." This "shut up and calculate" attitude works fine..." [3]

ترجمة: "**ميكانيكا الكم نظرية ناجحة بشكل مذهل. فهي تفسر بنية الذرات، والخصائص الكهربائية والحرارية للمواد الصلبة، والتفاعلات النووية، والموصلية الفائقة. يعتمد عليها الفيزيائيون بثقة تامة - ومع ذلك، فإن أسس هذه النظرية غامضة بشكل ملحوظ، والنقاش حول تفسيرها ما زال مستمراً.**" ويضيف فلنكن "نظراً لأن اختيار التفسير لا يؤثر على أي نتائج أو تنبؤات للنظرية، فإن معظم الفيزيائيين الممارسين يتخذون موقفاً لا مبالياً تجاه أسس ميكانيكا الكم ولا يقضون الكثير من الوقت في القلق

---

1. نفس المصدر السابق.

2. ألكسندر فلنكن (Alexander Vilenkin) : عالم فيزياء نظرية وكونيات 1949م، اشتهر بأبحاثه في نظرية التضخم الكوني الأبدي ومفهوم الخلق الكمي للكون من لا شيء، اللذين يقترحان نشوء أكوان متعددة عبر التضخم الكوني. يعمل أستاذاً ومديراً لمعهد الكونيات في جامعة تافتس.

3 .Alexander vilenkin, many worlds in one: the search for other universes, p.115.

حول مثل هذه القضـــايا. كما قال عالم فيزياء الجســـيمات إســـيدور رابي [1]: ميكانيكا الكم هي مجرد خوارزمية. استخدمها. إنها تعمل، لا تقلق. هذا الموقف المتمثل في اصمت وحسب يعمل بشكل جيد..."

وهذا الإقرار معروف لدى المجتمع العلمي حتى في بقية أصـــناف علوم الفيزياء، جانب الرياضـيات في النظرية لا يمكن الطعن به لأنه قد اثبت نفســه من خلال التجارب، ولكن الكلام في التفسـيرات كثير جدا ولم يحسـم الى يومنا هـذا، لكن ميكـانيكـا الكم تميزت بهـذا الغموض، حتى ان بور أشـــار الى ذلك بمقولته المشـهورة "**أولئك الذين لم يتأثروا في المرة الأولى التي صـادفوا فيها نظرية الكم ربما لم يفهموها.**"

ونســـتطيع ان نحصـــر مـا يســـتغـل بعض الملحـدين في فيزيـاء الكم، كالعشـوائية الكمومية ومبدأ عدم اليقين، للادعاء بأن بعض الأحداث تحدث بلا سبب، وهو تفسير غير دقيق لهذه المسائل العلمية.

أولاً: بعض الظواهر تحدث بدون سبب، فهل هذاصحيح؟!

تتمثل هذه الظواهر بظاهرتين:

الأولى هي نتائج تجربة شـــقي يونغ: التي أجراها الفيزيائي البريطاني توماس يونغ [2] في عام 1801م، تُعد هذه التجربة واحدة من أهم التجارب في تاريخ الفيزياء، وأثبتت هذه التجربة بان الجسيمات عندما تمر - مثل الإلكترونات [3] أو الفوتونات - عبر شـقين مفتوحين دون مراقبة، تتصـرف هذه الجسـيمات كموجات، مما ينتج نمط تداخل على الشـــاشـــة (أي خطوط متتالية من القمم والقيعان)، وهذا يشـير إلى أن الجسـيمات تمر من الشـقين في الوقت نفسـه، مكونةً نمط التداخل. لكن عندما نقوم بالقياس فان الجسيم يمر من خلال أحد الشـــقين ويتصـــرف كـل جســـيم، ويختفي نمط التـداخـل ويظهر نمط

1. إســـيـدور رابي (Isidor Rabi) : عـالم فيزيـاء أمريكي من أصـــل بولنـدي (1898 - 1988م)، حـاز على جـائزة نوبـل في الفيزيـاء عـام 1944م لاكتشافه الرنين المغناطيسي النووي، وساهمت أعماله في تطوير تقنيات مثل التصوير بالرنين المغناطيسي.
2. توماس يونغ (Thomas Young): عالم فيزياء وطبيب إنجليزي (1773-1829م)، اشتهر بتجربة الشق المزدوج التي أثبتت الطبيعة الموجية للضوء.
3. الالكترون electron: جسيم له شحنة كهربائية سالبة ويدور حول نواة الذرة. نفس المصدر السابق، ص 160.

جسيمي على الشاشة. هذا يعني أن الجسيمات تأخذ سلوكين، **الاشكال في ذلك هو لا يوجد أي سبب ظاهر لاختفاء واقع التداخل وبقاء الواقع الذي نقيسه عندما نقوم بعملية القياس او المشاهدة** [1].

الثانية ظاهرة التشابك الكمومي: وهي ظاهرة في ميكانيكا الكم تحدث عندما ترتبط جسيمات كمومية مثل الإلكترونات أو الفوتونات ببعضها البعض بطريقة تجعل حالاتها متداخلة ومتشابكة، بحيث تكون حالة كل جسيم مرتبطة بالآخر بشكل لا يمكن فصله، وهذا يعني أننا عندما نقوم بقياس حالة أحد الجسيمات، فإن حالة الجسيم الآخر تتحدد مباشرة، حتى وإن كانت المسافة بينهما شاسعة.

لنأخذ مثالاً لتوضيح الامر: تتميز الإلكترونات بحركة مغزلية تعرف بال"Spin"، حيث يقوم الإلكترون بالدوران في حالة تراكب عكس عقارب الساعة ومع عقارب الساعة في نفس الوقت، وعندما نقوم بقياسه فإنه يختار اتجاهاً واحداً للدوران، والغريب أن الإلكترون الثاني المترابط مع الأول يأخذ مباشرة الاتجاه الآخر مهما كانت المسافة بينهما بعيدة، أي لو افترضنا أن الإلكترون (أ) موجود على كوكب الأرض وهو مترابط مع الإلكترون (ب) الموجود في مجرة غير مجرتنا، سيكون الإلكترونان في حالة تراكب أي أنهما سيدوران مع عقارب الساعة وعكسها في نفس الوقت، الآن سنقوم برصد الإلكترون (أ) فسيأخذ حالة واحدة، ولنفترض أنه اختار أن يدور مع عقارب الساعة، عندها وبشكل مباشر وتلقائي سيختار الإلكترون (ب) الموجود في المجرة الاخرى أن يدور عكس عقارب الساعة؛ لأنه متشابك مع الإلكترون (أ). لكن كيف يحدث ذلك؟ كيف أثر الإلكترون (أ) على الإلكترون (ب) بهذه السرعة وهذه الكيفية دون أن يكون بينهما أية أسلاك أو أدوات اتصال؟ ما أثار حيرة العلماء الى يومنا هذا لان، مع العالم ان الفيزياء اثبتت اننا لا نستطيع ان نصل لسرعة أكثر من سرعة الضوء ضمن حدود هذا الكون.

1. انظر كتاب وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، 475.

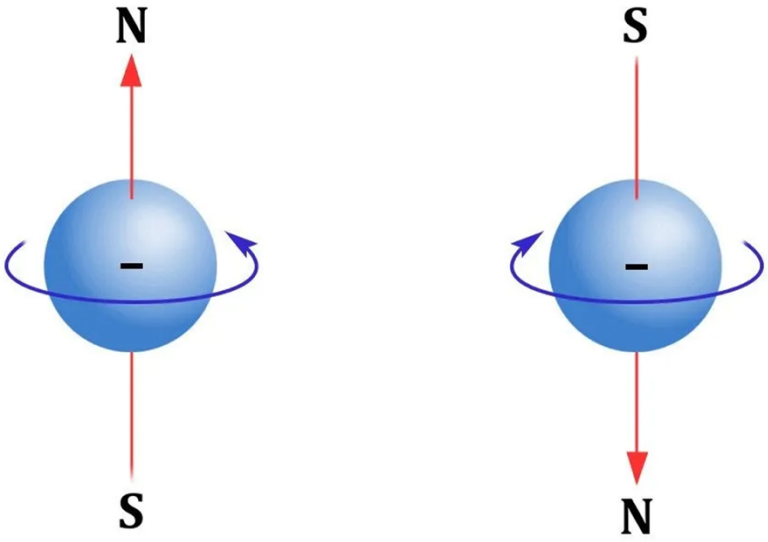

صورة توضيحية: حركة الالكترونات المغزلية "Spin ".

هل يوجد دليل قطعي او حتى إجماع علمي على ان هذه الظواهر تحدث بلا سبب عند العلماء؟

الى يومنا هذا لا يتوفر دليل قطعي على انكار مبدأ السببية، وحتى فكرة أن هناك إجماعاً علمياً على أن بعض الظواهر الكمومية تحدث "بدون سبب" هي مبالغة تفتقر للدقة، والواقع هو أن العديد من العلماء يرون أن معرفتنا الحالية بميكانيكا الكم ليست كافية لنفي وجود السبب بشكل قطعي، وأن هذا المجال العلمي لم يصل إلى مرحلة نضج يمكنها أن تقدم إجابات حاسمة حول مبدأ السببية في العالم الكمومي. حتى أن بورن [1] أكد أن الفيزياء لم تتخلَ عن مبدأ السببية، بل قامت بتعديل أو إعادة صياغة الفهم التقليدي لهذا المبدأ، حيث يقول:

"physics has given up causality is entirely unfounded. Modern physics, it is true, has given up or modified many traditional ideas; but it would cease to be a science if it had given up the search for the causes of phenomena". [2]

1. ماكس بورن (Max Born): عالم فيزياء ألماني (1882–1970م)، كان من أبرز مؤسسي "ميكانيكا الكم". قدم إسهامات جوهرية في تطوير التفسير الإحصائي لدالة الموجة، الذي يربط بين الاحتمالات ومواضع الجسيمات، وهو مفهوم أساسي في ميكانيكا الكم. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1954م تقديراً لدوره في الأسس النظرية لميكانيكا الكم.

2. الفلسفة الطبيعية للسبب والصدفة، ماكس بورن، محاضرات وينفليت المقدمة في كلية القديسة ماري المجدلية، أكسفورد، في الفصل الدراسي هيلاري، 1948، مطبعة كلارندون، أكسفورد. ص4.

ترجمة: **القول بأن الفيزياء قد تخلت عن السببية هو قول لا أساس له من الصحة**. صحيح أن الفيزياء الحديثة قد تخلت عن العديد من الأفكار التقليدية أو عدّلتها، **لكنها لن تكون علمًا إذا تخلت عن البحث عن أسباب الظواهر**.

وقبل ذلك، عرض بورن فلسفته حول هذه المواضيع قائلاً:

" Our philosophy is dualistic in this respect; nature is ruled by laws of cause and laws of chance in a certain mixture" (1)

ترجمة: **فلسفتنا ثنائية في هذا الصدد؛ الطبيعة محكومة بقوانين السببية وقوانين الصدفة بمزيج معين.**

ثم يتساءل بورن عن إمكانية قبول الصدفة وحدها كقانون أسمى للعالم المادي، فيقول:

"Can we be content with accepting chance, not Cause, as the supreme law of the physical world? To this last question, I answer that not causality, properly understood, is eliminated, but only a traditional interpretation of it, consisting in its identification with determinism. I have taken pains to show that these two concepts are not identical. Causality in my definition is the postulate that one physical situation depends on the other, and causal research means the discovery of such dependence. This is still true in quantum physics". (2)

ترجمة: هل يمكننا أن نكتفي بقبول الصدفة، وليس السبب، كقانون أسمى للعالم المادي؟ **جوابي على هذا السؤال الأخير هو أنه لم يتم استبعاد السببية، عندما تُفهم بشكل صحيح**، بل فقط التفسير التقليدي لها الذي يتمثل في ربطها بالحتمية. لقد بذلت جهداً لأبيّن أن هذين المفهومين ليسا متطابقين. السببية، حسب تعريفي، هي فرضية تعتمد فيها حالة فيزيائية معينة على أخرى، والبحث السببي يعني اكتشاف هذا الاعتماد. **وهذا لا يزال صحيحاً في فيزياء الكم.**

---

1. نفس المصدر السابق، ص3.

2. الفلسفة الطبيعية للسبب والصدفة، ماكس بورن، محاضرات وينفليت المقدمة في كلية القديسة ماري المجدلية، أكسفورد، في الفصل الدراسي هيلاري، 1948، مطبعة كلارندون، أكسفورد. ص101.

وفي ورقة علمية من تأليف البروفيسور جيوليو تشيريبلا [1]، جياكومو ماورو دي أريانو [2]، وباولو بيرينوتي [3]، والتي نُشرت على موقع arXiv في يوليو 2011 ضـمن فئة الفيزياء الكمية، قدم الباحثون منظوراً جديداً لاشـتقاق نظرية الكم اعتماداً على مبادئ معلوماتية بحتة، جعلوا "السببية" المسلمة الأولى، قائلين:

"We derive Quantum Theory from purely informational principles. Five elementary axioms — causality, perfect distinguishability, ideal compression, local distinguishability, and pure conditioning — define a broad class of theories of information-processing that can be regarded as standard. One postulate — purification — singles out quantum theory within this class." [4]

ترجمـة: **نشـتق نظريـة الكم من مبـادئ معلومـاتيـة بحتـة. خمس بديهيات أسـاسـية - السـببية، التمييز المثالي، الضـغط المثالي، التمييز المحلي، والتكييف النقي - تُعرّف مجموعة واسـعة من نظريات معالجة المعلومات التي يمكن اعتبارها معيارية.**

ويشـير الى ذلك هايزنبرغ [5] بين طيات كلامه، مع التأكيد على ان هايزنبرغ لم يكن يزعم أن الجسـيمات تتحرك دون سـبب، بل كان يرى أن فعل القياس نفسـه يتداخل مع النظام الكمومي ويؤثر على النتيجة. بمعنى آخر، ما نعتبره "عدم وجود سبب" قد يكون ببساطة نتيجة عجزنا عن معرفة جميع المتغيرات المؤثرة في النظام. فهو ركز على محدودية قدرتنا في الوصـول إلى السـبب،

---

1. البروفيسـور جيوليو تشـيريبلا (Professor Giulio Chiribella) بروفيسـور في الفيزياء النظرية، حاصل على دكتوراه من جامعة بافيا بإيطاليا، ويعمل أستاذاً وباحثاً في نظرية المعلومات الكمية وأسس ميكانيكا الكم، يقود مجموعة (Quantum Information Theory Group) "QUIT" ويقوم بتدريس ميكانيكا الكم وأسس نظرية الكم، تتركز أبحاثه على العلاقة بين المعلومات والواقع الفيزيائي.

2. جياكومو ماورو دي أريانو (Giacomo Mauro D'Ariano) أسـتاذ فيزياء نظرية في جامعة بافيا ومؤسـس مجموعة "QUIT" يعتبر من رواد البحث في أسـس الفيزياء الكمومية والمعلومات الكمية، وقد قدم مسـاهمات جوهرية في إعادة اشـتقاق نظرية الكم من منظور معلوماتي، واشـتقاق معادلات شـهيرة مثل معادلات فايل وديراك وماكسـويل، تركز أبحاثه على تطبيق النظريات العملياتية الاحتمالية في ميكانيكا الكم والحوسبة الكمومية.

3. باولو بيرينوتي (Paolo Perinotti) باحث وأسـتاذ في قسـم الفيزياء بجامعة بافيا ومتخصـص في المعلومات الكمية والحوسـبة الكمومية، تشـمل اهتماماته أسـس ميكانيكا الكم، ونظريات العمليات الاحتمالية، والأنظمة الآلية الكمومية، وقد سـاهم في تطوير نظريات مثل "الأمشـاط الكمومية" والقياسات الكمومية الكاملة من الناحية المعلوماتية، ويعد من الباحثين الفاعلين في تطوير أساليب جديدة للحوسبة الكمومية خارج القيود السببية التقليدية.

4.Chiribella, G., D'Ariano, G. M., & Perinotti, P. (2011). Informational Derivation of Quantum Theory. Perimeter Institute for Theoretical Physics and QUIT Group, Dipartimento di Fisica "A. Volta" and INFN Sezione di Pavia. Retrieved from arXiv:1011.6451

5. فيرنر هايزنبرغ (Werner Heisenberg): عالم فيزياء ألماني (1901–1976)، يُعدّ من أبرز مؤسـسـي ميكانيكا الكم، قدم مسـاهمات كبيرة في تطوير الفيزياء النظرية، أهمها صـياغة ميكانيكا المصـفوفات ومبدأ عدم اليقين، الذي ينص على اسـتحالة تحديد موقع وسـرعة الجسـيم بدقة مطلقة في آن واحد، حصـل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1932 لدوره في تطوير ميكانيكا الكم، وكان له تأثير كبير في تفسـير كوبنهاغن بالتعاون مع نيلز بور.

ولم ينكر وجوده، بل حتى مبدأ عدم اليقين لا ينفي السببية، وإنما ينفي الحتمية التقليدية.[1]. وهذا ما اكده د. ستيفن ماير [2] في كتابه التصميم الذكي أكد بان السببية احدى اهم القوانين التي تسير عالمنا، بقوله "...**والتي تشير باستمرار الى وجود مسبب بالاعتماد على النظام السببي أحد أهم القوانين التي يقوم عليها عالمنا**." [3]

وأيضا نظرية الأكوان المتعددة لـــ هيو إيفريت [4] تقدم نموذجاً سببياً مختلفاً عما يطرحه منكري السببية، حيث تتحقق جميع الاحتمالات الكمومية في أكوان موازية، وفق هذا النموذج لكل ظاهرة سبب في عالم معين، ولكننا لا نراه لأننا نعيش في تفرع محدد من الأكوان المتعددة.

فالنتيجة أن العلماء لم يحصل عندهم إجماع حول فكرة غياب السببية في الظواهر الكمومية، وأن ما نعتبره ظواهر "بلا سبب" قد يكون ناتجاً عن محدودية فهمنا أو عجزنا عن قياس جميع العوامل المؤثرة، فالسببية الكلاسيكية نعم قد تغيرت لكنها غير منفية بتمامها لا بالعالم الطبيعي ولا بعالم الكم، فالسببية ما زالت مبدأ أساسياً في الفيزياء، لكن فهمها تغير في ضوء الاكتشافات الحديثة، خاصة في ميكانيكا الكم.

انقل ما ذكره السيد احمد الحسن بهذا الخصوص:"**غاية ما يمكن قوله هنا هو إن السبب لهذه الأحداث الكمومية مجهول في حدود هذا الكون الذي نعيش فيه، وليس القول إنه لا يوجد سبب مطلقاً، فلا يمكن أن يحدث شيء بدون سبب، إن هذا لا يناقض الدليل العقلي فقط بل يناقض كل الظواهر المرصودة أو المشاهدات في هذا الكون على مستوى أكبر من الأحداث الكمومية، والعلم يعتمد المشاهدات ولها أثر كبير في إثبات كثير من النظريات العلمية، فلا يمكن إذن التغافل عن نتيجة المشاهدات**

---

1. انظر الفيزياء والفلسفة، فيرنر هايزنبرك، ترجمة أحمد مستجير، المكتبة الاكاديمية.

2. ستيفن سي. ماير (Stephen C. Meyer) هو فيلسوف علم أمريكي وُلد عام 1958م، حاصل على درجة الدكتوراه في فلسفة العلم من جامعة كامبريدج. يُعتبر من أبرز المدافعين عن نظرية التصميم الذكي، التي تفسر بعض ميزات الكون والكائنات الحية كنتاج لسبب ذكي وليس لعمليات عشوائية. يشغل منصب مدير مركز العلم والثقافة في معهد ديسكفري، وألّف العديد من الكتب المهمة مثل "التوقيع داخل الخلية: الحمض النووي ودليل التصميم الذكي" (2009م) و "شك داروين: النشوء المفاجئ للحياة وحجة التصميم الذكي" (2013م).

3. التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ترجمة محمد طه – عبد الله أبو لوز، ص 12.

4. هيو إيفريت (Hugh Everett III): فيزيائي أمريكي (1930–1982)، اشتهر باقتراحه تفسير العوالم المتعددة في ميكانيكا الكم، كبديل عن التفسير التقليدي القائم على انهيار دالة الموجة. بحسب طرحه، تتفرّع جميع الاحتمالات الكمومية إلى عوالم متوازية حقيقية. رغم تجاهل فكرته في البداية، أصبحت لاحقاً موضوعاً محورياً في فلسفة الفيزياء وتفسير ميكانيكا الكم.

في هذا الكون الذي نعيش فيه والتي تطبق على أن لكل حدث سـبب، اللهم إلا أن تكون المسـألة لا علاقة لها بالعلم عند بعضـهم وإنما هي عملية تسويق للإلحاد كيفما اتفق.

لا يمكن أن يقال: إن السبب غير موجود قطعاً لهذه الأحداث الكمومية، فهذا حكم معارض لحقيقة السـببية التي يحكم بها العقل أو على الأقل نحن نراها في كل شـيء حولنا، وبالتالي فهو حكم يحتاج لدليل إثبات قطعي وهذا الدليل مفقود طالما أنه لا يوجد يقين أن كل الوجود هو كوننا الذي نعيش فيه فقط، بل إن كثيراً من علماء الفيزياء النظرية والفلك اليوم يطرحون نظريات الأكوان المتعددة مع احتمالية تأثير بعضها ببعض.

نظرية الأكوان المتعددة التي طرحها هيو أفرت لحل إشـكال انهيار دالة الموجة واختفاء الواقع البديل أو بقية الاحتمالات عند المشـاهدة أو القياس، فبحسب تفسير كوبنهاغن تختفي بقية الاحتمالات التي يمثل كل منها واقعاً بديلاً عن الواقع الذي شـاهدناه أو قسـناه دون سـبب منطقي تختفي هكذا بدون أي تعليل، بينما في تفسير الأكوان المتعددة فإنها لا تختفي بل كلها أحداث واقعية وإنما كل حدث منها يخص كوناً ما ونحن عندما نتوجه بالقياس أو المشـاهدة نشـخص أحدها كواقع في كوننا، وهذا الواقع يحجبنا عن رؤية أو قياس الواقع البديل الذي يمكن أن يظهر آثاره عندما لا نتوجه إليه بالقياس أو المشـاهدة كما في حالة التداخل في تجربة الشـقين عندما لا نرصـد الشـقين، حيث يظهر أن الالكترون المفرد عبر من الشقين معاً في نفس اللحظة وربما اصطدم مع نفسه أيضاً.

الآن، في حل العوالم المتعددة نقول: إن الذي عبر من الشق الأول هو صورة واقعية للالكترون والذي عبر من الشق الثاني أيضاً صورة واقعية للالكترون، ولكن كل صـورة منهما موجودة في عالم مختلف ولأننا لا نتوجه لها بالقياس والمشاهدة فهي تظهر على الشاشة الخلفية كصورة متداخلة، أي عبارة عن جسـيمات شـبحية واقعية من عدة عوالم عبرت

الشـقين، وكلها عبارة عن صـورة نفس الكترونـنا الفرد ولكنها صـوره في تلك العوالم، أما عندما نتوجه للالكترون بالقياس ونرصـد الشـقين فنحن نرى الكتروناً واحداً فقط يعبر من شـق واحد وذلك لأن مشـاهدتنا له وتوجهنا له يحجبنا عن مشـاهدة وقياس الصـور الأخرى له في العوالم الأخرى، أي كأننا عندما توجهنا له بالمشـاهدة في هذا العالم أدرنا ظهرنا له في بقية العوالم ولهذا نحن نشـاهده أو نقيسـه في هذا العالم فقط."[1]

ثانياً: ميكانيكا الكم تلغي الحتمية، فهل هذا صحيح؟!

🔷 الحتمية (Determinism):

في الفلسـفة الحديثة، يُسـتخدم مصـطلح "الحتمية" للدلالة على فكرة مفادها أن كل ظاهرة طبيعية خاضـعة لمجموعة من الشـروط التي توجب وقوعها بشـكل ضـروري، مما يعني أن الطبيعة تسـير وفق نظام صـارم وثابت لا مجال فيه للصدفة أو العشوائية. [2]

اكتفي بما ذكره السيد احمد الحسن في كتاب وهم الالحاد في بيان القول الفصـل في هذا الموضـوع: "**بين حتمية نيوتن واحتمالية وريبة ميكانيك الكم:**

في فيزياء نيوتن أو الفيزياء الكلاسـيكية الأمور تحدد بدقة ولا توجد احتمالية أو ريبة أو لا يقين، ولذا يمكننا أن نحدد بدقة سـرعة ومواضـع الأجسـام وهذا جعل لابلاس يذهب بميكانيك نيوتن إلى أبعد حد ممكن، فقد وضع لابلاس قاعدته الحتمية والتي بحسبها فإننا لو عرفنا سرعة أو كمية حركة ومواضع كل جسـيمة في الكون في زمن معين نسـتطيع أن نحدد سـرعتها ومواضـعها في كل زمن في الماضـي والمسـتقبل، أي أننا نسـتطيع أن نعرف المسـتقبل وهذا يسـمى مبدأ الحتمية، وواضح أنه لم

---

1. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص 476 – 478.
2. انظر المعجم الفلسفي، ج 1، جميل صليبا، ص 388.

يبقِ مساحة للغيب أو الإله ليتدخل ويغير الأمور فهي حتمية وليس لأحد مدخلية فيها، ولم يبقِ حتى مساحة لإرادة الإنسان فالأمور تسير نحو نهايات حتمية ومحددة مسبقاً.

أما في ميكانيك الكم الذي يهيمن اليوم على الفيزياء فنحن لا نستطيع معرفة سرعة وموضع جسيم واحد بدقة فضلاً عن كل الجسيمات فالأمور أصبحت مختلفة تماماً، والجسيم يمكن أن يكون في أي موضع محتمل أن يكون فيه وسرعته يمكن أن تكون أي سرعة محتملة له، فلم تعد هناك حتمية كاملة في ميكانيك الكم أي لم تعد هناك أي إمكانية لمعرفة المستقبل بدقة؛ لأن هناك أكثر من احتمال، ما تبقى من الحتمية في ميكانيك الكم هو ما يوفره تطور دالة الموجة.

وهكذا يمكن أن نقول: إن ميكانيك الكم الذي يستخدمه أصحاب مقولة "كون من لا شيء" لإنكار وجود الإله أصبح أيضاً باباً لإثبات الإرادة الحرة للإنسان وأن الإنسان يمكن أن تكون له مدخلية في صنع مستقبله، فالإنسان ليس مجبوراً ولا مقهوراً على أن يسلك طريقاً ترسمه له حتمية كونية لا مفر منها، بل وأكثر فالإنسان يمكن أن يكون مؤثراً في الأحداث المحيطة به والتي يقوم برصدها بل ربما يكون للإنسان تأثيراً في الكون، فالكون كله منظومة كمية والإنسان يقوم برصدها.

بقي في ميكانيك الكم شيء من الحتمية يوفره تطور دالة الموجة، فالاحتمالات التي توفرها دالة الموجة تتطور بشكل حتمي أي أن الحتمية الكلاسيكية لم يعد لها وجود، ولكن جاء مكانها مزيج ربما يمكن أن نسميه نصف حتمية.

المؤكد أن الحتمية كما في فيزياء نيوتن لم يعد لها وجود بعد ميكانيك الكم وإن كان معظم الناس لا يعرفون في حياتهم اليومية غير فيزياء نيوتن وحتميتها، ولكن هل بعد ميكانيك الكم يمكن القول بأن ما يعرفه الناس هو الواقع؟!

إذن، لدينا أكثر من احتمال للمستقبل، ولا يمكننا أن نحدد واحداً منها بشكل حتمي، ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1].

ولكن هذه الاحتمالات يحكمها تطور حتمي لدالة الموجة، وبالمشاهدة نشخص أحدها كواقع نحصل عليه،

(لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين)[2]." [3]

1. القرآن الكريم – سورة الرعد – الآية: 39.

2. عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام)، قال: (لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين) (الكافي: ج1 ص160).

3. انظر كتاب وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص 459 – 460.

الفصل الثالث: أدلة إثبات وجود الله

الأصل في معرفة الله [1] طريق الوحي

(أفي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [2]

"كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَ يَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ" [3].

– الامام الحسين (ع)

إن معرفة الله سبحانه وتعالى هي أعظم المقاصد وأشرف الغايات التي يمكن للإنسان أن يتطلع أو يصل إليها، ولكن هذه المعرفة، مهما حاول الإنسان أن يبلغها بعقله المجرد أو تجربته المحدودة، ستظل ناقصة ما لم تتصل بالمصدر الأعلى للعلم المطلق: وهو الله نفسه. فهو تعالى الخالق لكل شيء، وبدونه لا يمكن أن نعرف شيئاً على حقيقته، لأن كل معرفة صحيحة تعتمد على إدراك أصل الوجود ومعناه. والقاعدة العقلية تقرر أنه لا يمكن معرفة الشيء إلا إذا كان العارف مساوياً له أو مهيمناً عليه، وهو ما يفتقر إليه الإنسان وعقله مهما بلغ من تعاظم أو قدرة، فإن إدراك حقيقة الله يظل متعذراً إلا بإذنه وتعريفه. ومن هنا فإن الطريق الأصدق لمعرفة الله هو أن يعرّفنا هو بنفسه، وهذا هو طريق الوحي حين يعرف الخالق عباده بذاته وصفاته وحقائق وجوده بكلامه أو بإلهام منه، على نحو يقطع ظنونهم، ويرفع عنهم حجاب الجهل. يقول السيد أحمد الحسن: "**الحق، إنّ طريق الوحي هو الطريق الأصل والأشرف، واوله التصديق بوجود الحقيقة (أو الله سبحانه)، ولكنه يمتد إلى ما بعد التصديق وهو المعرفة وهي علة الخلق** [4]**، ويكون ابتداءً بالاستعداد للسماع من الحقيقية، ومن ثم بالتجرد والإخلاص للحقيقة**

---

1. يقول السيد احمد الحسن في كتاب عقائد الإسلام: "**هناك طريقان للتصديق بوجود الحقيقية الغائبة الشاهدة الموجدة لهذا العالم**". وهما طريق الوحي وطريق العقل ومن يريد ان يطلع على القول الفصل في هذه النقطة فليراجع الكتاب – عقائد الإسلام يليه: يسألونك عن الروح – احمد الحسن – الطبعة لأولى – ص9.
2. إبراهيم، 10.
3. إقبال الأعمال (ط. ق)، السيد ابن طاووس، ص 351.
4. "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون" (الذاريات: 56) أي ليعرفون.

الموجدة لهذا الكون، حتى تسمع روح الإنسان من الحقيقة الحكيمة، ويثبت له الوجود والحكمة، ومن ثم تبدأ رحلته إلى المعرفة،..." [1]

والعقل السليم يقرّ أن أي حكم أو تصور إذا لم يكن مستنداً إلى المصدر الأصدق والأوثق، فإنه لا يملك صفة القطع، ويبقى في دائرة الظن. وما من مصدر أصدق من الحقيقة المطلقة او الله سبحانه، "**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**" [2] "**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً**" [3]. فكما أن معرفة طبيعة آلة معقدة لا يمكن أن تكون يقينية إلا إذا أخذناها من صانعها، فإن معرفة الله لا يمكن أن تقوم على أساس يقيني إلا إذا أتت من الله. وهذا هو معنى الوحي في جوهره: أن الخالق يخبر مخلوقه عن حقيقته، ويعرّفه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويبين له غايته من خلقه ووجوده في هذا العالم.

وهذا ما يدركه الانسان بالضرورة، فإذا تأملنا في طبيعة المعرفة البشرية، فكل علم عند الإنسان يبدأ بإخبار من مصدر أو مشاهدة مباشرة. والمشاهدة المباشرة للخالق مستحيلة، كما قال تعالى: "**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**" [4]، ومن جهة أخرى ان الخالق هو مفارق للمادة، ونحن محكومين بهذه القوانين المادية، ولا يمكننا ان نكسرها، فبقي الإخبار منه هو الطريق الوحيد الذي يضمن الوصول إلى الحقيقة. أما الاجتهاد العقلي [5]، فإنه وإن دلّ على وجود مبدع حكيم، إلا أنه لا يمكن أن يحدد لنا ذاته وكيفية تعلق صفاته بخلقه على وجه اليقين، لأن العقل يعمل ضمن إطار الممكنات التي يراها ويقيس عليها، والله سبحانه فوق ذلك كله.

وقد جاء في القرآن الكريم تقرير هذه الحقيقة في قوله تعالى: "**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**" [6]، أي أن إدراك حقيقته لا

---

1. عقائد الإسلام يليه: يسألونك عن الروح - أحمد الحسن - الطبعة لأولى - ص9 - 10.
2. النساء، 87.
3. النساء، 122.
4. الانعام، 103.
5. سيتضح لنا، عند تناولنا للطريق العقلي، أن العقل في حقيقته ليس إلا ميزاناً، لا يملك أوزاناً معيارية ذاتية، بل لا بد له من أوزان قياسية يقيس بها ما يرد إليه من مدخلات. ومن الخطأ أن يُغريكم ما يطرحه بعض الفلاسفة أو من يسير على نهجهم حين يزعمون أن العقل يحتوي في ذاته على قضايا أولية تكفيه لمعرفة الحقائق المطلقة، أو أن بإمكانه مستقلاً عن أي مصدر خارجي أن يتعرف على الله دون أن يعرّفه الله بنفسه. فمثل هذا القول ــ إن صدر ــ إنما يصدر عن أنانية وتعالٍ، إذ كيف يجرؤ عقل مخلوق محدود على ادعاء إدراك الحقيقة المطلقة دون أن يكون الخالق نفسه هو المعرِّف والهادي له؟!! إن الفلاسفة الذين يستغنون بعقولهم المجردة عن الوحي إنما يغفلون عن أن أداة القياس لا تُغني عن المعايير، وأن النور الذاتي الذي يزعمونه للعقل ما هو إلا سراب فكري، سرعان ما يتبدد أمام ضرورة الاستضاءة بنور الحق سبحانه.
6. طه، 110.

يمكن أن يتم إلا ببيانه هو، فهو العليم بذاته وبما خلق، وهو وحده القادر على أن يمدّنا بالمعرفة الصحيحة عنه. ولا يمكن لأي عاقل أن يقول إن الصانع ـــــ على المستوى المادي ـــــ ليس هو الأعلم بما صنعه وهو المعرّف به للناس، فكيف إذا كان الأمر متعلقاً بالعالم المطلق والخالق سبحانه؟!! لا شك أن الله هو أصدق وأوثق مصدر يمكن أن تأتي منه المعرفة لخلقه، فهو الذي أحاط بكل شيء علماً، ولا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. ومن هنا كان لزاماً على من أراد أن يعرف ربه أن يلجأ إلى بيانه هو، لأنه المصدر الوحيد الذي يجمع بين الصدق المطلق والعلم المطلق.

ولذلك، فإن الوحي [1] ليس مجرد إضافة معرفية إلى ما يدركه الإنسان من تلقاء نفسه، بل هو المصدر المؤسس الذي يمنح كل معرفة قيمتها [2]، ويجعلها خالصة من الشوائب. ولو تخيلنا إنساناً بلا وحي، فإننا سنراه يتخبط بين التصورات والأساطير والموروثات البشرية التي كثيراً ما تتناقض فيما بينها، ان استطاع ان يصل الى هذه المرحلة من دون التدخل الإلهي. واقتبس هنا كلمة لسبينوزا "**ومهما يكن من شيء، فإننا يجب أن نستخلص هذه الأسباب والوسائل من الكتاب المقدس وحده، فكيف يمكننا الحديث عما يتعدى حدود ذهننا دون الرجوع إلى ما نقله الأنبياء لنا شفاهاً أو كتابة؟**" [3] ويبين سبينوزا هنا مدى موثوقية الوحي وقدرته على البت في الاحكام القطعية على جميع المستويات لأنه متصل بالحقيقة المطلقة.

وإذا نظرنا في صفحات التاريخ الإنساني، وجدنا أن الإحساس بوجود خالق أعلى، والبحث عن وسيلة للتواصل معه وتلقي هدايته، لم يكن مقصوراً على أمة دون أمة، ولا على حضارة دون أخرى، بل هو شعور إنساني عام ارتبط بفطرة البشر منذ أقدم العصور. هذا الشعور، وإن اختلفت صوره وممارساته، إلا أنه يعكس حاجة الإنسان الدائمة إلى مرجع أعلى يفسر له سر وجوده ويهديه سواء السبيل. وقد حفظت لنا الآثار والنقوش والمخطوطات شواهد كثيرة على

---

1. يشير سبينوزا الى ان الوحي هو عبارة عن معرفة يقينية مصدرها الله، بقوله: "**النبوة أو الوحي هي المعرفة اليقينية التي يُوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما**" رسالة في اللاهوت والسياسة، باروخ سبينوزا، ترجمة حسن حنفي ومراجعة فؤاد زكريا، ص129.

2. وسيتضح لاحقاً أن الحضارة الإنسانية برمتها ليست إلا ثمرة للوحي الإلهي، الذي تجسّد في وجود خلفاءه بين الناس، لا بهدايتهم فحسب، بل بإنقاذهم من ظلمات الجهل والحياة الحيوانية إلى نور العلم والمعرفة.

3. رسالة في اللاهوت والسياسة، باروخ سبينوزا، ترجمة حسن حنفي ومراجعة فؤاد زكريا، ص131.

أن الشـعوب القديمة كانت ترى أن معرفتها بالحقائق العليا لا تكتمل إلا بتلقي "كلمة" أو "رسالة" من السماء.

ومن هنا ننتقل الى موضوع فطرة الإنسـان بكونها المسـتقبل لهذا الوحي. فإن الله ـــ بكونه الحقيقة المطلقة والوجود الأسمى ـــ هو أظهر من أي شيء أخر، ونوره يحيط بكل شـــيء [1]، ورغم أن وجود الله نوراً لا يمكن إغفاله، إلا أن الإنســـان قد يغفل عنه بســـبب انغماســـه في هذا الوجود الدنيوي، فمن المفارقات أن الإنسـان قد يشـك أو ينكر وجود الله رغم أن حضـوره ممتد ومؤثر في كل تفاصـيل حياته ووجوده. هذه المفارقة تعود في جانب منها إلى طبيعة الإنســـان وكيفية تعامله مع ما هو مألوف ومتأصـــل في وجوده، فقد يكون من السـهل على الإنسـان إهمال أو عدم الانتباه إلى ما هو دائم ومسـتمر حوله، وهذا قد ينطبق على وجود الله كما ينطبق على الهواء الذي نتنفسـه، فنحن نأخذ الهواء كأمر مســـلم به ولا نفكر في وجوده ولا نلاحظ أهميته إلا عندما نواجه نقصـاً فيه. تماماً كما أن السـمكة لا تدرك أنها محاطة بالماء الذي يمثل أسـاس حياتها، فكذلك الانسـان في اغلب الأحيان يكون غافلاً عن الوجود الإلهي الذي يمثل أساس حياته وبقائه.

والامر الاخر الذي يعمي الانسـان عن رؤية الحقيقة والنور المطلق، هو تلوث فطرة الانســـان، وانغماســـه بالمادة، ويُعد تلوث الفطرة الناتج عن الانغماس المُفرط في الماديات والشهوات، حجاباً كثيفاً يُعيق الإنسان عن إدراك ما يصلها من الحقيقة المطلقة والنور الإلهي، فالفطرة الســـليمة التي فطر الله الناس عليها هي بمثابة مرآة صـــافية تعكس الحق والخير والجمال، ولكن عندما ينغمس الإنســـان في ملذات الدنيا وشـــهواتها، ويتعلّق بالمادة بشـــكل مُفرط، تتلوث هذه المرآة وتُغطّيها الأوهام والشـــهوات، فلا يرى إلا ما هو مادي وزائل، ويغفل عن الحقائق الروحية والمعنوية الخالدة. هذا الانغماس يُضـــيّق أفق الإنسـان ويحصـره في نطاق المحسـوس والملموس، فيفقد القدرة على التأمل والتفكر في الغايات الأسـمى لوجوده، وينقطع اتصـاله بالنور المطلق الذي يُنير

1. يطرح الفيلســـوف الفرنســـي رينه ديكارت فكرة قريبة نوعا ما عما نريد ان نبينه بان الله قد زرع فينا طريق معرفته، بقوله: "...ولكنك إذا استعرضت أفكارك صادفت بينها فكرة ممتازة هي فكرة الكائن اللانهائي، أعني في ذهنك صورة عن كائن لا نهاية له ولا حدود، فمن أين جاءتك هذه الصورة؟ يستحيل أن تكون قد نبعت من نفسك لأنها أوسع منك (...) وإذن فلا يمكن أن ينشأ كائن لا نهائي مطلق من كائن نهائي محدود". الضرورة والحرية قراءة في فلسفة سبينوزا، الحاج دواق، منشورات ضفاف، الطبعة الأولى، ص77.

له دروب الحياة ويُرشده إلى الحق. وكما قال سبحانه وتعالى: "**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**" [1]

أكد الله سبحانه وتعالى وخلفاءه محمد وال محمد (ﷺ) على هذا الامر - معرفة الله من خلال الفطرة - واعطوه أولية، بينوا انها وسيلة مباشرة [2] وموجودة في داخلنا جميعا وهي تعرفنا بالله وهي أي الفطرة أشرف الأدلة والطرق الموصلة اليه سبحانه لان الفطرة السليمة تمثل المستقبل للوحي الإلهي، فكلما كانت موجهة وغير محجوبة كان استلام إشارات الوحي اقوى وانقى واوضح، ويتجلى هذا المفهوم في قوله تعالى: "**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**" [3]. وفسر أهل البيت (ع) هذه الآية على أنها تأكيد على الفطرة التي خُلق عليها الإنسان، فقد قال الإمام الباقر (ع) "عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام من قول الله: "**حنفاء لله غير مشركين به " ما الحنيفية؟ قال: هي الفطرة التي فطر الناس عليها، فطر الله الخلق على معرفته**" [4] هذا يعني أن الله زرع في كل إنسان معرفة فطرية بوجوده سبحانه وبأنه الخالق لكل شيء، ويؤكد الامام (ع) برواية أخرى على هذا المعنى، عن زرارة قال: "سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: "**فطرة الله التي فطر الناس عليها" قال: فطرهم على معرفته أنه ربهم، ولولا ذلك لم يعلموا - إذا سئلوا - من ربهم ولا من رازقهم**" [5]، وقال رسول الله (ﷺ): "**كل مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خالقه**" [6]، وعن وصي الرسول امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليهما أفضل الصلاة والسلام انه قال "**يا من دل على ذاته بذاته**" [7]، فهذه النصوص تشير إلى أن الإنسان بفطرته يعرف من هو ربه ومن هو رازقه، وحتى لو نسي أو أغفل هذه الحقيقة، فإنها موجودة في عمق فطرته، لأن الله لا يقطع صلته

---

1. المطففين: 14.
2. لا اقصد المباشرة العينية فهذا لا يجوز على الله سبحانه وتعالى، بل المباشرة هنا بمعنى توسط شيء بينك وبين الغيب وصاحب الغيب ليعرفك نفسه.
3. الروم: 30.
4. المحاسن، ج 1، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، ص 301. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 3، ص 281.
5. نفس المصدر السابق.
6. الكافي، ج 2، الشيخ الكليني، ص 13.
7. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 84، ص 341.

بخلقه مهما ابتعدوا عنه لأنه الرحيم المطلق، فالإنسان بمجرد رجوعه الى نفسه وفطرته سيجد الله يخاطبه، ويعرفه بنفسه، مما لا يجعل هناك شك او عدم وضوح بكلماته سبحانه. فذلك هو الطريق الاشرف والاعظم لمعرفته سبحانه وتعالى.

وفي مثال يطرحه اهل البيت (ع) في التعلق بالله عند انقطاع الامل من غيره، "**قال رجل للصادق (ع): يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر علي المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ فقال نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشئ هو الله القادر على الانجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث**" [1]. الإمام (ع) يستخدم تجربة إنسانية طبيعية وتحدث عند الجميع، وهي لحظة العجز والخطر، كدليل عقلي وفطري على وجود الله، فالفطرة البشرية تميل إلى الاعتراف بوجود قوة قادرة على إنقاذ الإنسان عندما تفشل كل الوسائل المادية، وهذا الإحساس الفطري هو أحد الأدلة على وجود الله القادر. وهذا الأمر لا يقتصر على كتب المسلمين، بل الكثير من الغربيين يؤمنون بذلك وغالبا ما يستخدمون المقولة او العبارة الشهيرة عندهم "**لا يوجد ملاحدة في الخنادق**" [2] هذه الكلمة لم تنشا من فراغ بل هي تعبر عن أن الإنسان في لحظات الخطر الشديد أو الأزمات الحياتية الكبرى التي يمر بها الانسان، يميل بطبيعته إلى الإيمان بوجود قوة عليا يلجأ إليها طلباً للعون والنجاة. فالخنادق هنا ترمز إلى ميدان الحرب حيث يواجه الجنود الموت بشكل مباشر، مما يجعلهم يدركون ضعفهم وعجزهم أمام قوى أكبر منهم، فتُظهر العبارة أن التجارب القاسية تدفع الإنسان إلى إعادة التفكير في معنى الحياة والمصير، مما يجعل الإلحاد أقل صلابة أو تراجعاً عند مواجهة ظروف تتجاوز الوجود المادي.

---

1. التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 231.

2. "There are no atheists in foxholes" بمعنى أن الملحدين يؤمنون بوجود الله في أعماق قلوبهم، وعند مواجهتهم لمواقف شديدة أو لحظات خوف كبيرة، مثل المشاركة في حرب، يظهر هذا الإيمان ويغلب على إلحادهم الظاهر.

تحكي سيمون فايل [1] المتصوفة الفرنسية تجربتها الأولى مع الله: "في لحظة كنت أعاني فيها ألم شديد في جسدي وعندما كنت اجبر نفسي على استشعار الحب ولكن بغير رغبة مني في إعطاء هذا الشعور أية تسمية، ودون استعداد مسبق مني (لأني لم أقرأ قط لكتّاب متصوفين) شعرت بحضور أكثر ذاتيه، وأكثر يقينا، وأكثر حقيقية من حضور أي كائن بشري، على الرغم من ان الامر كان عصيّا على الحواس والخيال" [2]. النص يعكس لحظة من الألم الجسدي الذي دفع الكاتبة إلى استشعار حضور داخلي أعمق من أي شيء مادي، يمكن تشبيه هذه اللحظة بلحظات اليأس التي تناولها الإمام الصادق (ع) في حديثه، عندما يكون الإنسان عاجزاً أمام الخطر أو الألم، مما يدفعه للبحث عن قوة عليا تنقذه أو تمنحه السكينة. قال الله تعالى: "**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ**" [3]

ولكن للأسف الشديد؛ نجد أن العديد من الناس يتجاهلون الوحي ولا يعيرون له الاهتمام الكافي، ويعتبرونه غير كاف في النقاشات الوجودية!! قد يكون هذا التجاهل ناتجاً عن مكابرة أو تنكر لوجود نزعة داخلية لديهم، أو نتيجة لمشكلة في قلوبهم تجعلهم غير قادرين على إدراك هذا الدليل أو الاستماع لرسالة الوحي، لذلك من رحمة الله تعالى أنه قدم أدلة متنوعة لإثبات وجوده، ليمكّن الناس من تجاوز الشكوك والتحديات التي تعيقهم عن إدراك الحقيقة، ولتكون له الحجة البالغة عليهم.

الطريق العقلي

هو أحد السبل التي يسلكها الإنسان لتحري إثبات وجود الله أو الحقيقة الكبرى، وصفات هذه الحقيقة. ومع ذلك يبقى الطريق العقلي محدوداً في قدرته على تحقيق المعرفة الحقيقية التي تمثل الغاية من الخلق.

---

1. سيمون فايل (Simone Weil): فيلسوفة وكاتبة وناشطة فرنسية (1909–1943)، تميّزت بفكرها الروحي العميق ومواقفها الأخلاقية الراديكالية. اهتمت بقضايا العدالة، والاغتراب الإنساني، والمعاناة، وتأثرت بالفلسفة الإغريقية والمسيحية الصوفية دون أن تعتنق المسيحية رسمياً. من أبرز أعمالها الثقل والنعمة، وتُعد من أبرز المفكرين الوجوديين ذوي النزعة الروحية في القرن العشرين. وهي أخت عالِم الرياضيات أندريه فايل.

2 .Simone Weil, Waiting For God, tr. Emma Craufurd (New York: Harper, 1973), p24.

3. الإسراء: 67.

وقبل الدخول في تفاصيل الدليل العقلي، لا بد من توضيح امر أساسي في كل حوار يعتمد على العقل، فقبل اقحام العقل في أي حوار لابد من توضيح دور ومكانة العقل، فالعقل ليس مصدراً للأوزان [1]، بل هو ميزان. اي أن العقل يقوم بمقارنة وتحليل المعلومات التي تصل إليه، اذن فهو يحتاج إلى أوزان قياسية ليحدد مدى قيمة وصحة هذه المعلومات المعروضة عليه. وبما أننا نسعى لإثبات وجود الله، وهو صاحب الدين، فإن الأوزان القياسية هنا لا تكون من النصوص الشرعية، لأننا في مقام إثبات وجود صاحب الدين. ولذلك، نعتمد على البديهيات العقلية (Axiomes) [2] الثابتة التي يتفق عليها جميع العقلاء، مثل استحالة اجتماع النقيضين، استحالة التسلسل، واستحالة أن ينتج العدم شيئاً. واذكر تعريف السيد أحمد الحسن للبديهيات "**فالبديهي عموماً هو الأمر الذي يستوعبه العقل الإنساني فيقبل مقدماته ونتائجه دون حاجة الاستدلال عليه، ولا دخل للعقل بإيجاد البديهي بحد ذاته. البديهي أصبح بديهياً لأنه بسيط إلى درجة ظهوره للعقل دون حاجة للاستلال عليه**" [3] وفي هذا التعريف للبديهيات هناك مسالة مهمة جداً وخصوصاً في مبحث الحاجة الى الخلافة الإلهية في الأرض وهي ان العقل لا ينتج شيء من ذاته، حتى على مستوى البديهيات او المقولات العقلية الأولى فهي ليست نتاج عقلي بل هي اوزان قياسية قد اكتشفها العقل بسهولة لوضوحها وبساطتها ولم يحتاج الى ادركها الى نظر او بحث، ولبيان هذا الامر يقول السيد أحمد الحسن "**العقل لم يوجد النظريات الرياضية، والعلوم الرياضية والفيزيائية العقل يكتشفها من استقراء الظواهر والأحداث والقياسات والتناظر والتقابل والتساوي والتباين وما شابه من أمور. العقل لا يوجد شيئاً من العدم. العلوم هي عبارة عن اكتشافات لحقائق موجودة فعلاً ووضعها بصيغ معادلات وما شابه وليس إبداع أشياء من العدم. في الحقيقة لا يوجد ابتداع حقيقي يقوم به الإنسان بمعنى الابتداع من**

---

1. من يريد الاطلاع أكثر هذه محاضرة للشيخ د. علاء السالم يثبت بها إمكانيات وقدرات العقل وهل انه ميزان ام اوزان ام انها مصدرا لتلك الاوزن؟! https://www.youtube.com/watch?v=Y4qVZhIpoLY

2. البديهي (Axiomes) هو كل حكم أو قضية يقبل بها العقل مباشرة دون الحاجة إلى برهان أو دليل؛ لأنها واضحة بذاتها ولا يمكن نفيها أو التشكيك فيها. وتعتبر البديهيات أسساً لبناء المعرفة. "فالبديهي ما لا يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بوجود نفسه وان الكل أعظم من الجزء". التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص 67. وفي علم الكلام الفخر الرازي يذكر "البديهيّات كالعلم بأنّ النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان." (فخر الدين الرازي، أفكار المتقدمين والمتأخرين، 27، 5.) الموسوعة الجامعة لمصطلحات الفكر العربي والإسلامي (تحليل ونقد)، ج 1، جيرار جهامي، سميح دغيم، ص 511.

3. السيد أحمد الحسن، نقله الشيخ د. علاء السالم، في محاضرة له بعنوان العقل ميزان وليس وزناً قياسياً.

العدم، إنما نحن نكتشــف" [1] وعلى هذا فأننا نعتقد ان البديهيات هي من لوازم هذا المحيط او العالم الذي نعيش فيه وهي من المدركات التي يدركها العقل، يقول السـيد أحمد الحسـن: "**لابد من بيان حدود العقل الذي يمتلكه كل الناس وبيان مجال عمله ليكون منتجاً، فلا يمكن أننا ننتظر من معمل حلويات مثلاً أن ينتج ملابس عندما نضــع في مكائنه بدلاً عن الســكر القطن أو الصــوف، فكوننا وضــعناها فيه لا يجعله معمل ملابس. وكذا بالنســبة للعقل الذي يملكه جميع الناس فعندما نحتكم إليه في أمور خارجة عن حدود قدرته فلن يكون منتجاً، وسيكون الإنتاج المحصل وهماً وليس حقيقياً يعبر عن الواقع، سيكون إنتاجاً مشوهاً ومسخاً، وقبل كل شــيء يجب أن نعرف أن العقل ميزان وليس أوزان ولهذا فنحن دائماً نحتاج مع العقل - الميزان - الثقل القياســي لنقايس به ما بين أيدينا**" [2]

ويقول أيضا: "**كون العقل الموجود عند كل الناس آلة يمكنها البحث وتمييز الجيد من الرديء في بعض الأحيان اســتناداً الى ثقل قياســي لا يجعل للعقل القدرة المطلقة على تمييز كل ما هو جيد حســن وكل ما هو رديء قبيح. فلابد من الانتباه الى النقص الذي يعتري العقل عند فقد الوزن القياســي على الأقل فهو ليس كاملاً بذاته ليوضــع ميزاناً للكمال**"[3]

فالعقل او قل الانسـان يولد كصـفحة بيضـاء لديه القابلية على الادراك لا غير، وبعد ذلك يدرك او يعرف البديهيات والنظريات. وهذا العقل او القوة الإدراكية المودعة عند الانســان هي قادرة على تعلم كل ما هو ممكن، لأن الانســان مخلوق على صــورة الله أي انه قادر ان يكون تجلي لهذا الخالق في خلقه. وقدرته الادراكية ليست محدودة طولا او عرضا بالنسبة للعلوم، بل من الممكن ان يتعلم طولياً أي ان يعرف من صــنف أحد العلوم قدر ما يســتطيع ويتعلم عرضيا أي غيره من العلوم قدر ما يستطيع، أي ان الباب مفتوح امامه.

---

1. السيد أحمد الحسن، نقله الشيخ د. علاء السالم، في محاضرة له بعنوان العقل ميزان وليس وزناً قياسياً.
2. حيدر طاهر عن السيد أحمد الحسن. قانون الأخلاق الإلهي، ج1، ص 40 – 41.
3. نفس المصدر السابق، ص 44.

الدليل الأول: العدم غير منتج

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(برهان [1] الحدوث او برهان العلية او البرهان الكوزمولوجي) [2]

"لا يُمكن للكون أن يكون أزلياً. نحن نعلم أنَّه لابُدَّ من وُجُود بداية حتمية في وقتٍ مُحدِّد مضى" [3] -بول ديفيس

إن التفكير في أصل الوجود كما أشرنا سابقاً هو ليس ترفاً فلسفياً أو هو محل للجدال فقط، بل هو من أعمق وأول الأسئلة التي تطرق باب العقل البشري حين يتأمل نفسه وما حوله من كائنات وأحداث ونواميس كونية دقيقة. والسؤال المحوري الذي يشق طريقه عبر التاريخ والعقل والمنطق هو: **هل يمكن أن يظهر شيءٌ ما من لا شيء؟!** هل للعدم - بما هو نفي محض للوجود - أن ينتج وجوداً؟ هذه التساؤلات ليست جديدة، بل رافقت الإنسان منذ فجر وعيه بوجوده، وكان لا بد من التمييز الجذري بين ما له طاقة وقوة وقدرة على الإحداث، وبين ما هو خلوّ صرف من كل تلك الصفات. والعدم - بطبيعته التعريفية والواقعية - هو نفيٌ للوجود، لا يمتلك أي خصيصة تؤهله للإيجاد أو الفعل أو التأثير. ومن هنا تنشأ ضرورة عقلية عميقة لفهم أن القول بإمكان انبثاق شيء من العدم لا يعبر عن استنتاج عقلاني، بل عن وهم مفارق لأبسط بداهات العقل.

وعليه، فإن العقل يحكم بأن ظهور أي وجود - لم يكن ثم كان - يستلزم بالضرورة فاعلاً موجوداً أوجده، وإلا لكان كل ما حولنا من الكون والإنسان والحياة مجرد وليد عدم مطلق، وهو أمر لا يقبله منطق ولا عقل. ومن هنا يصبح هذا المبدأ قاعدة أساسية: العدم غير منتج، والوجود لا يخرج إلا من وجود سابق، وبذلك يكون البحث عن الموجد الحقيقي ضرورة عقلية لا مهرب منها.

---

1. " (البرهان) هو القياس المؤلف من اليقينيات سواء كانت ابتداء وهي الضروريات أو بواسطة وهي النظريات والحدّ الأوسط فيه لا بد أن يكون علة لنسبة الأكبر إلى الأصغر". انظر التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص 19.

2. تعددت تسميات برهان او دليل "العدم غير منتج" في الفكر الإسلامي والغربي، حيث عُرف بـ "برهان الحدوث" أو "برهان العلية" عند المتكلمين المسلمين مثل الغزالي في "تهافت الفلاسفة" والرازي في "المطالب العالية"، بينما أطلق عليه الفلاسفة الغربيون "البرهان الكوزمولوجي"، عند توما الأكويني ولايبنتز وكريغ.

3 .William Lane Craig, Reasonable Faith: Christian Faith and Apologetics, Crossway Books 2008, 3rd edition, Page 144

مصطلحات البرهان:

الحَادِث او الحَدث:

لغة: ما يجدّ ويحْدُث - ضدّ القديم. (ج) حَوَادِثُ. [1]

اصـــطلاحاً: قال الجرجاني الحدث: "ما يكون مســـبوقا بمادّة ومدّة وقيل ما كان لوجوده ابتداء." [2]، وقال الكفوي: "الحادث: ما كان وجوده طارئاً على عدمِه، أو عدمُه طارئاً على وجوده فهو حادث" [3]

الحُدُوث:

لغة: حدث الشـــيء حدوثاً تجدد وجوده فهو حادث وحديث، ومنه يقال حدث به عيب إذا تجدد وكان معدوماً. [4]، وقال ابن فارس: "الحاء والدال والثاء أصل واحد؛ وهو كون الشيء لم يكن، يقال حدث أمر بعد أن لم يكن" [5]

اصطلاحاً: يقول الجرجاني الحدوث: عبارة عن وجود الشـيء بعد عدمه [6]. وعند المتكلمين بصـورة عامة هو كون الشـيء مسـبوقا بالعدم، او افتقاره في وجوده الى غيره. ويقسـم الجرجاني الحدوث الى قسـمين "الحدوث الذاتي: هو كون الشـــيء مفتقرا في وجوده إلى الغير. والحدوث الزماني: هو كون الشـــيء مسبوقا بالعدم سبقا زمانيا والاوّل أعم مطلقا من الثاني." [7]

القديم او الازلي:

لغة: القديم العريق الأَزَلِيُّ ما لا أوّل له [8] (منسُـوبٌ إِلَى الأَزَل) اللَّهُ أَزَلِيٌّ فِي مَلَكُوتِهِ: الخَالِدُ الدَّائِمُ الوُجُودِ لاَ بَدْءَ لَهُ. والأَزَل، بالتحريك: القِدَم. قال أبو منصـور:

---

1. انظر المعجم الوسيط، ص 160.
2. انظر التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص 89.
3. انظر الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لابي البقاء الكفوي، ص 359.
4. انظر المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، الفيومي، ج 1، ص194.
5. انظر معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، ج2، ص 36.
6. انظر التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص 37.
7. انظر نفس المصدر السابق.
8. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص16.

ومنه قولهم هذا شـــيء أزَليٌّ أي قديم، وذكر بعض أهل العلم أن أصـــل هذه الكلمة قولهم للقديم لم يَزَل. [1]

اصـــطلاحـاً: قـد اتفق [2] القوم على تعريف القـديم او الازلي بـانـه غير المسبوق بالعدم.

العدم:

لغة: يُشير العدم إلى فقدان الشيء أو انعدامه أو غيابه. وهو مصدر الفعل "عَـدِمَ" بمعنى فقد وانعدم. [3] وذكر أبي منصـــور الأزهري "قال الليث: العَدَم: فِقدان الشـــيء وذهابه. يقال: عَدِمته أعدَمه عدماً. والعُدْم لغة فيه. قال: ورأيناهم إذا ثَقَّلوا قالوا: العَدَم وإذا خففوا قالوا: العُدْم، ورجلٌ عَدِيم: لا مال له. وأعْدَمَ الرجل: صار ذا عَدَم" [4]

اصطلاحاً: العدم، في أبسط تعريفاته، **هو ضد الوجود** [5]. يُمكن تصنيفه إلى قسمين رئيسيين: **العدم المطلق والعدم الإضافي** [6] "أو المُقيد". العدم المطلق يُشير إلى "اللا شيء" بمعنى الكلمة، أي انعدام أي شيء على الإطلاق، ولا يُضـــاف أو يُقيد بشـــيء، او قل **العدم المطلق لا شـــيئية فيه. أما العدم الإضـافي، فهو غياب صـفة أو خاصـية مُحددة عن شـيء موجود بالفعل**، مثل "عدم الأمن" أو "عدم الاسـتقرار" أو "عدم التأثر". يُفضـل تسـمية هذا النوع

---

1. انظر لسان العرب، ج 11، ابن منظور، ص 14.

2. (الكليّات / 28) الأزليّ، الأوّل، القدم، القدم الذّاتيّ. الأزليّ هو ما لم يسبقه العدم. (كشف المراد / 130) هو الّذي لا أوّل لوجوده. (إرشاد الطّالبين إلى نهج المسـترشـدين / 182) ما لا بداية له. (مفتاح الباب / 119) القديم المطلق هو الّذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضـي إلى أوّل. ويعبّر عنه بأنّه أزليّ. (علم اليقين في أصول الدّين 1 / 148) هو الّذي لم يكن ليسا، والّذي لم يكن ليسا لا علّة له في الوجود. والأزليّة هي كون وجوده (الباري تعالى) غير مسـتفتح. (الكليّات / 28) ما لا يكون مسـبوقا بالعدم. (كشّـاف اصـطلاحات الفنون / 84) الأزل، الأوّل، القدم، القديم. ويفصـل في ذلك الجرجاني: "(الأزلي) ما لا يكون مسبوقا بالعدم اعلم أن الموجود أقسام ثلاثة لا رابع لها فإنه اما أزلي وأبدى وهو اللّه سبحانه وتعالى أولا أزلي ولا أبدى وهو الدنيا أو أبدى غير أزلي وهو الآخرة وعكسه محال فان ما ثبت قدمه امتنع عدمه." التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ص 7.

3. "العدم: فقدان الشـــيء وذهابه، والعدم لغة. إذا أرادوا التثقيل فتحوا العين، وإذا أرادوا التخفيف ضـــموها. عدمت فلانا أعدمه عدما، أي: فقدته أفقده فقدا وفقدانا، أي: غاب عنك بموت أو فقد لا يقدر عليه. وأعدمه الله مني كذا، أي: أفاته" انظر العين، ج 2، الخليل الفراهيدي، ص 56.

4. انظر تهذيب اللغة، ج 2، أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ص 148.

5. انظر شرح المقاصد، ج 3، التفتازاني، ص 127. والمعجم الفلسفي، ج 2، جميل صليبا، ص 65.

6. وبعضـهم يقسـم العدم الى أربعة أنواع: الأول: العدم المحض: وهو الذي لا يوصـف بكونه قديماً ولا حادثاً. الثاني: العدم المطلق: وهو الذي لا يضاف الى شيء. الثالث: العدم السابق: وهو المتقدم على وجود الممكن. الرابع: العدم الإضافي: وهو ما يضاف الى شيء. انظر معجم مصطلحات الفلسفة في النقد والبلاغة العربيين، د. سلام أحمد إدريسو، ص 60.

الأخير بـــ "فقد الشيء" أو "غياب الشيء" أو "نقص الشيء" لتوضيح أنه ليس عدماً مطلقاً للوجود.

العدم العلمي (الفراغ): هو مفهوم يثير جدلاً بين علماء الطبيعيات، ويرجع هذا الاختلاف في رأيي إلى طريقة بحثهم، حيث يحاولون استكشاف العدم داخل المادة، أي البحث عن "اللاشيء" في عالم الأشياء! وهذا خلل وإشكالية منهجية كبيرة، وهذا ما يؤكده عالم فيزياء الجسيمات فيكتور جون ستينجر [1] "**بما أن "اللاشيء" هو أبسط ما يمكن، فلا يمكننا توقع أنه سيكون مستقرا جدا. فمن المرجح أنه سيخضع لتحول طور تلقائي إلى شيء أكثر تعقيدا، مثل كون يحتوي على مادة. هذا التحول من لا شيء إلى شيء هو أمر طبيعي، ولا يتطلب أي فاعل**" [2]. ويمكن التوصل إلى نتيجة مشابهة عند الاطلاع على ما طرحه العلماء حول مفهوم العدم، ومنهم عالم الفيزياء الفلكية الكندي هيو روس: "**يتضمَّن العَدَم المُطلق حالة معلوماتية صفرية. فكيف لنظامٍ معلوماتي صِفْريّ أن يكتسب حالته التَّالية العالية معلوماتيًّا بدون تدخُّل شخصي من خالق ذكيّ**" [3]. فهو مع انه لا يؤمن بان العدم ينتج شيئاً، لكن جعل من العدم نظاماً لكنه صفري المعلومات، وهذا غير صحيح.

وأيضا هناك جلسة حوارية دارت بين مجموعة من العلماء والفلاسفة بعنوان مناظرة إسحاق أسيموف التذكارية لعام 2013: وجود العدم [4]. هذا النقاش الشهير تناول مفهوم "العدم" من منظور علمي وفلسفي، حيث استضاف نيل ديغراس تايسون [5] مجموعة من العلماء والفلاسفة لمناقشة

---

1. فيكتور جون ستينجر (1935–2014م): عالم فيزياء أمريكي، متخصص في فيزياء الجسيمات وعلم الكونيات، وأحد المدافعين عن الفكر العلمي والإلحادي. اشتهر بأعماله حول الفيزياء الكمية، ونقده للأفكار الدينية حول نشأة الكون. له العديد من الكتب التي تناقش علاقة العلم بالدين، أبرزها "الكون غير المصمم" وكتاب "الله: الفرضية الفاشلة".

2. كتاب الله الفرضية الفاشلة، كيف يثبت العلم عدم وجود الله، فيكتور جون ستينجر، ترجمة د. كمال طاهر، ص129.

3 .Hugh Ross, The Creator and the Cosmos: How the Latest Scientific Discoveries Reveal God (Kindle Locations 2102 – 2103). Reasons To Believe. Kindle Edition.

4 .https://www.amnh.org/explore/videos/isaac-asimov-memorial-debate/2013 ، 2013 Isaac Asimov Memorial Debate: The Existence of Nothing

5. نيل ديغراس تايسون (مواليد 5 أكتوبر 1958 –) عالم فيزياء فلكية أمريكي، وكاتب علمي، ومُبسط للعلوم. اشتهر بجهوده في نشر علم الفلك والفيزياء بين العامة بأسلوب شيّق وسلس. يشغل منصب مدير القبة السماوية هايدن في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، وهو أحد أبرز الوجوه الإعلامية في تبسيط العلوم.

السؤال: **هل يمكن أن يوجد العدم؟** واستكشاف كيفية تعريفه في سياق الفيزياء الكمية والنظريات الكونية. تضمنت الجلسة استعراضاً لتعريفات مختلفة للعدم، بما في ذلك الفضاء الخالي، وغياب الزمان والمكان، والتفاعل بين القوانين الفيزيائية والمفاهيم الرياضية. يمكنكم الرجوع لهذه الجلسة والاطلاع بأنفسكم على ما قدمه هؤلاء العلماء.

بصورة عامة؛ فإن ما يقصده العلماء الماديون بمفهوم "العدم" يقابل في الفلسفة مفهوم "العدم الإضافي" أو "المُقيّد"، وليس "العدم المطلق"، ويرجع ذلك إلى أن العلوم المادية تهتم بدراسة العالم الفيزيائي القابل للقياس والملاحظة والتجربة، وبالتالي فهي تتعامل مع غياب أشياء أو صفات مُحددة ضمن هذا العالم، مثل غياب الجسيمات في منطقة معينة أو غياب الحياة في بيئة ما، أو مفهوم الفراغ الذي لا يعني انعدام كل شيء بل خلوه من المادة المرئية مع إمكانية وجود طاقة أو حقول كمومية، هذه الأمثلة تُوضح أن "العدم" في السياق العلمي يُشير إلى غياب شيء مُحدد ضمن سياق مادي موجود وقابل للملاحظة والقياس، وهو ما يُعرف بالعدم الإضافي، بينما يظل "العدم المطلق" الذي يعني انعدام كل شيء، مفهوماً فلسفياً مُجرداً يتجاوز نطاق البحث العلمي التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة.

ولتوضيح الامر أكثر انقل ما مبينه السيد أحمد الحسن بكلامه عن العدم:

تنبيه: أخطأ الذين تصوروا أن العدم المطلق عبارة عن طاقة سلبية وطاقة ايجابية متساويتان ومجموعتان وبما أن ناتجهما يساوي صفراً إذن فهما عدم مطلق، أي أن العدم المطلق عندهم هو عبارة عن (1-1)، في حين أن العدم المطلق ليس فقط لا شيء بل لا شيئية في العدم المطلق، ولهذا فتصور أن (1-1) تمثل العدم المطلق تصور غير صحيح، نعم (1-1) عدم رياضي وتساوي لا شيء ولكنها ليست عدماً مطلقاً لا شيئية فيه، والفرق كبير جداً.

مثال لتقريب الصورة: لو تصورنا أن شخصاً ما قام بحفر حفرة في العدم ووضع التراب أو ما أخرجه من الحفرة في كومة بجنب الحفرة، فهنا لدينا حفرة وتراب - أو ما أخرجناه من الحفرة - إلى جنبها ومجموعهما

يمثل لا شيء جديد، بمعنى لو أننا جمعنا التراب والحفرة مرة أخرى بصورة ما فسيعود الأمر كما كان لا شيء أو لنقل لا حفرة ولا كومة تراب أي العدم فقط، وفي هذه الصورة لم يأتِ للمعادلة شيء من الخارج ليقال إن هناك شيئية حقيقية وإنما دائماً كان لدينا العدم نفسه، ولكن هذا ليس عدماً مطلقاً لا شـيئية فيه، فهذا العدم الذي نتكلم عنه هنا عبارة عن حفرة وكومة تراب تساويها تماماً فهناك شيء تقديري في هذا العدم، كذلك فإن هذا الشيء الذي يحمل عدمه معه لم يظهر من لا شيء بل هناك من تسبّب بظهوره وهو الشخص الذي حفر الحفرة أو القوة التي حفرتها.

إذن، فحتى وإن كانت الشيئية هي شيئية تقديرية في عدم الوجود، كظهور الجسيمات أو الأوتار دون الذرية ومضاداتها وإفناء بعضها بعضاً كما تبين وفقاً لمبدأ الريبة في ميكانيك الكم فإن هذا لا يسمى ظهوراً من لا شيء، بل الحقيقة إن الذي ظهر هو الجسيم الحامل للطاقة الموجبة وظهر في مقابله كمعادل لظهوره الجسيم الحامل للطاقة السلبية، وظهور الجسيم ذي الطاقة الموجبة لابد أن يكون له سبب وعلة أظهرته، وميكانيك الكم بحسب تفسير كوبنهاجن كما بينا سابقاً يهرب من البحث عن العلة والسبب إلى إلغاء مبدأ السببية، ولكن هذا الهروب لا يلغي العلة والسبب حقيقة بل تبقى هناك علة وسبب مجهول هو الذي حفر الحفرة في مثالنا المتقدم.

وهذا تماماً يثبت وجود الإله ويثبت ما نقوله دائماً وهو أن الكون خلقه الله وهو مستمر التقوّم بالله، وليس المقصود أنه يباشر الخلق أو التقوّم بنفسه سبحانه، بل هو كما قال في القرآن ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لمُوسِعُونَ﴾[1]، وهو منزه عن اليد الحقيقية، فالمقصود بالأيد أي بأسباب أو كيانات سبّبها هو سبحانه." [2]

يهدف هذا البرهان - برهان الحدوث - إلى إثبات أن للكون موجداً أو خالقاً او صانعاً عبر ما شئت المهم ان للكون شيء اوجده، بغض النظر عن هوية هذا الخالق أو صفاته، فبرهان الحدوث يؤكد أن لكل حدث سبباً، ولكنه لا يحدد

1. القرآن الكريم ـ سورة الذاريات ـ الآية: 47.
2. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص 561 - 562.

طبيعة أو صفات السبب الأول الموجد للحادث. بمعنى آخر، لا يهم إذا كان هذا الموجد هو كائن خارق، قوة طبيعية، أو أي شيء آخر، الأهم هو الاعتراف بأن هناك سبباً وراء وجود الكون. ولكن حسب قاعدة صفة الأثر تدل على صفة المؤثر، فهذه الأحداث او الموجودات تدل عليه كلا بحسبه، حسب قاعدة فاقد الشيء لا يعطيه، سياتي بيان ذلك في المواضيع القادمة.

صياغة البرهان منطقياً

دليل الحدوث يعني أن كل موجود حادث - مسبوق بعدم - يحتاج إلى سبب أوجده. هذا المفهوم ينطبق على كل شيء في العالم - العالم هو كل شيء ما عدى السبب الأول - من أكبر الأجرام السماوية إلى أصغر الجسيمات الذرية، فعندما نقول إن شيئاً ما حدث، فإننا نسأل فوراً: "من الذي سبب حدوثه؟". ويطرح هذا الدليل الامام علي ع في خطبة له: "**الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده**" [1] وأشهر الصيغ المعروفة لهذا الدليل هي صيغة أبو حامد الغزالي: "**وجوده تعالى وتقدس، برهانه أنا نقول كل حادث فلحدوثه سبب، والعالم حادث فيلزم منه إن له سببا، ونعني بالعالم كل موجود سوى اللّه تعالى.**" [2]

الترتيب المنطقي لبرهان العدم غير منتج:

المقدمة الصغرى: **العالم** [3] **حادث**.

المقدمة الكبرى: **كلّ حادث يحتاج إلى مُحدِث.**

النتيجة: **العالم يحتاج إلى مُحدِث.**

1. الاحتجاج، ج 1، أحمد بن علي الطبرسي، ص 315.
2. الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، ص 27.
3. يقصد بالعالم كل ما عدى الله سبحانه وتعالى.

وعلينا ان نثبت صحة المقدمتان الأولى والثانية (المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى)، وستكون النتيجة متحققة بالضرورة حسب القياس المنطقي [1].

المقدمة الصغرى: **العالم حادث**

يقول السيد احمد الحسن في كتابه وهم الالحاد: "**إنّ العالم (أو العوالم) ليس أزلياً، بل حادث لأنه متغير** [2]**، وكل حادث مسبوق بالعدم، فلابد له من محدث، لأن العدم المطلق لا شيئية فيه فهو غير منتج، فيستحيل أن يأتي شيء من لا شيء مطلقاً، أي بمعنى أن يأتي شيء من عدم مطلق. والكون أو الأكوان أو الوجود الحادث شيء، فلا يمكن أن يكون قد أتى من عدم مطلق. إذن، فالوجود الحادث (الكون أو الأكوان) يثبت أنه أتى من وجود أزلي غني عنه وعن غيره.**" [3]. وفي محاورة للإمام ابي عبد الله (ع) مع ابي العوجاء الملحد نأخذ مقطع منها "فَقَالَ مَا الدَّلِيلُ علىَ حَدَثِ الْأَجْسَام **فَقَالَ إِنِّي مَا وَجَدْتُ شَيْئاً صَغِيراً وَلاَ كَبِيراً إِلاَّ إِذَا ضُمَّ إِلَيْهِ مِثْلُهُ صَارَ أَكْبَرَ وَفِي ذَلِكَ زَوَالُ وَانْتِقَالُ عَنِ الْحَالَةِ الْأُولَى وَلَوْ كَانَ قَدِيماً مَا زَالَ وَلاَ حَالَ لِأَنَّ الَّذِي يَزُولُ وَيَحُولُ يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ وَيَبْطُلَ فَيَكُونُ بِوُجُودِهِ بَعْدَ عَدَمِهِ دُخُولُ فِي الْحَدَثِ وَفِي كَوْنِهِ فِي الْأُولَى** [4] **دُخُولُهُ فِي الْعَدَمِ وَلَنْ يَجْتَمِعَ صِفَةُ الْأَزَلِ وَالْعَدَمِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ**" [5]. استناداً على الأدلة العقلية والمنطقية التي قدمها الإمام الصادق (ع) وابنه السيد أحمد الحسن (ع) ثبت حدوث العالم من خلال ظاهرتي التغير وقبول الأجسام للزيادة والنقصان. وهذا الاستنتاج الفلسفي ينطلق من مُلاحظة الواقع المحسوس للعالم، حيث يُشاهد التغير

---

1. هو أسلوب استدلال عقلي يُبنى على تركيب مقدمتين تُفضيان إلى نتيجة لازمه لهما بالضرورة، ما دامتا صحيحتين من حيث الصدق والتركيب. مثال: إذا قلنا إن كل مخلوق له خالق (مقدمة كبرى)، وإن الإنسان مخلوق (مقدمة صغرى)، فإن النتيجة المنطقية تكون أن الإنسان له خالق. ويُعد هذا النوع من الاستدلال من أبرز أدوات البرهان في علم المنطق، ويُستخدم لتقرير الحقائق بطريقة عقلية واضحة ومتماسكة. "القياس: قول مؤلف من قضايا، متى سلمت، لزم عنها – لذاتها – قول اخر". انظر معجم مصطلحات الفلسفة في النقد والبلاغة العربيين، د. سلام أحمد إدريسو، ص 67.

2. كل شيء يتغير في الكون يدل على أنه حادث. فالتغير يعني الانتقال من حالة إلى أخرى، وهذا الانتقال يفترض وجود بداية لتلك الحالة ونهاية الحالة السابقة وذهابها، حتى تأتي الحالة الاخرى. فإذا كان الكون يتغير (وهو كذلك) فهو حادث.

3. عقائد الإسلام يليه: يسألونك عن الروح، السيد أحمد الحسن، ص15.

4. "هكذا في النسخ التي عندي، وفي البحار باب اثبات الصانع: «وفي كونه في الأزل دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدوث والقدم والعدم في شيء واحد»." التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 297.

5. التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 297.

المُستمر في كل شيء، من أصغر الذرات إلى أكبرها، كما يُلاحظ أن الأجسام قابلة للزيادة والنقصان، وهو ما يُنافي صفة الأزلية والثبات المُطلق، فالتغير يعني الانتقال من حال إلى حال، وهذا الانتقال يستلزم وجود بداية لكل حال، وبالتالي بداية للوجود نفسه [1]. وقبول الأجسام للزيادة والنقصان يُشير إلى عدم ثباتها على حال واحدة، وهو ما يُناقض فكرة القدم والأزل، وبناءً على هذه المُلاحظات العقلية والواقعية، نصل الى نتيجة تؤكد ان هذا الكون حادث، أي له بداية، ولم يكن موجوداً منذ الازل.

وبرغم من وجود أدلة عقلية على حدوث الكون على طول التاريخ، كقاعدة "كل متغير حادث" وغيرها من الأدلة المطروحة، إلا أن الاعتقاد بأزلية الكون كان سائداً في الأوساط العلمية قبل التطور العلمي الحديث، ولكن مع الاكتشافات العلمية الهائلة التي شهدها العصر الحديث، وخاصة في مجالات الفيزياء الفلكية وعلم الكون، أصبح العلم المادي نفسه - الذي كان يُستند إليه في بعض الأحيان لدعم فكرة أزلية الكون - دليلاً على حدوث الكون، ونفي أزليته بشكل قاطع، بل أصبح الاعتقاد بأزلية الكون اليوم يشبه تماماً الاعتقاد بأن الأرض مسطحة! فكلاهما فكرة قديمة عفا عليها الزمن وتجاوزها العلم الحديث بأدلته القاطعة، ولا بأس بذكر بعض الأدلة والاكتشافات العلمية لإبطال أي حجة قد يتمسك بها المُؤمن بأزلية الكون، وتفنيد أي شبهة قد تُثار حول حدوث الكون، سأعرض بعض الأدلة العلمية التي تُثبت بشكل لا يدع مجالاً للشك أن للكون بداية، وما له بداية فهو حادث ويحتاج الى محدث. من هذه الأدلة:

نظرية الانفجار العظيم (Big Bang Theory): [2]

إن من أبرز ما كشفت عنه الفيزياء الفلكية الحديثة في القرن العشرين هو أن الكون الذي نعيش فيه لم يكن موجوداً على حاله منذ الأزل، كما كان يُعتقد

---

1. ولفهم التغير: تخيّل ساعة رملية مملوءة بالرمل، فلو نظرنا إليها في لحظة ما سنجد أن الرمل ينزل من الجزء العلوي إلى الجزء السفلي، وهذا التغير المُستمر يُخبرنا بأن هذه الساعة بدأت في وقت ما، وأنها ستنتهي في وقت ما، فلو كان الرمل ينزل باستمرار منذ الأزل، لكان الجزء العلوي فارغاً منذ الأزل، وهذا باطل، وبالمثل الكون بتغيره المُستمر يُخبرنا بأنه بدأ في وقت ما، ولم يكن موجوداً منذ الازل.

2. في عام 1927م عرض العالم البلجيكي جورج لوميتر نظرية الانفجار العظيم.

قديماً، بل إن له نقطة بداية حقيقية، نشـــأ عندها المكان والزمان والمادة والطاقة دفعة واحدة، فيما يُعرف علمياً بنموذج الانفجار العظيم (Big Bang). وقد كان لهذا الاكتشاف أثر فلسفي ومعرفي عميق، لأنه يضرب عرض الحائط بكل التصورات المادية التي تقول بأزلية الكون، ويقود العقل إلى ضرورة وجود "مُحدث أول" أخرج الوجود من العدم. والحق أن هذا النموذج العلمي لا يعتمد على فرضيات نظرية فحسب، بل يقوم على شواهد رصدية وتجريبية، في مقدمتها ظاهرتان محوريتان: **التمدّد الكوني، وإشـــعاع الخلفية الكونية الميكروي**، وكلاهما يؤكد أن الكون يتمدد من لحظة نشوءه، وأن هذا النشوء لم يكن إلا بداية للزمان والمكان ذاتهما.

وبدأ هذا الاكتشـــاف الكبير من خلال عمل الفلكي الأمريكي إدوين هابل (Edwin Hubble) عام 1929، عندما لاحظ أن الضوء الصادر من المجرات البعيدة يميل إلى اللون الأحمر، وهي الظاهرة التي تُعرف في الفيزياء الفلكية بـ "الانزياح نحو الأحمر" (Redshift). وبحســـب مبدأ دوبلر (Doppler Effect)، فإن هذا الميل يشير إلى أن تلك المجرات تبتعد عن الراصد، مما يعني أن الكون في حالة تمدد دائم. وكان هذا الاكتشـــاف حاســـماً في هدم التصـــور النيوتني أو الأرسطي القديم الذي كان يفترض كوناً ساكناً وثابتاً، إذ تبين أن الفضاء نفسه آخذ في الاتســـاع، وليس مجرد حركة عشـــوائية للمجرات داخل فراغ ثابت. وقد دعم هذا الاكتشـــاف لاحقاً القانون الذي سُـــمّي بـــــ "قانون هابل-لومايتر" (Hubble–Lemaître Law)، والذي ينص على أن سرعة ابتعاد المجرات تتناسب طردياً مع بعدها عن بعضـها البعض، ولو افترضـنا أن هناك مجرتين، المجرة "أ" والمجرة "ب"، وكلتاهما تقعان في اتجاه واحد بالنســـبة إلينا. فإذا كانت المجرة "ب" تقع على بُعد 100 مليون ســـنة ضـوئية من مجرتنا، وكانت المجرة "أ" تقع على بُعد 200 مليون سنة ضوئية، فإننا نلاحظ أن المجرة "أ" تبتعد عنّا بسرعة أكبر من المجرة "ب"، مما يعني أن الكون يتوسع بشكل متسق ومنتظم.

وإذا قبلنا بهذا التمدد الكوني بوصفه حقيقة رصدية، وهو ما تؤكده جميع المشـاهدات الفلكية الحديثة، فإن المنطق العلمي يدفعنا إلى إعادة الزمن إلى الوراء، لنجد أن هذا الكون الذي يتمدد الآن، كان في الماضـــي أكثر قرباً وتكاثفاً، إلى أن نصـــل إلى لحظة أولى في التاريخ الكوني، كان فيها الكون كله متركزاً

في نقطة متناهية في الصـــغر، ذات حرارة وكثافة لا نهائية، تُعرف في لغة الفيزياء بـ "**المتفردة الكونية**" (Singularity)، والتي تمثل الحد الذي تنهار فيه قوانين الفيزياء الكلاسيكية، وتبدأ لحظة نشوء الكون. وقد تأكدت هذه النتيجة من خلال حلول معادلات النســـبية العامة لأينشـــتاين، التي بيّنت أن الزمان والمكان ليســـا مطلقين، بل يتأثران بتوزيع الكتلة والطاقة، وأن تمدد الفضـــاء نفسه لا يمكن أن يكون أزلياً، بل لا بد أن تكون له بداية.

ويُروى عن أينشتاين - وفق رواية الفيزيائي جورج غاموف - أنه وصف إدخال الثابت الكوني إلى معادلات النســـبية العامة بأنه أحد أكبر أخطائه العلمية، وربما استخدم عبارة مثل "أكبر خطأ في حياته". رغم أن هذه العبارة لم ترد في كتابات أينشـــتاين المنشـــورة، إلا أنها متطابقة مع مواقفه اللاحقة، حيث كان ينظر إلى الثابت الكوني على أنه إدخال غير ضـروري، تراجع عنه بعد اكتشـاف التمدد الكوني، وبعدما أثبتت الأدلة الرصدية، وخاصة انزياح المجرات، أن الكون في حالة تمدد فعلي. وقد جاء كل من سـتيفن هوكينغ (Stephen Hawking) وروجر بنروز (Roger Penrose) في سـبعينيات القرن العشـرين، ليقدما الإثبات الرياضي لما يُعرف بـ "نظرية المتفردة" (Singularity Theorem)، والتي أثبتت، تحت شـروط معقولة تنطبق على كوننا، أن الزمان والمكان قد بدأ من متفردة، وأنه لا يمكن وجود لحظات زمنية قبلها بالمعنى الفيزيائي، ما يعني أن الزمان نفسه قد بدأ في تلك اللحظة.

ولم يقف الأمر عند التمدد فحســـب، بل جاءت أدلة أخرى داعمة لنموذج الانفجار العظيم، وفي طليعتها اكتشـــاف إشـــعاع الخلفية الكونية الميكروي (Cosmic Microwave Background Radiation) عام 1965 من قِبل العالمين أرنو بنزياس وروبرت ويلسون، عندما رصدا إشعاعاً حرارياً موحداً في كل اتجاهات السماء، بدرجة حرارة تقارب 2.7 كلفن، وهو ما يُعد بقايا حرارية من لحظة نشوء الكون، ويُفسر على أنه صدى الانفجار العظيم الذي ملأ الفضاء كله عند بدايته. وقد عزز هذا الاكتشـاف صـحة النموذج الانفجاري للكون، لأنه كان متوقعاً نظرياً قبل رصـده، وأثبت بالتالي أن الكون لم يكن موجوداً على حاله منذ الأزل، بل مرّ بمراحل من التطور، بدءاً من حالة كثافة وحرارة عظيمة. وعلى هذا الموضـــوع

يعلق عالم الرياضيات **ديفيد بيرلنسكي** [1] أن رصد الإشعاع الخلفي الميكروي يُعدّ الدليل الأقوى الذي أقنع الفيزيائيين بصحة نظرية الانفجار الكبير. [2]

ومع تراكم الأدلة، لم يعد الحديث عن "بداية للكون" مجرد تأويل ديني أو افتراض فلسفي، بل صار نتيجة علمية تُقر بها المراكز العلمية والأكاديمية الكبرى، وتؤيدها حسابات الرصد والمحاكاة الفيزيائية والنماذج الكونية المتقدمة. وإذا كان الكون يتمدد، وقد بدأ من نقطة نشوء حراري وزمني ومكاني محددة، فإن هذا يستدعي بالضرورة البحث عن سبب سابق للكون، لا يخضع لقوانينه، بل يُوجد خارج الزمان والمكان. ذلك أن كل ما له بداية يحتاج إلى سبب، والعدم لا ينتج شيئاً بذاته، ولا توجد في الطبيعة آلية لتفسير خلق الكون من لا شيء مادي بدون تدخل علّة خارجية. لذا فإن الفيزياء نفسها، إذ تدلنا على بداية الكون، تدفعنا عقلاً نحو وجود سبب أول، لا محدود، متجاوز للكون، ليس داخله ولا مادياً، بل مفارقاً وخالقاً، وهو ما يُعبر عنه في الفكر الديني والعقلي باسم "الله".

اقوال بعض العلماء في بداية الكون

ابدأ بعالِم الفيزياء الفلكية الكندي هيو روس حيث يُقدم لنا دليلاً نظرياً مبنياً على معادلات النسبية العامة لأينشتاين على فكرة نشأة الكون، إذ أشار إلى أن معادلاته تنبأت بتوسع الكون مما استدعى تعديل نظرية الثبات التقليدية بقوله "**أوَّل دليل نظري** (قوانين مبنية على الفيزياء والرِّياضيات النَّظرية) **على خلق الكون** (حُدُوث الكون) **يرجع إلى عام 1916م**، حين لاحظ ألبرت أينشتاين أنَّ مُعادلاته الميدانية للنِّسبية العامَّة تنبَّأت بكونٍ يتَّسِع. وعندما أدرك أنَّ هذا التَّوسُّع يلزم منه (أن يكون للكون) بداية؛ عدَّل أينشتاين نظريَّته لتتماشى مع الحكمة الشائعة في عصره، ألاَ وهي: الاعتقاد بأزلية

1. ديفيد بيرلنسكي (David Berlinski): مفكر وفيلسوف وعالم رياضيات أمريكي معاصر، وُلد عام 1942. يُعرف بكتاباته النقدية للفكر الإلحادي والمادي، رغم أنه لا يُصنَّف كمؤمن تقليدي. من أبرز أعماله وهم الشيطان (The Devil's Delusion)، حيث دافع فيه عن مشروعية الإيمان بالله في عصر العلم، وهاجم فيه مزاعم الإلحاد العلمي المعاصر.

2 .David Berlinski: The Devil's Delusion (Atheism and It's Scientific Pretensions), Basic Books 2009, p78.

الكون" [1]. ويؤكد كل من الفيزيائي الفلكي **جوليرمو جونزاليس** والفيلسوف **جاي ريتشاردز** قصة تعديل أينشتاين لنظريته بعد اكتشاف هابل، حيث أدخل "مُعامل تصحيح" (الثابت الكوني) لحفظ اتزان الكون رغم توقعات نظرية النسبية، في كتابهما الكوكب المميز "**تنبَّأت نظرية النِّسبية العامَّة لأينشتاين بالفعل بأنَّ الكون كان إمَّا في توسُّع أو انكماش**. ولسوء الحظ، وجد أينشتاين تِلْك الفِكْرة غير مُستساغة بالمرَّة، لدرجة أنَّه أدخل "مُعامل تصحيح". مُتغيِّر سمَّاه الثَّابت الكونيّ، المضبوط نظرياً من أجل حفظ الكون في اتِّزان ثابت أبدي. ولكن فور معرفته باكتشاف هابل، قام أينشتاين برحلة واسعة الشُّهرة إلى كاليفورنيا، لرؤية بيانات هابل بنفسه. ونتيجةً لاكتشافات هابل، وأعمال جورج إدوارد لوميتر (كاهن كاثوليكي بلجيكي وفيزيائي تتلمذ على يدي آرثر إدينجتون)، وألكسندر فريدمان السوفياتي الذي رجَّحت حُلُوله لنظرية أينشتاين **أنَّ الكون آخذ في الاتِّساع**؛ ندم أينشتاين على ثابته الكونيّ، الذي اشتهر بتسميته "أعظم خطأ" في حياته المهنية" [2].

اما البروفيسور **ويرسينجر** نجاح نموذج الانفجار الكبير رغم معارضة المجتمع العلمي في بداياته، مشيرًا إلى أن قبول الفكرة تطلب وقتًا وأدلة مرصودة دقيقة. "**إنّ نظرية الانفجار الكبير نموذجٌ ناجح جدًا ... فرض نفسه على مُجتمع عِلْمي مُعارض". ويقول ايضاً "إنّ إقناع المُجتمع العِلْمي بقبول فِكْرة نشأة الكون احتاج إلى وقتٍ، وأدِلَّة مرصودة، والتَّحقُّق الدَّقيق لمدى تحقيق التَّوقُّعات التي تنبَّأت بها نظرية الانفجار الكبير**" [3].

وتفسر لنا كاتبة العُلُوم الأمريكية **كيتي فيرجوسون** كيف تغيّرت صورة الكون منذ بدايات القرن العشرين، حيث أصبح معروفاً أن النجوم المرئية جزء من مجرتنا فقط، وأن الكون له بداية زمنية ويتوسع باستمرار بقولها "تختلف صُورة الكون في أواخر القرن العشرين اختلافًا مُذهلاً عن الصُّورة التي عرفها أسلافنا في بداية ذلك القرن، فمن المعروف الآن أنَّ كلّ النُّجُوم المُنفردة التي نراها بأعيننا المُجرَّدة هي فقط نجوم مجرَّتنا (مجرَّة درب التِّبَّانة)، وأنّ مجرَّة

1. Albert Einstein, "Die Grundlage der allgemeinen Relativitätstheorie," Annalen der Physik 354, no. 7 (1916): 769– 822.

2.Guillermo Gonzalez and Jay W. Richards: The Privileged Planet (How Our Place in The Cosmos is Designed for Discovery), Regnery Publishing 2004, p170, 171.

3. J. M. Wersinger" ,Genesis: The Origin of the Universe ",National Forum (Winter 1996) , 11, 9, 12. Cited in: William Lane Craig, On Guard: Defending Your Faith with Reason and Precision (Kindle Locations 1384–1389). David C. Cook. Kindle Edition

درب التِّبَّانة هي واحدة من بين مليارات عديدة من المجرَّات، **ومن المعروف أيضًا أنّ الكون ليس أزلياً ولكن له بداية مُنذ حوالي 10-20 مليار سنة، وأنَّه يتوسَّع**" [1]. مؤكدا كلامها عالِم الرِّياضيَّات الشَّهير **ديفيد بيرلنسكي** "قد تكون البداية الكونية غامضة، **ولكنَّ الكون له عُمر محدود**، وقد ظلَّ هذا الأمرُ مجهولاً إلى القرن العشرين، وعندما أصبح معلومًا، أذهل المُجتمع الفيزيائي، وكلّ الباقين" [2].

ويوضح عالِم الفيزياء النَّظرية **ستيفن هوكينج** [3] أن الفكرة التقليدية للكون الثابت والأزلي استُبدلت بنموذج كون ديناميكي متوسع بدأ في زمن محدد بنص قوله "**تمّ استبدال الفكرة القديمة التي تقول بأنَّ الكون في جوهره غير مُتغيِّر**، وأنَّه من المُمكن أن يكون الكون أزليًّا، بفكرة الكون الدِّيناميكي المُتوسِّع، **الذي يبدو أنَّه بدأ في الوُجُود مُنذ مُدَّة زمنية مُحدَّدة في الماضي**، وقد ينتهي في وقتٍ مُحدَّد في المستقبل" [4]. ويعبر الفيزيائي المُلحد **فيكتور ستينجر** [5] عن رأيه بأن الكون انفجر من العَدَم، مع التأكيد على ضرورة إبقاء الباب مفتوحاً لاحتمالية خطأ نظرية الانفجار الكبير مع زيادة التوافق بين المعلومات الفلكية والنموذج النظري. "انفجر الكون من العَدَم" [6] – يبدو انه كان في قمة اليأس عندما اعترف بذلك – وقال في موضع اخر: "لابُدَّ أن نترك الباب مفتوحًا أمام إمكانية خطأ نظرية الانفجار الكبير، ولكن ... في كلّ عامٍّ يمُرّ، وكُلَّما تأتي معلومات فَلَكِيَّة أكثر، نجد أنَّها مُتَّسِقَة أكثر وأكثر على الأقل مع الصُّورة العامَّة للانفجار الكبير" [7].

1.Kitty Ferguson: The Fire in the Equations, Bantam Press 1994, p89. Cited in: Bert Thompson: The Case for the Existence of God, Apologetics Press Inc 2003, p10, 11.

2 .David Berlinski: The Devil's Delusion (Atheism and It's Scientific Pretensions), Basic Books 2009, p80.

3. ستيفن هوكينغ (Stephen Hawking): فيزيائي نظري وعالم كونيات بريطاني (1942-2018)، يُعد من أبرز علماء الفيزياء في العصر الحديث. اشتهر بأعماله حول الثقوب السوداء ونشأة الكون، وشارك في صياغة نظرية المتفردة بالتعاون مع روجر بنروز. من أشهر كتبه تاريخ موجز للزمن، حيث قدّم فيه عرضًا مبسطًا لنشأة الكون وقوانين الفيزياء.

4 . Stephen Hawking with Leonard Mlodinow: A Briefer History of Time (Kindle Locations 562-564). Random House

5. فيكتور ستينجر (Victor Stenger): فيزيائي وفيلسوف أمريكي (1935-2014)، عُرف بدفاعه عن الإلحاد والعلم الطبيعي، وبنقده للأفكار الدينية من منظور علمي. من أبرز كتبه الله: الفرضية الفاشلة (God: The Failed Hypothesis)، الذي حاول فيه نفي وجود الله باستخدام الفيزياء الحديثة. كان من الأصوات البارزة في حركة "الإلحاد الجديد"، بجانب ريتشارد دوكينز وسام هاريس.

6 .V. J. Stenger, "The Face of Chaos," Free Inquiry 13 (Winter 1992-1993): 13.

7.Cited in: Norman L. Geisler & Frank Turek: I Don't Have Enough Faith to Be an Atheist (Kindle Locations 1498-1502). Crossway. Kindle Edition.

اما **بول ديفيس** [1] العالِم البريطاني كان مندهشـــاً من فكرة بداية الكون، حتى وإن كانت هناك ادلة في الديناميكا الحرارية تثبت بداية الكون في أواخر القرن التاسع عشر، الا انها حسب ادعاء ديفيس لم تُستوعب تجريبياً إلا بعد ظهور الاكتشـــافات الجديدة في عشـــرينات القرن الماضـــي، حيث يقول: "**من المُدهش أنَّ هذه النَّتيجة العميقة لم يتم استيعابها بشكلٍ صحيح من قِبَل عُلماء القرن التَّاسع عشر. كان على فكرة أنَّ الكون نشأ فجأةً في انفجارٍ كبيرٍ أن تنتظر الرَّصد الفَلَكي في عشرينات القرن التَّاسع عشر**، ولكن يبدو أنَّ فكرة لحظة بداية الكون في زمن مُحدَّد في الماضـــي كانت مُرجَّحة بشدَّة بالفعل على أُسُس الدِّيناميكا الحرارية" [2]. ويذكر في موضع اخر من كلامه ان كل الأدلة تشـــير إلى كون له عمر محدد وبداية زمنية، مما يعني أن الكون جاء إلى الوجود في لحظة معينة "**تُشـير كلّ الأدِلَّة إذاً إلى كونٍ له عمرٌ محدُودٌ**، وأنَّه جاء إلى الوُجُود في زمنٍ مُحدَّدٍ في الماضي، وهو الآن يشع بالنَّشـــاط، **ولكنه ينحدر بشـــكلٍ حتميٍّ تجاه الموت الحراري في مرحلةٍ ما في المُستقبل**" [3]. ويؤكد عالم الفلك **روبرت جاسترو** ما توصل اليه ديفيس في ان الكون متجه للموت الحراري "**العِلْم الحديث يُنكر وُجُود كون لا نهائي، سواء في الماضي أو المستقبل**" [4]. ثم ينتقل ديفيس ليوضح أن الانفجار الكبير يمثل عملية خلق شاملة تشمل المادة والطاقة والزمكان نفسه بقوله: "**الانفجار الكبير يُمثِّل واقعة الخلق؛ ليس فقط خَلقُ المادَّة والطَّاقة في الكون، ولكن أيضًـــا خلق الزَّمكان نفســـه**" [5]. وهذا ما أثبته هوكينج أيضـــا "**الجميع تقريبًا يؤمنون الآن بأنَّ الكون والوقت نفســـه بدءا بالانفجار الكبير**" [6]. وقال ايضاً في كتابه تاريخ موجز للزمن "**نحن نؤمن أنَّ الكون ليس أزليًّا**" [7].

---

1. بول ديفيس (Paul Davies): فيزيائي نظري وكاتب علمي وفيلســـوف بريطاني وُلد عام 1946، عُرف بكتاباته التي تربط بين الفيزياء الحديثة والأسـئلة الوجودية. من أشـهر أعماله عقل الله والكون الصامت، حيث ناقش قضايا مثل نشأة الكون، والضبط الدقيق، ومكانة الحياة في الكون. يميل إلى رؤية كونية ذات طابع غائي أو عقلاني، دون الالتزام بدين تقليدي، ويُعرف بموقفه المنفتح تجاه فكرة الغاية في الطبيعة.

2 .Paul Davies ,The Last Three Minutes: Conjectures About the Ultimate Fate of the Universe ,BasicBooks, 1994, p13.

3. نفس المصدر السابق، ص18.

4 .Dr. Jastrow (1977, p30). Cited in: Bert Thompson: The Case for the Existence of God, Apologetics Press Inc 2003, p10.

5 .William Lane Craig ,Reasonable Faith: Christian Faith and Apologetics ,Crossway Books 2008, 3rd edition, Page 126.

6.Stephen Hawking and Roger Penrose, The Nature of Space and Time, The Isaac Newton Institute Series of Lectures (Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1996), 20. Cited in: William Lane Craig, Reasonable Faith: Christian Faith and Apologetics, Crossway Books 2008, 3rd edition, Page 130.

7 .Stephen Hawking with Leonard Mlodinow: A Briefer History of Time (Kindle Locations 1230). Random House.

إذن، الأدلة العلمية - من معادلات أينشـتاين إلى أطروحات هوكينغ - تثبت ان للكون بداية ولا سـبيل لرد ذلك، فحقيقة أن الكون بدأ وجوده في لحظة معينة، ولا يمكن أن يكون أزلياً، أصبحت أمراً مسلماً به في المجتمع العلمي كما أشرنا الى ذلك سابقاً. نعم قد يكون هذا الأمر صعب القبول لمن يتمسك بفكرة أزلية المادة، لكن لا مجال للإنكار؛ فالدليل يفرض نفسه على الجميع بلا استثناء. وأصبحت الحقيقة واضحة للعيان في نظريات الفيزياء الفلكية التي تؤكد أن الكون نشأ من نقطة معينة، ومن ثم بدأ في التوسع، وقد تختلف وجهات النظر حول التفسير الدقيق لهذه البداية، لكن الاتفاق قائم على أن الكون ليس أزلياً. فالأدلة التي قدمها العلماء عبر الأجيال واضحة بما فيه الكفاية لتثبت لنا أن الكون ليس حالة دائمة، بل هو في تغير مستمر ويمتلك نقطة بداية ونقطة انتهاء حتمية في المستقبل.

المقدمة الكبرى: **كلّ حادث يحتاج إلى مُحدِث**

هذا الامر هو ببداهة العقل، فالعقلاء بمختلف مراتبهم وقومياتهم وازمانهم يقرون أن كل أمر ليس ذاتياً فهو بحاجة إلى علة توجده او ترجح وجوده، فالترجيح بلا مرجح باطل، تماماً كما أن كل حادث لا بد لها من محدث وموجد، وهذا ما ينص عليه قانون السببية كما تم بيانه سابقاً، فالشيء الذي لم يكن موجودا ثم وجد، فهو لا يخرج من هذين الاحتمالين: **اما ان يكون هو قد اوجد نفسه بنفسه وهذا دور** [1]، والدور باطل، **او اوجده غيره**. وبما ان الأول باطل اذن الثاني هو المتحقق وهو المطلوب.

قال امير المؤمنين علي (ع) "**وهل يكون بناء من غير بانٍ، أو جناية من غير جان**" [2]. وأيضا روي عن هشام بن الحكم أنه قال: من سؤال الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام أن قال: ما الدليل على صانع العالم؟ فقال: أبو

1. هو أن يتوقف الشيء على نفسه، أو يتوقف على أمر آخر يتوقف هو بدوره على ذلك الشيء. فإذا كان التوقف بين الشيئين في مرتبة واحدة، كان الدور صريحًا، كما في توقف (أ) على (ب) وبالعكس. مثال ذلك: تعريف الشمس بأنها "كوكب يطلع في النهار"، حيث لا يُعرَف النهار إلا بالشمس، إذ يُقال في تعريف النهار: "النهار هو زمن طلوع الشمس فوق الأفق". بذلك تتوقف معرفة الشمس على معرفة النهار، في حين أن معرفة النهار – وفقًا للتعريف – متوقفة على الشمس، مما يؤدي في النهاية إلى توقف معرفة الشمس على معرفة نفسها. أما إذا كان التوقف على مراتب مختلفة، فيكون الدور مضمرا.

2. الاحتجاج، ج 1، أحمد بن علي الطبرسي، ص 316.

عبد الله عليه السلام "**وجود الأفاعيل التي دلت على أن صانعها صنعها إلا ترى أنك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبني علمت أن له بانيا وإن كنت لم تر الباني، ولم تشاهده**".[1]

وبعد ثبوت صحة المقدمتان؛ وفق الأدلة العقلية والعلمية، فإن النتيجة تكون صحيحة تبعاً للمقدمات: الكون حادث، وكل حادث يحتاج إلى محدث، **وهذا المحدث هو الاله** بما نعتقده نحن المؤمنين او المؤلهين، وما يهمنا بهذا الدليل كما بينت في المقدمة هو اثبات واجد او خالق لهذا العالم بغض النظر عن صفاته او من هو.

1. الاحتجاج، ج 2، أحمد بن علي الطبرسي، ص 69.

شبهات وردود: على برهان "العدم غير منتج"

🔷 فمن خلق اللّه؟! [1]

إذا كان مبدأ السببية يقتضي أن لكل مخلوق خالقاً -كما يؤمن البعض- فكيف يُستثنى الإله من هذا المبدأ؟! بمعنى آخر: إذا افترضنا أن كل وجود يحتاج إلى مُوجِد، فما الدليل على أن الإله موجود بذاته دون حاجة إلى مُوجِد؟!

الجواب:

بداية، لم يقل أحد من المؤمنين او من يؤمنون بهذا البرهان بأن "**كل شيء يحتاج الى سبب**"، لان هذه القول هو عكس ما يريد اثباته، بل حتى مخالف لمبدأ السببية، لان ذلك ينتج عنه امراً مستحيلاً عقلاً، بل نقول إن **كل شيء حادث** -أي له بداية **- يحتاج إلى سبب أو مُحدِث**، وهناك فرق جوهري بين القول بأن "**كل شيء له سبب**" وبين القول بأن "**كل حادث له سبب**". القول الأول يؤدي إلى تسلسل لا نهائي من الأسباب، وهو مستحيل عقلاً، بينما القول الثاني يستلزم وجود بداية أولى، وهذا هو جوهر برهان الحدوث. وقد بينت ذلك في موضوع السببية وفي برهان الحدوث، ولكن لا اشكال في إعادة صياغة الامر عسى ولعل ان يكون الامر أكثر وضوحاً.

مبدأ السببية هو قانون منطقي يتناول تحديد الأسباب والنتائج للأحداث والوقائع التي لم تكن ثم وجدت، أي الأشياء التي لها بداية، ويُصاغ هذا المبدأ عادةً بعبارة: "**كل حادث يحتاج إلى سبب**"، مما يعني أنه لا يمكن لشيء أن يوجد من دون سبب يؤدي إلى وجوده، وهذا ما يقره العقل والعلم، لكن مبدأ السببية لا ينطبق على كل أنواع الوجود، بل يختص فقط بما يُعرف في الفلسفة بـــ ممكن الوجود، دون أن يشمل واجب الوجود. ووفقاً لهذا التقسيم العقلي، تنقسم الأشياء من حيث علاقتها بالوجود إلى ثلاثة أنواع [2]: الأول هو

---

1. يُطرح هذا السؤال اليوم – خصوصاً من ماديين امثال ريتشارد دوكينز – كإشكالية تُفند فكرة الإله، لكنه ليس جديداً ولا هو نتاج ممن يطرحه اليوم. فهو سؤال تناولته الأديان قديماً، خاصة الإسلام الذي قدم رداً واضحاً: الله "واجب الوجود" لا يحتاج خالقاً، بينما المخلوقات "ممكنة الوجود" تحتاج مُوجِداً.

2. هذا التقسيم ليس تقسيماً عشوائياً أو نابعاً من فراغ، بل هو قسمة عقلية حاصرة مبنية على مبدأي الهوية وعدم التناقض. فكل موجود إما أن يكون وجوده ضرورياً بذاته، أو مستحيلاً بذاته، أو قابلاً للوجود أي انه محتاج الى مرجح. ولا رابع لها عقلاً.

واجب الوجود [1]، وهو الوجود الذي لا يمكن أن يكون معدوماً في حال من الاحوال، أي أنه قائم بذاته ولا يحتاج إلى سبب خارجي لوجوده، ويتصف هذا الوجود بالأزلية والضرورة، بحيث لو لم يكن موجوداً لوقعنا في مشكلة التسلسل اللانهائي أو الدور، وكلاهما باطلان عقلاً. ولتوضيح فكرة واجب الوجوب فلنأخذ هذا المثال، كلنا نعرف بان مصدر الحلاوة في الأطعمة هو السكر فهذا الاطعمة تستمد الحلاوة من هذا المكون، ولكن السكر من اين يستمد حلاوته؟! ببساطة السكر هو حلو الطعم بالضرورة ولو رفعة الحلاة منه ما سمي سكر، فكذلك واجب الوجود لو رفع الوجود منه لنعدم الوجود كله وما سمي واجب الوجود.

أما النوع الثاني، فهو **ممكن الوجود** وهو الوجود الذي يمكن أن يوجد أو لا يوجد أي يتساوى طرفيه بين العدم والوجود، فهو ليس ضرورياً بذاته، بل يحتاج إلى سبب يخرجه من العدم إلى الوجود، وهذا هو المجال الذي ينطبق عليه مبدأ السببية، لأن كل شيء ممكن يحتاج إلى سبب يجعله موجوداً. من الأمثلة على ذلك الكون والكائنات الحية والظواهر الطبيعية، فجميعها لها بداية واحتاجت إلى سبب أدى إلى وجودها. فالكون ثابت علمياً ان طاقته الكلية تساوي صفراً، أي ان الطاقة الموجبة تساوي الطاقة السالبة وهذا صورة من صور الممكن، فهو بحقيقته عدم قابل للوجود، اوقل هو وجود اعتباري لا غير [2].

والنوع الثالث هو **ممتنع الوجود**، وهو الذي يستحيل أن يوجد بسبب تناقضه الداخلي أو عدم إمكانيته العقلية. وهذا النوع ايضاً لا يخضع لمبدأ السببية، لأنه لا يمكن أن يوجد أصلاً، فلا معنى للبحث عن سبب له. من الأمثلة على ذلك "المربع الدائري" أو ما شابه من المستحيلات العقلية، فهذه مفاهيم متناقضة لا يمكن أن تتحقق في الواقع، وبالتالي لا تدخل ضمن نطاق السببية.

---

1. يقول ابن سينا: "**إن الواجب الوجود، هو الموجود الذي متى فرض غير موجود، عرض منه محال.. والواجب الوجود هو الضروري الوجود**" النجاة 77/2، وانظر: معيار العلم ص331، المبين ص79. ويقول الرازي: ".. **فسرنا واجب الوجود بذاته، بأنه الموجود الذي تكون حقيقته غير قابلة للعدم البتة**" المطالب العالية 134/1. ويقول سبينوزا "**أعنى بعلة ذاته ما تنطوي ماهيته على وجوده، وبعبارة أخرى ما لا يمكن لطبيعته ان تُتصور إلا موجودة**" الاخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، ص31.

2. ولتوضيح الفكرة انقل مثال من كتاب وهم الالحاد "**لو تصورنا أن شخصاً ما قام بحفر حفرة في العدم ووضع التراب أو ما أخرجه من الحفرة في كومة بجنب الحفرة، فهنا لدينا حفرة وتراب - أو ما أخرجناه من الحفرة - إلى جنبها ومجموعهما يمثل لا شيء جديد، بمعنى لو أننا جمعنا التراب والحفرة مرة أخرى بصورة ما فسيعود الأمر كما كان لا شيء أو لنقل لا حفرة ولا كومة تراب أي العدم فقط، وفي هذه الصورة لم يأتِ للمعادلة شيء من الخارج ليقال إن هناك شيئية حقيقية وإنما دائماً كان لدينا العدم نفسه، ولكن هذا ليس عدماً مطلقاً لا شيئية فيه، فهذا العدم الذي نتكلم عنه هنا عبارة عن حفرة وكومة تراب تساويها تماماً فهناك شيء تقديري في هذا العدم، كذلك فإن هذا الشيء الذي يحمل عدمه معه لم يظهر من لا شيء بل هناك من تسبّب بظهوره وهو الشخص الذي حفر الحفرة أو القوة التي حفرتها.**" أحمد الحسن، وهم الالحاد ايات الربوبية في الكون، ص 564.

وعند تحليل العلاقة بين مبدأ السببية وهذه الأنواع الثلاثة من الاشياء، نجد أن السببية تتعلق فقط بممكن الوجود، أي كل شيء له بداية يحتاج إلى سبب، وهذا يقودنا إلى سؤال أساسي هل يمكن أن تمتد سلسلة الأسباب إلى ما لا نهاية؟!

وهنا تبرز لنا مشكلة عند القول بهذا الامر تدعى **التسلسل اللانهائي بالعلل**، حيث إن القول بأن كل شيء يحتاج إلى سبب دون التوقف عند نقطة أولى يؤدي إلى سلسلة غير منتهية من الأسباب، مما يجعل تفسير الوجود مستحيلاً. لذلك، لا بد أن تنتهي السلسلة عند **وجود ضروري أزلي**، وهو واجب الوجود، الذي لا يحتاج إلى سبب خارجي لأنه ليس حادثاً، بل هو أساس كل الموجودات. لتوضيح استحالة التسلسل اللانهائي في الأسباب او العلل الفاعلة، يمكننا استخدام المثال المشهور "**البندقية والرصاصة**"، والذي يوضح بطلان فكرة أن كل سبب يعتمد على سبب قبله إلى ما لا نهاية دون أن يكون هناك مسبب أول. تخيل معي أن هناك جندياً يريد إطلاق رصاصة من بندقيته، لكنه لا يستطيع فعل ذلك إلا بعد أن يحصل على إذن من قائده، وهذا القائد بدوره لا يستطيع إعطاء الإذن إلا إذا حصل عليه من قائد أعلى منه، وهكذا يستمر الأمر إلى ما لا نهاية، فإذا استمر هذا التسلسل بلا نهاية، فلن تطلق الرصاص أبداً، لأن كل قائد في السلسلة ينتظر إذناً من قائد اعلى منه رتبة، دون أن يكون هناك شخص أول يمنح الإذن او يضغط على الزناد. ولكن عندما نرى ان الرصاصة قد أطلقت فهذا يعني بالضرورة أنه لا بد أن السلسلة قد وصلت على فرد هو مصدر القرار **أي قائد أعلى لا يحتاج إلى إذن من أحد**. وبنفس الطريقة، إذا افترضنا أن كل شيء في الوجود يحتاج إلى سبب سبقه، وكان هذا التسلسل يمتد بلا نهاية، فلن يوجد أي شيء في الواقع، لأن كل سبب سيكون معتمداً على سبب قبله اوجده دون أن يكون هناك سبب أول تنتهي به السلسلة، ولكن بما أن الكون موجود فعلاً، فلا بد أن يكون هناك **سبب أول غير محتاج إلى سبب آخر**، هو من رجح او افاض الوجود على العالم، وهو ما نطلق عليه **بواجب الوجود**، أي الله، الذي هو أصل كل الأسباب ولا يحتاج الى سبب لان الوجود ذاته.

والامر الاخر عند افتراضنا ان لكل شيء سبب نقع بما يُعرف بـ **الدور (الدائرة المنطقية)**، وهو أحد التناقضات المنطقية التي يقع فيها التفكير، ويحدث الدور عندما يعتمد شيءٌ ما على شيءٍ آخر في وجوده، بينما يعتمد هذا الآخر بدوره على الأول، مما يؤدي إلى حلقة مغلقة لا تفسر أصل الوجود. ذلك يُشبه أن يقول الشخص: "**لن أذهب إلى العمل حتى أحصل على المال**" ثم يقول في الوقت ذاته: "**لن أحصل على المال حتى أذهب إلى العمل**" طيب هنا لن يحدث أيٌّ منهما، لأن كل منهما يعتمد على الآخر ليبدأ، فاذا كان الكون موجده الاله والاله بدوره اوجده الكون فهذا تناقض صارخ، ومستحيل عقلاً!!

إذن، إذا كان كل شيء يعتمد على سبب، والسبب بدوره يعتمد على سبب آخر، فإما أن نعود إلى نقطة سابقة في سلسلة الأسباب (**فنقع في الدور وهو باطل**)، أو نستمر إلى ما لا نهاية دون أن نصل إلى بداية حقيقية (**فنقع في التسلسل اللانهائي في العلل، وهو باطل أيضاً كما بينا**) [1]. لذلك، لا بد أن تنتهي السلسلة عند **سبب أول غير معلول بشيء قبله، وهو واجب الوجود، أي الله**، الذي لا يحتاج إلى سبب لأنه واجب الوجود بالذات لا بالغير وهو أصل كل الموجودات.

بناءً على ذلك، يمكننا استخلاص نتيجة واضحة: **مبدأ السببية ليس قانوناً مطلقًا يشمل كل شيء، بل هو مبدأ منطقي يقتصر على الأشياء الحادثة او الممكنة، بينما يستثنى واجب الوجود وممتنع الوجود من نطاق تطبيقه** [2]. لذا، فإن السؤال "من خلق الله؟" يُعد سؤالاً خاطئاً من الأساس، لأنه يفترض أن الله ممكن الوجود، في حين أن الله، هو واجب الوجود، أي أنه قائم بذاته ولا يحتاج إلى سبب لوجوده.

---

1. يلخص المحقق الطوسي برهان الصديقين بهذه الكلمات: "**الموجود إن كان واجباً وإلاَّ استلزمه لاستحالة الدور والتسلسل**" انظر شرح الإشارات للمحقّق الطوسي: 3 – 18، او تذكرة الأعيان، الشيخ السبحاني، ص 445. وشرح العلامة الحلي عبارة الطوسي: "أقول : **يريد إثبات واجب الوجود تعالى وبيان صفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز وبيان أفعاله وآثاره وابتدأ بإثبات وجوده لأنه الأصل في ذلك كله ، والدليل على وجوده أن نقول هنا موجود بالضرورة فإن كان واجبا فهو المطلوب ، وإن كان ممكنا افتقر إلى مؤثر موجود بالضرورة فذلك المؤثر إن كان واجبا فالمطلوب ، وإن كان ممكنا افتقر إلى مؤثر موجود فإن كان واجبا فالمطلوب وإن كان ممكنا تسلسل أو دار ، وقد تقدم بطلانهما وهذا برهان قاطع أشير إليه في الكتاب العزيز بقوله : (أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) (1) وهو استدلال لمي**." كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (تحقيق الآملي)، العلامة الحلي، ص 392.

2. ولهذا، فإن من يزعم أننا نؤسس حجتنا على مصادرةٍ بلا بيّنة، فقد أخطأ التقدير؛ فالحقيقة أن استدلالنا مؤسس على قاعدة عقلية صلبة، وسياق برهاني لا يُمكن دفعه إلا بإبطال العقل نفسه، ومن حاول الفرار من لوازمه، وقع في أحضان التناقض.

الكلام السـابق هو معروض منذ زمن والكثير من الفلاسـفة او العلماء قد تناوله، ولكن للأسف نجد بعض العلماء من المتخصصين في العلوم الطبيعية - كسـتيفن هوكينغ وبول ديفيز ومن تبعهم بهذا الادعاء - يطرحون إشـكالية "أزلية الكون بدلاً من الخالق"، بدا لي أن الطرح الذي قدّمته سابقاً، وإن كان قائماً على براهين عقلية متينة، قد يكون عسـير الفهم عليهم. والسـبب في ذلك راجع إلى طبيعة تخصّصهم الذي يغلب عليه الحس التجريبي والمادي، ويبتعد عن المباحث العقلية التجريدية والأنطولوجية (الوجودية). وهذا لا يُعدّ نقصـاً في كفاءتهم العلمية - فليس من شـرط العالم أن يُحيط بكل فروع المعرفة - وإنما الإشـكال يكمن في تجاوزهم لتخصـصـهم وطرحهم افتراضـات فلسـفية ميتافيزيقية مبنية على مغالطات فكرية واضـحة، وتقديمها للناس كأنها أطروحة نقض متكاملة!

ومن أبرز هذه الافتراضـات: "لماذا لا يكون الكون هو الأزلي، بدلاً من افتراض خالق أزلي؟" وهي شـبهة تتكرّر كثيراً في الفكر الإلحادي المعاصـر، لكنّها - في جوهرها - مغالطة منطقية تنبع من عدم التمييز بين طبيعة الكون وطبيعة الخالق. فبعبارة مبسـطة: الكون لم يكن موجوداً ثم وُجد بإقرار نفس أصـحاب هذا الادعاء، أي أن وجوده حادث، متغير، محدود، خاضع للزمان والمكان والطاقة، وكل هذه صـفات تدل على أنه مخلوق. أما الخالق، فبطبيعته أزلي واجب الوجود، غير مقيد بالزمان، ولا يحتاج إلى علة تُوجده لأنه ليس حادثاً حتى يُطلب له محدث. هذه حقيقة فلسـفية قائمة على قاعدة او مبدا السـببية "**كل حادث له مُحدث، وليس كل موجود له موجد**"، وهذا المبدأ كما اتضـح سابقا انه مبدا لا غنى عنه في العلوم العقلية او التجريبية.

ولتقريب الفكرة بمثال عملي: تأمّل معي سـباقٍ للخيول، حيث اصـطف المتسـابقون عند خط الانطلاق، وانطلقوا بأقصـى سـرعتهم وسـط انظار الجماهير وتصفيقهم الحار. وما هي إلا دقائق حتى وصل أحد الفرسان إلى خط النهاية متقدماً على الجميع، فأُعلن اسـمه باعتباره الفائز بالمركز الأول. وبينما كان الحاضـرون يباركون لصـاحب الحصـان ويمتدحون سـرعته وقوته، سـأل أحد المتفرجين سـؤالاً غريباً: "**ومن الذي سـبق هذا الفارس ليحتل المركز الأول؟!**" نظر إليه الناس بدهشة، ثم قال أحدهم بابتسامة ساخرة: "**يا عزيزي، هو الأول،**

لا أحد سبقه!". فالسؤال في ظاهره بريء، لكنه في الحقيقة باطل في بنيته المنطقية، لأنه يفترض وجود من سبق الأول، وهذا تناقض في المفهوم؛ إذ إن الأول لا يُسبق، ولو سُبق لما كان أولاً. وكذلك تماماً، حين يُقال: "من خلق الله؟"، فإن السؤال يُسقِط صفات المخلوق على الخالق، ويغفل أن الله أزلي لا بداية له، ووجوده واجبٌ غير حادث. فكما لا يُسأل عن من سبق الفائز الأول، لا يُسأل عن خالقٍ للخالق، لأنه ببساطة: هو نقطة البداية، والأول الذي لا يُسبق.

أستغرب واقف متعجباً من الكيل بمكيالين عند الملاحدة، فهم كانوا يعتقدون أن الكون أو الطاقة أزليان، أي أنهما غير مخلوقين، او قل هما بمثابة واجب الوجود عند مذهب الالوهية، ولكن في الوقت ذاته يستنكرون فكرة ان السبب الأول هو واجب الوجود!!

🔷 الطاقة [1] لا تفنى ولا تُستحدث

يقول البعض: بما ان قانون حفظ الطاقة ينص على ان الطاقة لا تنفى ولا تستحدث من العدم، ويُجادل أصحاب هذا القول بأن الأزلية المنسوبة للطاقة تُلغي الضرورة الفلسفية لوجود مُسبِّب أول (الإله)، لأن الطاقة -في منظورهم- تُشكل سبباً كافياً لوجود الكون.

الجواب:

تعتبر عبارة "الطاقة لا تُفنى ولا تُستحدث" أحد المبادئ الأساسية في الفيزياء الكلاسيكية، وهي مسلمة علمية لا جدال فيها في الأوساط العلمية. لكن الإشكال يكمن في إساءة استخدام هذا القانون في بعض السياقات الإلحادية، حيث يُستدل به على أزلية الطاقة او الكون، وبالتالي على انتفاء الحاجة إلى وجود خالق. والجدير بالذكر أن هذا الاستدلال نادر جداً في الأوساط العلمية أو الفلسفية، إذ يدرك المتخصصون حدود هذا القانون ومجالات تطبيقه، لكن بعض من يفتقرون إلى الفهم الدقيق لتفاصيله قد يستشهدون به لإثبات أزلية الطاقة.

يعرف هذا القانون في الأوساط العلمية **بقانون حفظ الطاقة** او القانون الأول في الديناميكا الحرارية "الثرموديناميك" [2]، ويعرف هذا القانون حسب ساينس دايركت (ScienceDirect) [3]:

"conservation of energy Physics. A fundamental law of physics and chemistry stating that the total energy of an isolated system is constant despite internal changes. It is most commonly

1. الطاقة "من منطلق الفيزياء: قدرة جسم أو نسق جهاز على إنتاج عمل ميكانيكي (ناتج قوة من خلال إزاحتها)، إنها كمية فيزيائية تخضع لقوانين التحول والحفاظ على الطاقة." قاموس الفلسفة، الجزء الأول، مجموعة مؤلفين غربيين، ترجمة لطفي السيد منصور، دار الرافدين، الطبعة الأولى. ص 399.

2. تنبيه: يُعدّ قانون حفظ الطاقة مبدأ عاماً في الفيزياء، وينصّ على أن الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث، بل تتحول من شكل إلى آخر. أما القانون الأول في الديناميكا الحرارية، فهو تطبيق خاص لهذا المبدأ على الأنظمة الحرارية، حيث يعبّر عن العلاقة بين التغير في الطاقة الداخلية للنظام والحرارة المضافة إليه والشغل المبذول منه. لذا، لا ينبغي الخلط بين القانونين. فالأول مبدأ شامل، بينما الثاني صياغة خاصة به ضمن علم الديناميكا الحرارية.

3. ساينس دايركت (ScienceDirect) هي منصة إلكترونية تابعة لشركة إلسيفير (elsevier)، توفر أبحاثاً ومقالات علمية رصينة في مختلف المجالات مثل الفيزياء، الهندسة، والطب.

expressed as “energy can neither be created nor destroyed”, and is the basis of the first law of thermodynamics." [1]

ترجمة: حفظ الطاقة في الفيزياء هو قانون أســاســي من قوانين الفيزياء والكيمياء ينص على أن الطاقة الكلية لنظام معزول تظل ثابتة على الرغم من التغيرات الداخلية. يُعبر عن هذا القانون غالباً بالعبارة "لا يمكن خلق الطاقة أو تدميرها"، وهو أساس القانون الأول للديناميكا الحرارية.

وفيما يلي، ســنوضـح من خلال عدة نقاط عدم صـحة الطرح القائل بأزلية الطاقة:

اولاً: محـدوديـة نطاق القوانين الفيزيـائيـة، نعم هـذه القوانين كما نعرفها اليوم تمثل الإطار الذي يحكم ويقوم الكون منذ اللحظات الأولى ما بعد الانفجار العظيم وحتى الآن، لكنها تظل مُقيدة بحدود الزمان والمكان الذي نشــأت فيه، فوفقاً للنموذج الكوني السائد، لم تكن مفاهيم مثل الزمن والمادة والطاقة ذات معنى قبل تلك اللحظة التأســيســية أي ما قبل الانفجار، مما يجعل القوانين الفيزيائية - بما فيها قانون حفظ الطاقة وقوانين الديناميكا الحرارية - عاجزة عن وصف "ما قبل البداية" أو تفسيرها، وقد ذكرت أقوال العلماء بهذا الخصوص ســابقاً، ولكن لا بئس بذكر قول الفيزيائي الشــهير بول ديفيس "**إنَّ الانفجار الكبير هو أصــلُ المكان، بالإضــافة إلى المادَّة والطَّاقة، والأكثر أهمِّيَّة من ذلك هو إدراك أنَّه طِبقًا لهذه الصُّورة: لم يكن هُناك وُجُود لفراغٍ كائنٍ مِن قَبْل، هو الذي حَدَثَ فيه الانفجار الكبير**" [2]، حيث يؤكد على ان لا وجود للمادة او الطاقة قبل الانفجار العظيم بل لا وجود للفراغ او الزمكان الذي يحتوي هذه الطاقة او المادة، بل ان العلماء يُؤكدون على أن هذه القوانين تعمل وتطبق ضمن ثوابت فيزيائية أساسية، مثل ثابت بلانك وسرعة الضوء، والتي يُعتقد أنها تشكلت مع نشأة الزمكان نفسه، أي ان هذه القوانين لم تكن تعمل مباشــرة عند حدوث الانفجار بل بعد الانفجار بفترة يطلق عليها "زمن بلانك". وبالتالي، فإن محاولة تطبيقها على حالة "اللازمان" أو "اللامكان" التي يُفترض

1. ScienceDirect. (n.d.). Conservation of energy. Retrieved February 20, 2025, from https://www.sciencedirect.com/topics/engineering/conservation-of-energy

2 . Paul Davies ,The Last Three Minutes: Conjectures About the Ultimate Fate of the Universe ,BasicBooks, 1994, p24.

أنها ســـبقت الانفجار العظيم تُعد مصـــادرة على المطلوب، فمن يقول بأزلية الطاقة علية ان يثبت أولاً وبالدليل ان الطاقة او المادة موجودة قبل الانفجار العظيم، او ان يقدم دليلاً على ان هذه القوانين يمكن تطبيقها او عملها ما قبل الانفجار العظيم، وبعدها يستدل علينا بهذا القانون.

ثانياً: من يذهب إلى القول بأزلية الطاقة، يقع على عاتقه عبء إثبات أن هذه الطاقة تمتلك القدرة الفعلية على الخلق والإيجاد، إذ لا يكفي مجرد افتراض وجودها الأزلي دون تقديم تفسير مقنع لكيفية نشوء الكون المنظم والدقيق من خلالها. فنحن لا نتحدث عن طاقة عشـــوائية تتغير بين أشـــكالها المختلفة، بل عن كيان كوني هائل تحكمه قوانين فيزيائية وثوابت دقيقة تضـــمن انســـجامه واســـتقراره، مما يشـــير إلى وجود نظام هادف يتجاوز مجرد التحولات الطاقية العشوائية. فالطاقة، وفق ما نعرفه علمياً، ليست كياناً عاقلاً ولا تمتلك إرادة أو قدرة ذاتية على الإبداع والخلق، بل هي خاصـــية مرتبطة بالمادة تخضع لقوانين محددة تتحكم في تحولاتها، وحتى إذا سُلِّم بوجودها الأزلي، فإن ذلك لا يفســـر لماذا وُجد الكون بهذه الصـــورة المنتظمة، ولا كيف نشـــأت القوانين التي تنظمه وتمنحه تناســـقه الداخلي. والعلماء قد بينوا إن القوانين الفيزيائية هي أدوات وصـــفية لظواهر معينة داخل الكون، فقانون حفظ الطاقة يقتصر على وصف كيفية انتقال الطاقة وتحولها داخل النظام، لكنه لا يفسر كيف جاء هذا النظام إلى الوجود أصلاً، ولا لماذا يتمتع الكون بهذا الضبط الدقيق الذي يسمح بوجود الحياة والظواهر الطبيعية المتناسقة. لذا، فإن الاستناد إلى أزلية الطاقة وحدها لا يشكل تفسيراً كافياً لأصل الوجود، بل ان الاعتماد على الطاقة كبديل عن المســـبب الأول هو مجرد تحايل لغوي لا يقوم على أي دليل عقلي او علمي بل الدليل قائم عكس ذلك علمياً وعقلياً.

ثالثاً: ان القول بأزلية الطاقة يعارض العلم، فأحد قوانين العلم الحديث قانون الثاني للديناميكا الحرارية وهو أحد المبادئ الأساسية التي تفسر سلوك الطاقة في الكون، إذ ينص على أن الإنتروبيا، وهي مقياس الفوضـــى أو عدم الانتظام في النظام، تزداد مع مرور الزمن في الأنظمة المغلقة، مما يؤدي إلى توجه هذه الأنظمة نحو حالة من التوازن الحراري تعرف بالموت الحراري حيث تتوقف كل التفاعلات على جميع الأصـــعدة. فإذا كانت الطاقة موجودة منذ

الأزل، لكان الكون قد بلغ هذه الحالة منذ البداية، ولم نرى فرق في درجات الحرارة أو تدرجات طاقية تسمح بحدوث أي تغيرات أو نشاطات في الكون، وهو ما يتناقض مع الواقع الذي نلاحظه اليوم من حركة وتطور مستمر، فباستمرار العمليات الطبيعية مثل التفاعلات الكيميائية، وتكون النجوم والمجرات، والنشاطات الجزيئية ينفي ازلية الطاقة، بل إن النظام الكوني بدأ من حالة أولية غير متوازنة سمحت بحدوث التحولات التي أدت إلى تنوع البنى والعمليات الكونية. بالتالي، فإن القانون الثاني للديناميكا الحرارية يُظهر أن فكرة أزلية الطاقة التي يطرحها الملاحدة اليوم لا يمكن أن تكون متوافقة مع العلم الحسي الذي يعتمدون عليه كمنهجية فكرية، فالعلم والظروف الكونية المُلاحظة تدعم وتؤيد أن الكون له بداية محددة زمنياً، وأن الطاقة تشكلت وتطورت ضمن إطار زمني ومكاني يسمحان بحدوث التغيرات التي أدت في النهاية إلى النظام الديناميكي الذي نعرفه اليوم.

رابعاً: ومن الناحية المنطقية، فإننا نعلم أن كل كيان متغير هو حادث "غير أزلي" بالضرورة، إذ إن الثبات المطلق سمة حصرية للكيانات الأزلية التي لا تتأثر بالتحول أو التبدل، وفي المقابل فان صفة التحول او التغير هي من ملازمة للكيانات الغير ازلية [1]، بل هي دليل على انه ليست ازلي. فالأزلي – بحكم تعريفه – يستعصي على التحول او التغير. وبالنظر إلى الطاقة نجد أنها في حالة مستمرة من التحول بين أشكالها المتنوعة (كالحركية والحرارية ووغيرها)، وهو ما يؤكده قانون حفظ الطاقة نفسه؛ إذ يُظهر أن الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث، لكنها تتحول من شكل إلى آخر باستمرار، وهذا التحول الملازم لها – وإن حفظ كميتها – يناقض القول بأزليتها، لأن الأزلية تفترض ثبات الصفة والهوية دون تبدل. فلو كانت الطاقة أزلية لاستحال تغيرها، لكن الواقع العلمي يُثبت أن جميع مكونات الكون – بما فيها الطاقة – تخضع لتحولات دائمة في شكلها ووظيفتها، وهو ما يتعارض مع مفهوم الثبات الأزلي. وعليه، فإن

1. التغير يشير إلى أن الشيء ليس أزلياً، لأنه يستلزم مرور الزمن لحدوثه، كما في الانتقال من حالة إلى أخرى. في المقابل الأزلية تعني الثبات خارج إطار الزمن، بلا بداية أو نهاية. ويمكن تحليل العلاقة بينهما فلسفياً من أربعة جوانب: أولاً، ارتباط التغير بالزمن، إذ يستلزم تعاقب الحالات البداية الزمنية. ثانياً، ثبات الأزلية كحالة غير متغيرة وفق الأطروحات الفلسفية. ثالثاً، خضوع التغير لمبدأ السببية، مما يعني أن وجود نقطة بداية لكائن او حالة ما ينفي الأزلية. رابعاً، استحالة الجمع بين التغير والازلية، في حين ان التغير يتطلب تعدد الحالات الزمنية، بينما الأزلية تتجاوز الزمن والسببية. وعليه، فإن التغير يدل على المحدودية الزمنية، ويتناقض منطقياً مع الثبات المطلق الذي تقتضيه الأزلية. وباختصار: ما يتغير لا يمكن أن يكون أزلياً.

تطبيق مبدأ "كل متغير حادث" يؤكد أن الطاقة — بحكم تحولاتها الدائمة — لا يمكن أن تُصـنف ككيان أزلي قادرٍ على البقاء دون تغيير. هكذا يتضـح أن فكرة أزلية الطاقة تتناقض مع طبيعتها المتحولة وقوانين الفيزياء ذاتها.

خامسـاً: من خلال القاعدة المنطقية التي تنص على ان "**فاقد الشـيء لا يُعطيه**"، فإن إرجاع نشـــأة النظم المعقدة في الكون إلى الطاقة وحدها يثير إشـــكالية جوهرية، فباعتبارها كياناً مادياً، تفتقر الطاقة بطبيعتها إلى الوعي، والتخطيط، والقدرة على تحقيق الغايات، فكيف يمكن لشـيء يفتقر إلى الذكاء والإرادة أن يُنتج نظاماً دقيقاً يتســـم بالضـــبط والإبداع؟ فالتحولات للطاقة لا تحمل في ذاتها مبدأ التنظيم والتوجيه، بل تخضـــع لقوانين فيزيائية ثابتة تحدد كيفية انتقالها وتبدلها بين أشكالها المختلفة. ومع ذلك، فإن الكون الذي نرصـــده ليس مجرد مزيج عشـــوائي من الطاقة والمادة، بل هو نظام متكامل تحكمه ثوابت دقيقة تجعل الحياة والوجود ممكنين، فلو كانت الطاقة وحدها كافية لتفسير هذا التعقيد، لكان ينبغي أن نشهد عشوائية مطلقة لا انسجاماً دقيقاً، أصـلا لماذا نرى الوجود بدلاً من العدم؟، ولكن الواقع يشـير إلى أن هناك مبدأ موجهاً يتجاوز الطاقة ذاتها، مبدأ يمتلك الوعي والقدرة على التخطيط، وهو ما يفســـر وجود القوانين الثابتة التي تحكم الكون، وتمنحه التماســـك والنظام بدلاً من الفوضى والعدم.

🔷 الاستغناء عن المُسبِّب الأول:

يقول ستيفن هوكينج: "مجموع الطاقة الكلية للكون صفر؛ فالطاقة السلبية للجاذبية تُلغي تماماً الطاقة الإيجابية للمادة"، فحسب هذا الكلام لم يدخل أي شيء للكون من الخارج، فلم يُفترض أنه احتاج إلى فاعل خارجي او خالق؟!

انقل جواب السيد أحمد الحسن في كتاب وهم الالحاد: "**مجموع الطاقة في الكون وكون من لا شيء:**

فيما تقدم عندما بحثنا في الطاقة المظلمة تبين كيف تمكن الفيزيائيون من البرهنة وبدرجة لا بأس بها من الثقة أن شكل الكون مسطح، وإذا كان الكون مسطحاً فعلى هذا الأساس يطرح بعض الفيزيائيين مثل د. لورانس كراوس أن مجموع الطاقة في كون مسطح تساوي صفراً والسبب: إن للجاذبية طاقة سالبة تواجه طاقة المادة الموجبة والكون المسطح طاقته الموجبة تكفي فقط للإفلات أي أن الطاقة الموجبة هي بالضبط تساوي الطاقة السالبة، وهكذا تكون الطاقة الكلية للكون تساوي صفراً، وكون طاقته الكلية تساوي صفراً يمكن أن يأتي من لا شيء بحسب لورانس كرواس والذين يلتزمون هذا الرأي، حيث لم تدخل للكون طاقة من خارجه وبالتالي فطاقة الكون ومادته إنما هي نتاج داخلي فقط والتفاوتات الكمومية في الفراغ تضمن ذلك بحسب مبدأ اللايقين وميكانيك الكم.

وهكذا تكون التفاوتات الكمومية قد أوجدت الكون من لا شيء، فلا يوجد تدخل في الكون من خارجه؛ لأنه ليس بحاجة لهذا التدخل، فالكون بدأ نفسه بنفسه بواسطة التفاوتات الكمومية للفراغ التي لا يخلو منها الفراغ بحسب ميكانيك الكم، وهكذا فلا داعي لفرض وجود إله ابتدأ الكون من خارجه، وهذا كله بغض النظر عن الفضاء الذي تحدث فيه التفاوتات الكمية للفراغ حيث إنه نفسه يحتاج لتفسير مهما كان متناهياً في الصغر وقد ناقشنا هذا الأمر سابقاً.

إذن، فما لدينا هنا هو فضـــاء وتفاوتات كمومية تظهر فيه بحســـب قوانين ميكانيك الكم أو بالخصوص مبدأ الريبة أو اللايقين، وهنا لابد من الانتباه إلى أن مبدأ اللايقين يقول إنه لابد أن تكون هناك تفاوتات كمومية في الفضـــاء ولكنه لا يعلل وجودها، فعلة وســـبب ظهور هذه التفاوتات تبقى مجهولة وميكانيك الكم هنا يتنازل عن التعليل بإلغاء مبدأ السببية المضطرد في كل الأحداث داخل الكون على مستوى أكبر من المستوى الكمي، فالسببية مبدأ لم يتخلف في حادثة كونية واحدة فكيف يفرض تخلفه هنا؟! لماذا لا تكون قدراتنا - وهي قطعاً غير مطلقة - لا تؤهلنا لإيجاد السبب؟

أعتقد أن إلغاء الســـببية يمثل هروباً من الحل وليس حلاً، ونحن ببســـاطة يمكننا المحاججة بما طرحه هيو افرت وهو وجود أكوان أخرى يمكن أن يؤثر بعضـها ببعض، وبهذا تكون التفاوتات الكمومية عبارة عن آثار من كون مجاور لكوننا أو عابرة للأكوان.

أما كون الطاقة الكلية للكون تســـاوي صـــفراً أو مجموع القوى فيه تساوي صفراً، فهذا لا يعني بحال نفي وجود الإله، هم يريدون القول: إنه لا يوجد شيء دخل للكون من الخارج فلماذا نحتاج فرض وجود الإله، ولكن من قال: إنه يجب أن يدخل شـــيء من الخارج للكون لنتمكن من فرض وجود إله أو لنحتاج فرض وجود إله، هذا الأمر قيد الاثبات والدليل وقد بينت الأدلة العلمية على ذلك ومنها ضبط الثابت الكوني.

وبالنسبة لي شخصياً أقول: إنه لا يجوز أصلاً أن يدخل شيء من خارج الأكوان إليها ويجب أن تكون مجموع القوى فيها يساوي صفراً؛ لأن الوجود المخلوق ككل يجب أن لا يكون شـــيئاً آخر غير العدم نفســـه، فلو كان الوجود المخلوق ككل ليس عدماً لكانت له مقابلة مع الذات الإلهية ولوقعنا في أكبر إشـكال فلسـفي كلامي ممتنع على الحل وهو: أين هو الوجود المخلوق من الإلـه؟ أو هل أن الخلق خلقوا في الذات أو خارج الذات؟ أو يمكن أن نضع السؤال أيضاً بهذه الصيغة: هل أن الإله داخل في الخلق أو أنه خارج عنهم؟

فلو لم يكن الوجود المخلوق ككل مجرد عدم لكان أي جواب يلزم منه أحد أمرين: إما أن الإله حادث، أو أن الوجود المخلوق قديم، وهذا يعني إما نقض ألوهيته المطلقة أو نفي وحدانيته سبحانه وتعالى.

ومع أن القول: إن الله لا داخل في الأشـياء ولا خارج عنها أو أن الخلق ليسـوا في الذات ولا خارج الذات لا يعتبر جواباً، بل هو فقط إنكار لكلا الجوابين المتقدمين، ولكنه أفضـل في كل حال من الجوابين المتقدمين وما يلزم منهما من نقض ألوهيته ووحدانيته سبحانه وتعالى.

الحقيقة، إن وجود الخلق هو مجرد وجود اعتباري في مقابل وجود الله الحقيقي وحالنا كحال التفاوتات الكمية في الفضاء والتي تعج بها أجسامنا، فنحن في مقابله سبحانه وتعالى مجرد أعدام؛ لأننا أصلاً لم نخرج من العدم، إنما نحن في العدم ونحمل عدمنا معنا، فحقاً لا يوجد سواه سبحانه ربما يصعب على بعض المتدينين فهم هذه العبارات والتي عرضت برهانها العلمي قبل أن أطلقها، ولكن هناك كثير من الحقائق العلمية المبرهنة يصعب فهمها كميكانيك الكم والنسبية العامة، فهل من السهل فهم واستيعاب أن الكتروناً واحداً وهو جسيم مادي يدخل من شقين في صفحة واحدة في نفس الوقت، أم هل من السهل فهم أن الزمان بعد كوني رابع كأبعاد المكان الثلاثة وأن كتلة

الدليل الثاني: برهان النظم او النظام [1]

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّـهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ" [2]

(الأثر دال على المؤثر وصفة الأثر دال على صفة المؤثر)

برهان النظم يُعد من أقدم وأقوى البراهين العقلية لإثبات وجود الله، لأنه ينطلق من العالم المحسوس والواقع الخارجي فيكون أقرب الى الذين لا يقتنعون بالأمور الغيبية او العقلية الخالصة، ويعتمد هذا البرهان على ملاحظة النظام والدقة في الكون، ويستنتج أن هذا النظام لا يمكن أن يكون نتاج الصدفة، بل هو دليل على وجود مدبر ومصمم حكيم قد اوجد هذا النظام والتناغم في هذا العالم من اجل هدف وغاية، ويذكر ذلك الدكتور الملحد ريتشارد دوكينز [3] عند كلامه عن الأنظمة الحية قائلا "**تبدو وكأنها مصممة لغاية معينة**"، ودوكينز من المروجين للإلحاد بل قل - من انبياء الالحاد اليوم - يعترف ويقر ان هناك هدف او تصميم، ولكنه وفرقة الملحدين يلتفون على هذا النداء الصادر من مخلوقات الله ويشتته بطرحه ان النظام ما هو الا وهم ولا حقيقة له.

وقد يشتبه البعض ممن ليس لديهم اطلاع في هذا المبحث، ويظن ان هذا الدليل مبني على كلام علماء الدين او المتدينين فقط، لا قطعا؛ كثير من العلماء الماديين بل حتى الملحدين يقرون بان حجة التصميم الذكي هي نظرية علمية مبنية على ادلة ثابتة، بل ان الملحد الشهير السابق، **أنتوني فلو** [4]، الذي كان يُعتبر من أبرز المدافعين عن الإلحاد خلال القرن العشرين

---

1. يُعرف هذا الدليل في الأدبيات الإسلامية والفلسفية بعدة أسماء منها "دليل العناية" (كما أشار إليه ابن رشد)، أو "دليل الغائية" (كما أشار اليه توما الاكويني)، أو "دليل الضبط الدقيق". وهو يستند إلى فكرة أن النظام الدقيق والغاية الواضحة في الكون تدل على وجود خالق حكيم يدبر امر العالم. وفي العصر الحديث تبنى بعض العلماء المنحازون للمادة أو الطبيعة فكرة مشابهة تحت مسمى "دليل التصميم الذكي" فهم يرون أن التعقيد والنظام في الكون لا يمكن تفسيرهما إلا بوجود مصمم ذكي. وعلى الرغم من اختلاف التسميات والتفاصيل، فإن الفكرة الأساسية تبقى واحدة، وهي أن الكون المنظم والدقيق يشير إلى وجود خالق حكيم خلق فاحكم خلقه ونظمه.

2. العنكبوت:20

3. ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins): عالم أحياء تطوري وكاتب بريطاني وُلد عام 1941م، اشتهر بكتابه الجين الأناني (The Selfish Gene)، حيث قدم فيه مفهوم "الميمات" كمواز ثقافي للجينات. يُعد من أبرز دعاة الإلحاد في العصر الحديث، ووجهاً بارزاً في حركة "الإلحاد الجديد". وأيضا من أشهر كتبه وهم الإله (The God Delusion)، الذي هاجم فيه فكرة الإيمان بالله من منظور علمي وعقلي، مثيراً جدلاً واسعاً بين العلماء والفلاسفة.

4. أنتوني فلو (Antony Flew): فيلسوف بريطاني (1923–2010)، كان من أبرز فلاسفة الإلحاد في القرن العشرين، وعُرف بدفاعه عن الفكر الإلحادي لعقود. لكنه أثار جدلاً واسعاً في أواخر حياته حين أعلن تحوله إلى الإيمان بوجود "إله" استناداً إلى معطيات العلم، خاصة في مجالات الضبط الدقيق وتعقيد الحياة. شرح موقفه الجديد في كتابه هناك إله (There is a God)، مؤكداً أن العقل قاده إلى هذا التحول، لا الدين الموروث.

تراجع عن الحاده لاحقاً وأعلن إيمانه بوجود خالق من خلال هذا الدليل، وجاء هذا التحول نتيجة تأمله في الأدلة العلمية الحديثة، خصوصاً نظرية التصميم الذكي، حيث رأى فلو أن التعقيد الهائل في قوانين الطبيعة، والتركيب الدقيق للكون، ونظام الحياة القائمة على المعلومات الوراثية في الحمض النووي (DNA)، هي أدلة قوية تشير إلى وجود مصمم ذكي ومقنن يقف خلف هذا النظام المتكامل، واعتبر هذه الأدلة من أبرز البراهين التي أقنعته بوجود هدف وغاية لحياتنا، وأيضا يذكر د. ستيفن ماير في كتابه التصميم الذكي ما نصه "**ان نظرية التصميم الذكي هي نظرية علمية مبنية على الأدلة، وتناقش اصل الحياة وتتحدى بشكل واضح الرؤيا المادية للتطور...**" [1]، وسترى أيها القارئ بأم عينك لا محيص لنا من قبول وجود المقنن والمصمم لهذا العالم من خلال ما سنطرحه من الأدلة في هذا البرهان ان اشاء الله.

هذا الدليل او الحجة معروف منذ زمن بعيد، في اليونان القديمة، قد طرح الفلاسفة أمثال **افلاطون** [2] **وشيشرون** [3] هذه الفكرة، وبعدها تناول علماء وفلاسفة الإسلام هذا الدليل بإسهاب، وركزوا على مسالة وجود المصمم، وبعضهم طرح اننا لا يمكننا ان نفهم العالم لو لم يكن مصنوع من خلال قوة عاقلة، وانتقل بدوره الى الغربيين ولاقى رواج كبير لدى المجتمع الغربي وممن اعتمده من فلاسفة اليهود **موسى بن ميمون** [4]، ومن فلاسفة المسحيين **توما الاكويني** [5]، وانتقل بدوره الى علماء الطبيعة في ذلك الوقت، فنجد **نيوتن** مغرم بهذه الفكرة، فعند حديثه عن تمركز الكواكب الدقيق في مدارتها يقول: "**على الرغم من إمكانية ثبات واستمرارية هذه الاجسام في مدارتها**

---

1. انظر التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ص13.

2. أفلاطون (Plato): فيلسوف يوناني (حوالي 427–347 ق.م)، يُعد من اوال فلاسفة التاريخ وأبرز تلامذة سقراط، وأستاذ أرسطو. أسّس أكاديمية أثينا، أول مؤسسة تعليمية فلسفية في الغرب. اشتهر بنظريته في عالم المثل، التي تفترض وجود حقائق ثابتة غير مادية وراء الواقع الحسي، كما ناقش مفاهيم النفس والعدالة والمعرفة والخير. كانت فلسفته ذات أثر عميق في الفكر الإسلامي والمسيحي والفلسفة الغربية عموماً.

3. شيشرون (Cicero): خطيب وفيلسوف وسياسي روماني (106–43 ق.م)، يُعد من أبرز مفكري روما القديمة. نقل الفلسفة اليونانية إلى الثقافة اللاتينية، وكتب في الأخلاق، والسياسة، والبلاغة. دافع عن القيم الجمهورية، وهاجم الاستبداد، وكان لمؤلفاته تأثير كبير في الفلسفة الغربية والنهضة الأوروبية، خاصة من خلال دفاعه عن القانون الطبيعي والعدالة العقلية.

4. موسى بن ميمون (Moses Maimonides): فيلسوف وطبيب وفقيه يهودي أندلسي (1135–1204)، وُلد في قرطبة بالأندلس، واشتهر بلقبه "رامبام". هاجر إلى المغرب ثم مصر، حيث أصبح طبيباً لبلاط صلاح الدين الأيوبي. من أبرز كتبه دلالة الحائرين، الذي حاول فيه التوفيق بين الفلسفة اليونانية (خاصة أرسطو) والتقاليد الدينية اليهودية. كان لفكره تأثير في الفلسفة الإسلامية واليهودية والمسيحية.

5. توما الأكويني (Thomas Aquinas): فيلسوف ولاهوتي كاثوليكي إيطالي (1225–1274)، يُعد من مفكري العصور الوسطى. حاول التوفيق بين الإيمان والعقل، ودمج بين الفلسفة الأرسطية والعقيدة المسيحية. من أشهر أعماله الخلاصة اللاهوتية، حيث قدّم فيه "الطرق الخمس" لإثبات وجود الله، ومنها دليل الحركة والعلية. ترك أثراً بالغاً في الفكر المسيحي والفلسفة المدرسية، ويُعد رمزاً للفلسفة العقلانية الدينية في الغرب.

بمجرد خضـــوعها لقوانين الجاذبية، الا ان هذه الاجســـام ومنذ البداية لا يمكن لها ان تكون قد اشـــتقت انتظام مواضـــعها في هذه المدارات من تلك القوانين؛ ولذلك، فان هذا الابداع المطلق الذي يتجلى في نظام الشمس والكواكب والمذنبات لا يمكن ان يستمر الا بتوجيه وسلطان كائن ذكي عظيم القوة". [1] وفي نهاية القرن الثامن عشـــر جاء احد الفلاســـفة ويدعى **ديفيد هيوم** وقدم بعض الإشكالات على هذه الحجة مما ابدى الشك والقلق في الأوساط العلمية والفلسفية في ذلك الوقت، حول ما طرحه هيوم، وجاءت ردود كثيرة على إشـــكالات هيوم من فلاســـفة وعلماء بجميع الاختصاصات، ولكن عند مجيء نظرية التطور على يد العالم البريطاني **شارلز داروين** تغيرت الأمور بصـــورة كبيرة، وكادت تكون القشـــة التي قســـمت ظهر البعير، بســـبب ان نظرية التطور نظرية علمية ثابتة بالكثير من الأدلة، ولم تكن آنذاك الردود على هذه النظرية من انصار حجة التصميم او من المتدينين ذات قيمة علمية، اما في يومنا هذا اصـــبحت الأمور مختلفة تماما مع المعجزة العلمية التي قدمها الســـيد أحمد الحســـن في كتابه وهم الالحاد، حيث قلب الطاولة على من ينكر وجود التصـــميم بالأدلة العلمية ومن نفس النظريات العلمية، واثبت ان نظرية التطور اليوم هي من اهم الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى.

وهذا البرهان او الدليل لا يثبت وجود الله فقط بل يثبت بعض صفات الله ســـبحانه وتعالى، فهو من جهة الأثر دال على المؤثر، أي ان الأثر او الخلق دال على وجود خالقه، وأيضـــا ثبوت بعض صـــفات الله ســـبحانه وتعالى من جهة صفة الأثر دالة على صفة المؤثر، أي ان هذه المخلوقات او الاثار عندما اتصفت بصفات فلا بد ان خالقها يمتلك هذه الصفات لان فاقد الشيء لا يعطيه.

يعتمد برهان النظام على الفكرة القائلة بأن وجود نظام دقيق او تصـــميم ذكي في الكون، ووجود غايات واضـــحة في اجزاء الكون، لا يمكن تفســـيرها إلا بوجود مصـــمم واع وهادف لهذ الكون، وهذا ما أشـــار اليه الفيلســـوف الإنجليزي ويليام بيلي في كتابه"Natural Theology" [2] إذا عثرت على ساعة في صحراء

1. انظر التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ص16.

2. "لنفترض أنني أثناء عبور مرج حطت قدمي على قطعة حجر، وسُئلت كيف وصل الحجر إلى هنا، لعلي سأجيب بأنه لو لم أعلم خلاف ذلك فإنه يقبع هناك منذ الأبد. ولعله قد لا يكون من السهل جدا اظهار سخف هذه الاجابة. ولكن لنفرض إني وجدت ساعة على الارض وانه ينبغي

او أي مكان اخر، لا بد أن تفترض وجود صانع صنعها، لأنها تُظهر تصميماً وغاية، ونفس التفكير والطريقة عندما ننظر إلى الكون، نجد أنه يُظهر تصـميماً أعظم من الساعة وعملها مما يستلزم وجود خالق أعظم اوجده وقننه. ويقول أليستر مكجراث [1] "يَحتجُّ "بيليـه" **بـأنـه لن يَقتَرح أحـد عـاقـل أن التكنولوجيـا الميكانيكية المعقدة جاءت إلى الوجود بفعل صـدفة غير مُخطط لها، فالميكانيكية تَفترض مُسـبقاً الاختراع. وهذا يعني وجود كلا من الهدف والقدرة على التصميم والتصنيع**" [2]

مصطلحات البرهان:

النظم:

لغة: "النون والظاء والميم أصـل يدل على تأليف شـئ وتكثيفه. ونظمت الخرز نظمـا ونظمـت الشـعر وغيره. والنظـام الخيط يجمع الخرز."[3] "النَّظْمُ: **التَّأْلِيفُ وَضَـمُّ شَـئٍ إلى شـئٍ آخَرَ، وكُلُّ شَـئ قَرنْتَه بِآخَرَ فقد نَظَمْتَه**. والنَّظْمُ: المَنْظُومُ بِاللُّؤْلُؤِ والخَرَز وَصْـفٌ بِالمَصْـدَر، يُقالُ: نَظْمٌ مِنْ لُؤْلُؤْ. والنَّظْمُ: الجَمَاعَةُ مِنَ الجَرَادِ." [4] "**نظم نظمت اللؤلؤ، أي جمعته في السلك والتنظيم مثله. ومنه نظمت الشعر ونظمته**". [5]

اصطلاحاً:

اختلفت تعاريف الفلاسفة لمفهوم "**النظم**" [6]، حيث قدم كل منهم تصوراً يعكس طبيعة النظم من زاوية خاصـة. فالبعض عرفه بأنه "**فالنظم مفهوم**

البحث عن كيفية وصول هذه الساعة لهذا المكان، فلا اظن إني سأفكر بنفس الاجابة التي اديلت بها مسبقا" – كتاب NATURAL THEOLOGY – William Paley – الفصل الأول – ص 2.

1. أليستر ماكجراث (Alister McGrath): عالم فيزياء حيوية ولاهوتي بريطاني، وأستاذ العلوم والدين في جامعة أكسفورد. حاصل على دكتوراه في الفيزياء الحيوية ودكتوراه أخرى في اللاهوت. يشتهر بكتاباته التي تدافع عن التوافق بين العلم والدين، وبنقده لـ "الإلحاد الجديد". من أبرز أعماله: "The Dawkins Delusion?" و"Science and Religion: A New Introduction". يُعتبر من أبرز المدافعين عن الإيمان المسيحي في مواجهة التحديات العلمية والفلسفية المعاصرة.

2. Alister McGrath: Dawkins' God (Genes, Memes, and the Meaning of Life), Blackwell Publishing 2004, p.63.

3. معجم مقاييس اللغة، ج 5، أحمد بن فارس بن زكريا (ابن فارس)، ص 443.

4. القاموس المحيط، ج 4، الفيروز آبادي، ص 181. تاج العروس، ج 17، مرتضى الزبيدي، ص 287.

5. الصحاح، ج 5، الجوهري، ص 321.

6. النظم في الفرنسية / Coordination في الانكليزية / Coordination النظم هو التأليف والترتيب والتنسيق، تقول: نظم الأشياء: ألّفها وضمّ بعضها إلى بعض، ونظم اللؤلؤ ونحوه: جعله في سلك واحد، ونظم المعاني: رتبها، وجعلها متناسبة العلاقات، متناسقة الدلالات، على وفق ما يقتضيه العقل، ومنه نظم النوعين في مرتبة واحدة من الجنس لاتصافهما بشمول واحد. والنظم الطبيعي "هو الانتقال من موضوع المطلوب

ناظر الى حالة الانسجام والتناسق بين عناصر متعددة او أجزاء لشيء واحد. ومفهوم النظم واضح المعنى يقابل في معناه الفوضى والهرج والمرج." [1] اما بالنسبة للفلسفة الغربية أيضا تناولت هذا المفهوم بتعاريف مختلفة، منهم من قال ان النظم هو عبارة عن التناسب او التناغم الهادف الذي يصنع نموذجا معينا او يعطي نتيجة محددة. ولكن بغض النظر عن الاختلافات في بيان هذا المفهوم، فهو من المفاهيم [2] الواضحة لدى كل شخص ولو كان بصورة اجمالية، فلو تأملنا في العالم من حولنا، لوجدنا أن كل شيء فيه يتشكل من مادة ما، وهذه المادة قابلة لأن تأخذ هيئات متعددة، تختلف باختلاف ترتيبها وتنظيمها، هذه الفكرة البسيطة تحمل في طياتها مفهوماً عميقاً، وهو مفهوم "**النظام**" أو "**الهدفية**" أو "**التقنين**"، فما هو النظام أو الهدفية أو الهدف؟ وكيف يمكننا أن نستشفه من خلال الأمثلة التي نعيشها يومياً؟ سأطرح بعض الأمثلة من حياتنا اليومية قبل الدخول في بيان هذا المفهوم.

لنفترض أن لدينا مواد بناء مختلفة مثل الطابوق والإسمنت والحديد والخشب، وتم ترتيب هذه المواد بشكل منظم ومدروس مع وضع خطة هندسية دقيقة، فإنها تشكل مبنى متكاملاً كبيت أو قصر او ما شابه، وهذا المبنى يحقق غاية وهي توفير مأوى آمن ومريح، أما إذا تم رميها بشكل عشوائي، فإنها تتحول إلى كومة من المواد غير المفيدة، لا تحقق أي غاية أو فائدة، وفي حالة ثالثة، إذا حاولنا بناء شيء بشكل غير مدروس وعشوائي دون أي معلومات هندسية او خبرة سابقة، فإن النتيجة تكون هيكلاً غير مستقر قد ينهار بسهولة، ولا يصلح لأي شيء، بل قد يشكل خطراً على المحيط الموجود فيه.

إلى الحد الأوسط، ثم منه إلى محموله حتى يلزم منه النتيجة، كما في الشكل الأول من الاشكال الأربعة". المعجم الفلسفي، ج 2، جميل صليبا، ص 480.

1. انظر تبيين براهين وجود الله، جوادي آملي، ترجمة محمد حسن زراقط، ص 186.

2. تنقسم المفاهيم إلى ثلاثة أنواع: المفاهيم الماهوية: تدل على ما له وجود مستقل في الخارج، كالماء والحيوان، أو ما يكون وجوده بغيره كالحرارة والبرودة، وهي أوائل المعقولات الكلية. والمفاهيم المنطقية: مفاهيم ذهنية بحتة، لا وجود لها في الخارج، مثل مفهوم الكل والجزء، وتستخدم في علم المنطق. والمفاهيم الفلسفية (الانتزاعية): تنتزع من التحليل العقلي للأمور الخارجية، كوصف الشيء بأنه متحرك أو ساكن أو ممكن، وهي مفاهيم ذهنية تنشأ من وجود موضوع خارجي، لكنها لا تكون وصفًا مباشرًا لوجود خارجي مستقل.

لننتقل الآن إلى مثال آخر: الحبر؛ كمادة يمكن أن يكون على الورقة بأشكال مختلفة، مثلا أن يُنثر بشكل عشوائي، أو أن يُكتب به نصٌ متماسك، أو أن يُرسم به لوحة فنية، ولكن عندما نكتب قصيدة من الشعر باستخدام هذا الحبر، فإننا نكون قد أعطينا للحبر هيئة خاصة تحمل معنى محدداً، هذه الهيئة - وهي ترتيب الحبر على شكل حروف وكلمات تعطي معنى او قيمة شعرية - هي هيئة محكمة، لأنها تحقق غاية معينة، وهي إيصال المعنى إلى القارئ، فلو قارنا هذا الترتيب بترتيب آخر مثل نثر الحبر بشكل عشوائي، لوجدنا أن الأخير لا يحقق أي معنى أو أثر مميز. إذن الفرق بين الترتيب المحكم والترتيب العشوائي يكمن في وجود غاية وأثر خاص في الأول، وغيابه في الثاني.

من خلال هذين المثالين يمكننا أن نستخلص تعريفاً للنظام، **فالنظام هو إحداث هيئة ذات أثر مميز في مادة تقبل هيئات متعددة**، ولكي يكون النظام أو الهدفية فعالاً لا بد من توفر ثلاثة عناصر أساسية:

- **المادة القابلة للتشكل**: وهي المادة التي يمكن أن تأخذ أكثر من هيئة، مثل الطابوق أو الحبر.

- **الهيئة المحددة**: وهي الترتيب أو الشكل الذي تأخذه المادة لتحقيق غاية معينة.

- **الأثر المميز**: وهو النتيجة أو الغاية التي تحققها الهيئة المحددة، والتي لا يمكن تحقيقها بغيرها من الهيئات.

ويعرف العالم **مايكل بيهي** [1] التصميم بانه "**التصميم هو ببساطة الترتيب الهادف للأجزاء.**" [2] او قل كما بين **دوغلاس آكس** [3] ان "**كل ما يتوقف فعله وانجازه على علم مسبق لا يمكن صدوره الا من عالم مدرك.**"

---

1. مايكل بيهي (Michael Behe): عالم أحياء وكاتب أمريكي، وُلد عام 1952، يُعد من أبرز مؤيدي نظرية التصميم الذكي. اشتهر بطرحه لمفهوم التعقيد غير القابل للاختزال في كتابه صندوق داروين الأسود، حيث جادل بأن بعض الأنظمة البيولوجية المعقدة لا يمكن أن تكون قد نشأت بالتطور التدريجي، بل تشير إلى وجود تصميم ذكي. يُعد من أبرز الأصوات المعارضة للتفسير الداروينى التقليدي لنشأة الحياة.

2 .Michael J. Behe: Darwin's Black Box, The Biochemical Challenge to Evolution, Free Press, New York 2006, p.193.

3. دوغلاس آكس (Douglas Axe): عالم أحياء جزيئية أمريكي، وُلد عام 1966، يُعرف بأبحاثه في مجال البروتينات، وبدفاعه عن نظرية التصميم الذكي. أبرز كتبه غير قابل للاختزال (Undeniable)، حيث يجادل بأن التصميم في الكائنات الحية واضح ومتفوق على التفسيرات التطورية العشوائية. عمل سابقًا في جامعة كامبريدج ومعهد بيولوجيا الاكتشاف (Biologic Institute)، ويُعد من الأصوات العلمية البارزة في نقد الداروينية من منظور تجريبي.

[1] الفكرة الأساسية في هذه العبارة تُعبر عن فكرة فلسفية وعقلانية مفادها أن أي فعل أو إنجاز يتطلب معرفة مُسبقة أو تخطيطاً مُسبقاً لا يُمكن أن يصدر إلا عن كائن واع ومُدرك، أي يمتلك القدرة على التفكير والتخطيط واتخاذ القرارات بناءً على هذه المعرفة وهذا امر بديهي كما بين ذلك آكس في كتابه. لفهم كلمات اكس السابقة، يمكننا تفكيكها ومعرفة المراد منها، يقول في البداية: "**كل ما يتوقف فعله وإنجازه على علم مسبق**" هذا الجزء يُشير إلى ان الأفعال والإنجازات التي لا تحدث بشكل عشوائي أو تلقائي [2]، بل تتطلب معرفة مُسبقة بالظروف المحيطة، أو تخطيطاً مُسبقاً للأهداف المطلوبة والوسائل اللازمة لتحقيقها. على سبيل المثال، بناء منزل يتطلب معرفة مُسبقة بمواد البناء، والتصميم الهندسي، والخطوات التنفيذية. كذلك، كتابة رواية تتطلب معرفة مُسبقة باللغة، وأساليب الكتابة، وبناء الشخصيات والأحداث. ويكمل عبارته بقوله: "**لا يمكن صدوره إلا من عالم مدرك**" وهذا الجزء يشير إلى أن المعرفة المسبقة المطلوبة لتحقيق أي فعل أو إنجاز لا يمكن أن تأتي إلا من مصدر واع ومدرك. بمعنى آخر يريد التأكيد على أن هذه الأفعال والإنجازات لا يُمكن أن تصدر عن شيء غير واع أو غير مُدرك، مثل الجمادات أو العمليات العشوائية، فالجماد لا يستطيع بناء منزل لأنه لا يمتلك المعرفة والتخطيط اللازمين، والعمليات العشوائية لا يُمكن أن تُنتج رواية متكاملة لأنها تفتقر إلى الهدف والتخطيط المسبق وهكذا هلم جرا. ويقتبس آكس مثال من مقال للمؤرخ اليوناني بلوتارخ ما نصه: "**لا أحد يبلل الطين مع الماء ويتركه، على افتراض انه بالصدفة ومن دون تدخل سيصبح طوباً، ولا أحد يأتي بالصوف والجلد ثم يجلس متمنياً ان تتحول بالصدفة إلى عباءة وحذاء**" [3].

وأيضا قد ذكر **جميل صليبا** [4] كلاما حول النظام لا بئس بذكره: النظام الترتيب أو الاتساق، يقال: نظام الأمر أي قوامه، وعماده، والنظام: الطريقة، يقال:

---

1. غير قابل للإنكار، كيف اكدت الأحياء فطرتنا بان الحياة مخلوقة؟، دوغلاس آكس، ترجمة ضرغام عبد الكريم الكيار، ص 26.

2. لا ندعي هنا أن الكون مصمم لمجرد الادعاء، بل سنُبين فيما بعد أننا نستطيع أن نُدرك وجود التنظيم في أي شيء بمُجرد النظر إليه، دون الحاجة لمُقارنته بأي شيء آخر.

3. غير قابل للإنكار، كيف اكدت الأحياء فطرتنا بان الحياة مخلوقة؟، دوغلاس آكس، ترجمة ضرغام عبد الكريم الكيار، ص 28.

4. جميل صليبا (1902–1976): فيلسوف ومفكر لبناني، وأحد أبرز المعجميين العرب في القرن العشرين. عُرف بترجماته ودراساته الفلسفية، وأشهر أعماله المعجم الفلسفي الذي يُعد من أوائل المعاجم العربية المتخصصة في المصطلحات الفلسفية. درّس في جامعات سورية ولبنان وفرنسا، وساهم في نقل الفكر الغربي إلى العربية بلغة دقيقة ومفهومة.

ما زال على نظام واحد، والنظام بالمعنى العام أحد مفاهيم العقل الأساسية، ويشمل الترتيب الزماني، والترتيب المكاني، والترتيب العددي، والسلاسل والعلل والقوانين، والغايات، والأجناس، والأنواع والأحوال الاجتماعية، والقيم الأخلاقية والجمالية، فالنظام في المنطق الرياضي هو الترتيب والاتساق بين الحدود. والنظام الطبيعي هو اطراد وقوع الحوادث وفقا لقوانين معينة، والنظام الاجتماعي مجموع القوانين التي ينبغي للأفراد ان يتقيدوا بها. [1]

الاستدلال على النظام والغاية دون الحاجة إلى المقارنة

قد يطرح سؤال حول كيفية الحكم على وجود نظام أو هدفية في الكون رغم أننا لم نرَ سوى كوننا الذي خلقنا فيه، وكيف نستنتج وجود غاية أو نظام محكم دون وجود أمثلة أخرى للمقارنة؟!!

للإجابة على هذا السؤال لنعود لمثال بناء المنزل: فعندما نرى منزلاً مُصمما بدقة، بجدران مستقيمة وأسقف متينة ونوافذ وأبواب متناسقة، حتى لو لم نرَ أي منزل آخر، فإننا نستطيع أن نستنتج بكل وضوح أن لهذا المنزل غاية وهدف، فهذا الاستنتاج لا يعتمد على مقارنات خارجية، بل على ملاحظة الترتيب والدقة في تصميمه فقط، بل إننا نلاحظ حتى الكائنات الحية الاخرى، كالطيور التي تبني أعشاشها أو الحيوانات التي تتخذ من الكهوف مأوى، تدرك الغاية من هذه الهياكل وتستخدمها لحماية نفسها من العوامل الخارجية.

وبالمثل، عندما ننظر إلى الكون، نرى ترتيباً دقيقاً في كل تفاصيله، فقوانين الفيزيائية التي تحكم كل شيء، من الذرة [2] إلى المجرة بدقة منقطعة النظير، فهذه الدقة المتناهية لا يمكن أن تكون نتيجة صدفة عمياء؛ بل تشير إلى وجود نظام محكم وهدفية واضحة، فكما أننا نستدل على وجود مهندس أو بناء عندما نرى منزلاً مُتقناً، فإننا نستطيع أن نستنتج وجود قوة عاقلة ومُخطِّطة وراء هذا الكون المنظم.

---

1. انظر المعجم الفلسفي، ج 2، جميل صليبا، ص 471.

2. الذرة atom: الوحدة الأساسية للمادة العادية، وتتكون من نواة دقيقة (تتألف من البروتونات والنيترونات) محاطة بإلكترونات تدور من حولها. تاريخ موجوز للزمن، ستيفن هوكينك، ص 158.

ويتطرق **مايكل بيهي** لهذا السؤال فيقول: "ثم تظهر المشكلة العلمية: كيف نكتشف التصميم على وجه اليقين؟ متى سيكون من المنطقي استنتاج (استنباط) أن شيئًا ما قد تم تصميمه - في غياب المعرفة المباشرة أو تفسيرات شاهد عيان؟ بالنسبة للأنظمة الفيزيائية المنفصلة (غير المترابطة) - إذا لم يوجد هناك مسار تدريجي لإنتاجها، **فالتصميم واضح عندما نجد أن عدداً من المكونات المنفصلة والمتفاعلة، منظمة بطريقة من شأنها القيام بوظيفة تفوق قدرة أجزاء المكونات منفردة. فكلما ازداد تخصص المكونات اللازمة للقيام بالوظيفة، كلما ازدادت ثقتنا في الاستنتاجات القائلة بوجود التصميم.**" [1]

بل حتى ريتشارد دوكينز بنفسه، الذي يُعتبر من أكبر الملاحدة اليوم، يوضح في كتابه "صانع الساعات الأعمى" أن التصميم يمكن إدراكه ببساطة من خلال ملاحظة الترتيب والتنظيم في الأشياء، حتى وإن كان التصميم غير مثالي، فهو يظل تصميماً ناتجاً عن مصمم حيث يقول: "قد نقول أنَّ جسداً أو عُضواً حيًّا قد تمّ تصميمه بعناية؛ لو أنَّه يتمتَّع بصفاتٍ تدلّنا على احتمال أن يكون قد كوَّنَه مُهندس ذكيّ، وواسع الاطلاع، لتحقيق غاية ملموسة، مثل الطَّيران والسِّباحة والرُّؤية ... فليس من الضَّروري أن نفترض أنَّ تصميمَ جسدٍ أو عضو يُعتبر أفضل ما يستطيع المُهندس تصوَّره. ... **ولكن يُمكن لأيّ مُهندس أن يتعرَّف على جسم مُعيَّن قد تمّ تصميمه، أو حتى كونه صُمِّمَ على نحو سيِّءٍ لتحقيق غاية، ويُمكنه تقدير ما هي الغاية بمُجرَّد النّظر إلى بِنْيَة هذا الجِسْم.**" [2].
و**جونسون** أكد أن وجود التصميم يظل واضحاً ومثبتاً، حتى لو كانت الغاية أو الهدف منه غير معروفة لنا، وهذا نص قوله: "**يُمكننا إدراك أنَّ شيئًا ما مُصَمَّم، حتى عندما لا نعرف الغرض من وُجُوده، إذا كان يُشبه الأشياء التي نصنعها للتَّعبير عن أغراضنا**". [3]

---

1 .Detecting design in patterns of coin flips or other systems that do not physically interact is done in other ways. See Dembski, W. (1996) The Design Inference: Eliminating Chance Through Small Probabilities, Ph.D. dissertation, University of Illinois. Cited in: Michael J. Behe: Darwin's Black Box, The Biochemical Challenge to Evolution, Free Press, New York 2006, p.194.

2 .Dawkins R. (1986). The Blind Watchmaker, Norton, New York, p21. Cited in: Michael J. Behe: Darwin's Black Box, The Biochemical Challenge to Evolution, Free Press, New York 2006, p264.

3 .B. C. Johnson, The Atheist Debater's Handbook (Buffalo: Prometheus Books, 1981), 45. Cited in: David Depew, "Intelligent Design and Irreducible Complexity: A Rejoinder," Rhetoric and Public Affairs 1, no. 4 (1998): 571–78. Cited in: Fazale Rana: The Cell's Design (How Chemistry Reveals the Creator's Artistry) (Kindle Locations 1206–1214). Baker Books. Kindle Edition.

إذن؛ النظام والهدفية ليســـا مجرد مفاهيم نظرية بل هما واقع ملموس نلاحظه في كل شـــيء من حولنا، من أبســـط الأمثلة كبناء المنزل، إلى أكثرها تعقيداً كتركيب الكون، هذه الملاحظات تســـمح لنا بالاســـتنتاج أن هناك غاية ونظاماً حتى لو لم نرَ سـوى مثال واحد لأن الدقة والترتيب هما أدلة كافية على وجود تصميم ذكي وهدف واضح، ومن يصر على إنكار ذلك، فإنما يجادل فيما لا يمكن إنكاره.

تنبيه: خصـائص المادة ليسـت فعلاً محكماً بحد ذاتها، مثل خفة الألمنيوم او ثقل الحديد او باقي خصـــائص المواد البقية، فالفعل المحكم يتجســـد في كيفية اسـتثمار هذه الخصـائص لتحقيق غاية معينة، مثل اسـتخدام الألمنيوم في صـــناعة الطائرة، فبرهان النظام يعتمد على ترتيب المادة باســـتخدام خصـائصـها لتحقيق أهداف خاصـة، مع وجود خيارات متعددة لاسـتخدام هذه الخصائص والقوانين بشكل مختلف.[1]

الصدفة[2]:

يعتبر مفهوما الصـــدفة والســـببية من أكثر المفاهيم الفلســـفية والعلمية التي أثارت جدلاً عبر العصور، فمفهوم الصدفة يُسـتخدم للإشـارة إلى أحداث أو ظواهر يبدو أنها تفتقر إلى تفسير سببي مباشر، بينما تعكس السببية العلاقة الجوهرية التي تربط الأحداث بنتائجها، ورغم أن الصـــدفة تبدو في ظاهرها وكأنها تنفي السـببية، فإن العديد من الفلاسـفة والعلماء قد أكدوا أن الصـدفة لا تعني غياب العلة، وإنما تشـــير غالباً إلى حدود معرفتنا أو تعقيد الظاهرة المدروسـة. في هذا السـياق، سـنسـتعرض العلاقة بين الصـدفة والسـببية من

1. وقد طرح بول ديفيز طرح مشـابه لهذه الامر بخصـوص التنظيم في كتابه أصـل الحياة "التنظيم Organization: ربما ليس التعقيد في ذاته هو الذي له معنى في الأمر. ولكن التعقيد المنظم، ومكونات أي نظام عضـوي لا بد أن تتعاون مع بعضـها البعض وإلا اسـتدعى النظام ككيان متماسـك. وعلى سـبيل المثال، فإن مجموعة من الشـرايين والأوردة لا تكون نافعة وحدها من دون قلب يضـخ فيها الدم. وزوج من السـاقين لن يعرف تقدماً في الحركة لو أن كلاً منهما تتحرك وحدها وفي اتجاه مغاير للأخرى. وحتى داخل الخلايا المســـتقلة، فإن درجة التعاون مذهلة. فالجزئيات لا تجري في حياتها هكذا بشـكل صدفي. **ولكنها تبدي نوعاً من أشـكال المصانع أو خطوط الإنتاج داخل مصنع مع مسـتوى عال من التخصص: قسم للعمالة، وقسم يدير هذه العملية لكي تتم عملية الإنشاء على وجه صحيح**." ص 51.

2. انظر الأسس المنطقية للاستقراء، السيد الشهيد محمد باقر الصدر – وفلسفتنا، السيد الشهيد محمد باقر الصدر – ودروس أصول الفقه/ البحث الخارج، السيد الشهيد محمد الصدر.

خلال رؤى فلسـفية وعلمية، مع التركيز على مفهوم الصـدفة كجزء من نظام كوني محكم.

المفهوم الفلسفي للصدفة: ويُطلق عليه اصطلاحاً "**الصدفة المطلقة**"، ويُقصد بالصدفة هنا أن تحدث حادثة دون أي سبب، وهذا أمر مستحيل عقلاً؛ لأن الحادث يحتاج إلى محدث يوجده، وإلا فإن وجوده يصبح واجباً بالذات، وهو ما يتناقض مع كونه حادثاً. وأيضاً لو جاز ان يأتي شيء بدون سبب نهائياً فهذا معناه ان العدم المطلق أنتج شيء وهذا محال، لان العدم لا شيئة فيه.

المفهوم العلمي للصدفة: ويُطلق عليه اصطلاحاً "الصدفة النسبية"، ويُقصد بالصدفة أن يقترن شيء بشيء آخر دون أن تكون بينهما علاقة علية أو تسبيب، الأمثلة على ذلك كثيرة كأن تتزامن مكالمة هاتفية تصلك مع مرور سيارة إسعاف أمام منزلك، في هذه الحالة لا توجد أي علاقة سببية بين مكالمتك الهاتفية ومرور سيارة الإسعاف، فكل منهما له سببه الخاص، وهذا التزامن مجرد صدفة نسبية.

الصدفة في السياق الفلسفي

يعتبر **ارسطو** [1] اول من طرح مفهوماً للصدفة في الفلسفة، فهو يرى أن الصدفة ليست خروجاً عن النظام السببي للعالم، بل هي حدث عرضي يحدث نتيجة لتقاطع سلسلتين من العلل. فعلى سبيل المثال، إذا خرج شخص من منزله ووجد كنزاً بالصدفة، فإن هذا الحدث كان نتيجة لسببين منفصلين: قرار الشخص بالخروج ووضع الكنز في ذلك المكان. وهذا نص قوله: "**إنَّه من الموجودات ما هو بالعرض، ومنها ما هو بالصناعة أو الفن، ومنها ما هو بالمصادفة، أي بالاتفاق والبخت.**" [2] فأرسطو يُبرز أن الصدفة لا تُنكر وجود العلة، لكنها تركز على الأحداث التي لا يمكن تفسيرها بغائية محددة. وهذا

1. أرسطو (Aristotle): فيلسوف وعالم يوناني (384–322 ق.م)، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. أسس مدرسة "اللوقيون"، وترك أثراً بالغاً في الفلسفة والمنطق والعلوم. وضع أسس المنطق الصوري، وكتب في الأخلاق والسياسة والميتافيزيقا والطبيعة. امتازت فلسفته بالنزعة العقلانية التجريبية، وشكلت مرجعية للفكرين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى.

2. انظر معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد، ص 265.

أيضا ما اشار اليه **أنطوان كورنو** [1] **"إن الأحداث التي تحصل باقتران أو التقاء أحداث أخرى تنتمي إلى سلاسل مستقلّة بعضها عن بعض هي الأحداث التي نسمّيها احداثا طارئة أو ناتجة عن الصدفة."** [2]

لكن **سبينوزا** ينفي وجود الصدفة المطلقة، موضحاً أن ما نراه على أنه صدفة ما هو إلا تعبير عن جهلنا بالقوانين الطبيعية والأسباب الضرورية. فهو يؤكد أن كل شيء يحدث ضمن نظام كوني محكم، قائلاً: **"ليست الصدفة غياب الضرورة، بل هي الجهل بها"**. [3] فعلى سبيل المثال، إذا وقع زلزال مفاجئ، فإن وصفه بأنه "صدفة" يعكس فقط افتقارنا إلى المعرفة الدقيقة بالظروف الجيولوجية التي أدت إلى حدوثه. وهذا ما أكده **بوانكاريه** [4] **"ليست الصدفة إلا مقياساً لجهلنا."** [5]

يضيف **برغسون** [6] بُعداً غائياً لمفهوم الصدفة، حيث يرى أنها قد تكون جزءاً من آلية أكبر تهدف إلى تحقيق غايات محددة. من وجهة نظره، الصدفة هي تعبير عن منظورنا البشري المحدود للأحداث، وليست انقطاعاً في سلسلة العلل. قائلاً **"لنفرض أن أجرة** [7] **ضخمة اقتلعتها الريح فسقطت على رجل فقتلته. إننا نقول حينئذ إن هذا صدفة؛ فهل كنا نقول ذلك لو أن الأجرة تحطمت على الأرض فقط؟ (...) لا يكون ثمة صدفة إلا لأن ثمة مصلحة إنسانية، ولأن الأمور جرت كما لو كان الإنسان مقصودا في الحادث (...). أما حين لا نفكر إلا في الأجرة تنقلع فتسقط على الرصيف فتصطدم بالأرض،**

---

1. أنطوان أوغسطين كورنو (Antoine-Augustin Cournot): فيلسوف وعالم رياضيات فرنسي، وُلد في 28 أغسطس 1801 وتوفي في 31 مارس 1877. عُرف بإسهاماته في مجالات الرياضيات والاقتصاد والفلسفة، وله أثر بارز في تطور الفكر الاحتمالي والنظريات الرياضية في علم الاجتماع والاقتصاد.

2. انظر نفس المصدر السابق، ص 266.

3. انظر نفس المصدر السابق، ص 266.

4. جول هنري بوانكاريه (Jules Henri Poincaré): وُلد في 29 أبريل 1854 وتوفي في 17 يوليو 1912. يُعد من أبرز العلماء الفرنسيين في الرياضيات والفيزياء النظرية، كما كان من فلاسفة العلوم البارزين. يُوصف غالباً بأنه آخر العلماء الموسوعيين بعد غاوس، إذ كان قادراً على الإحاطة بمختلف فروع الرياضيات والمساهمة فيها. يُعد أيضاً من مؤسسي علم الطوبولوجيا (Topology) وله إسهامات مؤثرة في نظرية النسبية، ونظرية الفوضى، وفلسفة الرياضيات.

5. انظر نفس المصدر السابق.

6. هنري برغسون (Henri Bergson): فيلسوف فرنسي وُلد عام 1859 وتوفي عام 1941. حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1927 تقديراً لإسهاماته الفلسفية العميقة. يُعد من أبرز فلاسفة العصر الحديث، وكان له تأثير واسع على الفكر الأوروبي في النصف الأول من القرن العشرين. سعى برغسون إلى إحياء القيم الروحية التي أضعفتها الفلسفات المادية، مؤكداً إيمانه العميق بـ "الروح" وفاعليتها، كما تميز بأسلوب فلسفي أدبي أثّر في مجمل النتاج الفكري لما بعده، خاصة خلال الخمسينيات.

7. الأجرة: تشير إلى سقف أو قطعة بناء ثقيلة (مثل لوح خشبي أو حجر كبير) كانت تستخدم في البناء في ذلك العصر.

فإننا لا نرى في هذا إلا آلية، وتزول الصدفة. (...) فالصدفة إذن هي الالية التي تتم وكأن لها نية". [1]

الصدفة في السياق العلمي

ومن خلال بحثي لم أجد أحد ممن يتخذ منهج الصدفة في تفسير وجود هذا الكون بيان واضح حول مفهوم "الصدفة"، واعتقد ان ما يقصده الملاحدة بقولهم صدفه هو، الصُدفة بمعنى صدور النظم والسنن او القوانين عن سلسلة من العلل غير العاقلة وغير المدركة، وهذا المعنى هو جلي في كتابتهم، مثال ذلك قول الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل "**إنَّ الكون الذي نشاهده الآن إنّما وجد بمحض الصُدفة**" [2]، هكذا تعمل قوانينه ويكون اتفاقاً. وقد يكون المقصود بالصدفة في السياق العلمي هو العشوائية، لان مفهوم الصدفة مائل للفلسفة أكثر منه للعلم، ففي ميكانيكا الكم تُعتبر العشوائية سمة أساسية لسلوك الجسيمات دون الذرية، حيث يُجسد مبدأ عدم اليقين لهايزنبرغ هذه العشوائية، فهو يضع حدوداً دقيقة لقابلية قياس المتغيرات المترافقة كالموقع والزخم. ومع ذلك، يُنظر إلى هذه العشوائية ضمن إطار الاحتمالات التي تُحكمها قوانين رياضية دقيقة، وليست كفوضى مطلقة. فهي أيضا ليست الصدفة المطلقة التي تعني عدم وجود السبب. وبعض الأحيان تستخدم "**الصدفة**" لتفسير الظواهر التي لم يتمكن العلم بعد من فهم أسبابها الحقيقية، لكنها في الواقع ليست تفسيراً علمياً دقيقاً، بل مجرد تعبير عن **عجز مؤقت** في الوصول إلى القوانين والآليات التي تحكم الظواهر الطبيعية. فالعلم، بطبيعته يسعى دائماً إلى البحث عن الأسباب والروابط المنطقية، وما يُعتبر اليوم "مصادفة" قد يصبح غداً حقيقة علمية مفهومة بمجرد اكتشاف العوامل المؤثرة فيها. كما هو الحال مع كثير من الظواهر العلمية التي كانت تعتبر صدفة في الماضي واليوم عرفت أسبابها، لذا، فإن تعليق الظواهر على شماعة "الصدفة" قد يكون مجرد **مخرج مؤقت**، لكنه لا يغني عن البحث العلمي الجاد الذي يسعى للكشف عن القوانين الحقيقية التي تحكم الكون.

---

1. انظر معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد، ص 266.
2. برتراند راسل، فلسفتي كيف تطورت، ترجمة: عبد الرشيد الصادق، مراجعة: د. زكي نجيب محمود، ط مكتبة الأنجلو، 1960م، ص 2.

يستند اغلب الملحدين إلى فكرة الصدفة في تفسير نشأة الكون والحياة، معتبرين أنها بديلاً عن مفهوم الخلق الإلهي، غير أن هذا الطرح يواجه انتقادات من قبل **المؤمنين والعلماء والفلاسفة وكل من لا يعتقد بمفهوم الصدفة**، إذ يرون أن الصدفة وحدها لا يمكن أن تفسر النظام الدقيق الذي يحكم الكون، وبشكل عام لا يعني مفهوم الصدفة غياب السببية، بل هو يعكس حدود معرفتنا أو مدى تعقيد الظواهر التي نسعى لفهمها.

صياغة البرهان منطقياً

الترتيب المنطقي لبرهان النظم او النظام:

المقدمة الصغرى: **الكون مُنَظم (او يوجد نظام دقيق في الكون).**

المقدمة الكبرى: **كل مُنَظم لابد له من مُنِظم (او لكل نظام منظم).**

النتيجة: **الكون له مُنِظم.**

المقدمة الصغرى: **الكون منظم (أي يوجد نظام دقيق في الكون)**

الملاحظة المباشرة او استقراء المخلوقات او الموجودات: وهذا دليله حسي، فعندما نتأمل الكون نجد أن مكوناته تعمل بتناغم دقيق وفق قوانين صارمة، من ابسط مكوناته الى اعقدها واكبرها، وهذه القوانين لم تتخلف في حال من الأحوال، ولكن ليس شرطاً ان يكون الكون مثالياً مئة بالمئة او كاملاً لا نقص فيه، لأننا لا نقول ان الوجود هو كاملاً لا نقص فيه [1]، بل كل ما يهمنا هو اثبات وجود نظام وقوانين تسير هذه الكون، او القصدية او الهدفية في هذا الكون، وهذا كفيل بإثبات وجود خالق، وهنا سنبين دقة النظام الموجود في الكون من جهتين، جهة ناظرة للكون ككل، وجهة اخرى تتناول النظام والتعقيد في الكائنات الحية على هذه الأرض.

1. مبحث ان الكون يجب ان يكون مثاليا مئة بالمئة او كاملا لا نقص فيه هو ليس من مباحث نفي وجود الخالق او الموجد لهذا الكون، بل هي من الإشكالات التي تطرح في مبحث صفات إله الأديان السماوية او الدين الإسلامي بالخصوص، وسنجيب على هذا الاشكال في مبحث الصفات ان اشاء الله.

الدقة والنظام في الكون:

ما قبل الانفجار العظيم

تخيل أنك تعود بالزمن إلى الوراء، ليس مئات أو آلاف السنين، بل إلى اللحظة التي تسبق ولادة الكون أي قبل 13.7 مليار سنة، هناك حيث لا يوجد مكان ولا زمان ولا القوانين التي تسير حياتنا، تلك اللحظة الغامضة والعصية على الفهم التي تُعرف **بالمتْفردة الكونية** "Singularity"، وتمثل هذه اللحظة الحد الفاصل بين ما يمكن للفيزياء تفسيره وما يتجاوز حدود فهمنا العلمي او الى ما وصل اليه العلم المادي حتى الان، فقد كانت المتُفردة - وفقاً للنماذج الكونية - حالة من الكثافة اللامتناهية وحرارة لا يمكن تصورها، حيث تجمعت في هذه النقطة المتناهية بالصغر كل المادة والطاقة، وهكذا بدون سابق انذر انبثق الكون منها فجأة في لحظة يُطلق عليها "**الانفجار العظيم**" [1].

في عشرينيات القرن الماضي حدث ما يشبه العود بالزمن الى حيث بدا الكون، حيث قام العلماء في بناء تصوُّر علمي عن نشأة الكون استناداً إلى معادلات النسبية العامة [2] لأينشتاين [3]، وكان من أوائل من قدموا نماذج للتوسُّع الكوني ألكسندر فريدمان [4] وجورج لوميتر [5]، حيث استنتج فريدمان من معادلات أينشتاين أن الكون لا بد أن يكون قد بدأ من حالة كانت فيها المسافة بين جميع أجزائه تساوي صفراً، بنص قوله: "**في زمنٍ ما في الماضي، بين 10-20 مليار عام، لابُدَّ أنَّ المسافة بيننا وبين المجرَّات المُجاورة كانت**

---

1. أصل التسمية: في عام 1949م في مقابلة إذاعية مع شبكة البي بي سي، سخر العالم الفلكي البريطاني فريد هويل من فكرة لومتر، واصفاً إياها بأنها "انفجار عظيم"، ورغم أن هويل كان يقصد بذلك الاستهزاء، فإن مصطلح "الانفجار العظيم" قد انتشر وأصبح الاسم الأكثر استخداماً للإشارة إلى تلك اللحظة التي بدأ منها كل شيء.

2. وهي نظرية وضعها ألبرت أينشتاين عام 1915، وتُعد تطويراً للنسبية الخاصة. تصف الجاذبية ليس كقوة تقليدية، بل كتقوس في الزمكان تسببه الكتلة والطاقة. أي ان الأجسام لا "تنجذب" بفعل قوة، بل تتحرك ضمن مسارات منحنية رسمها هذا التقوس. وقد نجحت هذه النظرية في تفسير ظواهر فلكية كحركة الكواكب، وانحناء الضوء حول الأجسام الضخمة، وتمدّد الزمن في الحقول الجاذبية الشديدة.

3. ألبرت أينشتاين (Albert Einstein): عالم فيزياء نظري ألماني المولد، وُلد عام 1879 وتوفي عام 1955. عُرف بلقب "أبو النسبية" لوضعه نظريتي النسبية الخاصة والعامة، واللتين أحدثتا ثورة في فهم الزمان والمكان والجاذبية. حاز على جائزة نوبل في الفيزياء لعام 1921 عن تفسيره للتأثير الكهروضوئي، وأسهم في تأسيس ميكانيكا الكم وتكافؤ المادة والطاقة ($E=mc^2$). هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1933 بسبب الاضطهاد النازي، وعمل بمعهد الدراسات المتقدمة في برينستون حتى وفاته. كان من الداعين للسلام، وشارك في تحذير العالم من مخاطر الأسلحة النووية.

4. ألكسندر فريدمان (Alexander Friedmann): فيزيائي ورياضي روسي (1888-1925)، أول من قدّم حلاً ديناميكياً لمعادلات النسبية العامة، أظهر فيه أن الكون يمكن أن يكون متمدداً أو منكمشاً. مهّد عمله لنموذج الانفجار العظيم. تُوفي مبكرا بحمى التيفوئيد عن عمر 37 عاماً.

5. جورج لوميتر (Georges Lemaître): فيزيائي وكاهن بلجيكي (1894-1966)، يُعد أول من اقترح نظرية توسع الكون في إطار النسبية العامة، وطرح ما عُرف لاحقًا بـ"نموذج الذرة البدائية"، الذي أصبح أساسًا لنظرية الانفجار العظيم. سبق اكتشافات هابل رياضيًا، وكان له دور بارز في الربط بين العلم والدين.

صـفر". [1] وهذا يعني، وفقاً لمعادلات النسـبية العامة، أن الكون في بدايته لم يكن سوى نقطة متناهية الصغر، ذات كثافة وحرارة لا يمكن تصوُّرها، ومن هذه النقطة بدأ الكون في التوسُّع السريع.

لكن، ماذا تعني فكرة أن المسافة بين كل أجزاء الكون كانت تساوي صفراً؟! هل يعني ذلك أن الكون كله كان مضـغوطاً في نقطة بلا حجم؟! هذه الحالة تُعرف في علم الكونيات باسـم المتُفردة؛ وهي النقطة التي تنهار عندها كل القوانين الفيزيائية وغير الفيزيائية التي نعرفها اليوم، ويبين عالم الرياضـيات ديفيد بيرلنسـكي هذا الامر بقوله: "**لا تُمثل مُفردة الانفجار الكبير مفهوماً فيزيائياً، لأنَّه لا يُمكن اسـتيعابها من خِلال نظرية فيزيائية. إنَّها النُّقطة التي عندها توقَّفت النَّظريَّات الفيزيائية عن العَمَل**". [2] وهذا يشـير إلى أنَّ الفيزياء – علم الطبيعيات – لا تسـتطيع وصـف اللحظة التي بدأ عندها الكون، لأن جميع القوانين التي نسـتخدمها اليوم تعتمد على وجود الزمان والمكان او ما يسمى "بالزمكان" عند العلماء، وهما لم يكونا موجودين قبل الانفجار العظيم اصـلا، وهذا ما أكده أيضـا عالم الفيزياء البريطاني بول ديفيس بقوله: "**إنَّ الانفجار الكبير هو أصـلُ المكان، بالإضـافة إلى المادَّة والطَّاقة، والأكثر أهمِّيَّة من ذلك هو إدراك أنَّه طِبقًا لهذه الصُّـورة: لم يكن هُناك وُجُود لفراغٍ كائنٍ مِن قَبْل، هو الذي حَدَثَ فيه الانفجار الكبير**". [3] بمعنى آخر، لم يكن هناك "مكان" يحتوي الكون في لحظته الأولى، لأن المكان نفسـه نشـأ مع الانفجار العظيم!

عندما يسـمع الناس مصـطلح "**الانفجار العظيم**"، فقد يتخيلون انفجاراً فوضوياً يُشـبه الانفجارات العادية التي نعرفها، ولكن هذا الفهم ليس صحيحاً، لأن الانفجـار العظيم لم يكن مجرد حـدث عنيف، بـل كـان انطلاقـة دقيقـة ومنظمة للكون من حالة متناهية الصغر، وهذا ما يُوضـحه **ديفيد بيرلنسـكي** بقوله: "**يعتقد عُلماء الكونيات، حسـب التَّصـوُّر الصَّـحيح الثَّابت الآن، أنَّ الكون جاء إلى الوُجُود بطريقة ما يتمّ التَّعبير عنها بالانفجار، وهو ما**

1.Originally published as "Über die Krummung des Raumes," Zeitschrift für Physik 10 (1922): 377–386. Cited in: Guillermo Gonzalez and Jay W. Richards: The Privileged Planet (How Our Place in The Cosmos is Designed for Discovery), Regnery Publishing 2004, p172.

2. David Berlinski :The Devil's Delusion (Atheism and It's Scientific Pretensions ,(Basic Books 2009, p81.

3 . Paul Davies ,The Last Three Minutes: Conjectures About the Ultimate Fate of the Universe ,BasicBooks, 1994, p24.

يُســـمَّى الآن بالانفجار الكبير، وتُعدّ كلمة "انفجار" إشـــارة إلى أنَّ الكلمات أعجزتنا، وكثيراً ما تُعجزنا، لأنَّها تقترح حدثًا مفهوماً لدى البشـــر (والواقع أصـــعب من ذلك بكثير)". [1] إذن، لم يكن هناك فراغ ســـابق للانفجار، ولم يكن هناك زمانٌ قبله، بل كان الكون في حالة فريدة يصعب تخيُّلها، ومن هذه الحالة بدأ الزمان والمكان والمادة والطاقة في الظهور. ومن الطبيعي أن يجد الكثيرون صـعوبة في اســتيعاب فكرة اصـل الكون وغياب الزمكان، فحتى العلماء مازالوا حـائرين في كيفيـة معرفـة ذلـك مع تقـدمنـا العلمي الكبير، ويصـــور لنـا بيـل برايســون [2] في كتابه "موجز تاريخ كل شـــيء تقريبا" مدى صـعوبة الامر: "**من الطَّبيعي - إلاَّ أنَّـه خطأ - تصـــوير المُفردة على أنَّها شـــيء ما كنقطة مُخصَّبة مُدلاَّة في فراغ مُظلم لا حُدُود له. بيد أنَّه لا يُوجد فضاء ولا ظلام. فليس للمفردة محيط يحيطها. وليس لها فضـــاء لتشـــغله، ولا مكان لوجودها. فليس لنا حتى أن نســـأل عن مدة وجودها - ما إذا كانت طرأت توًّا مثل فكرة جيدة، أم أنها أزلية تنتظر اللحظة المناســـبة. فالزمان لا يوجَد. وليس له ماضٍ ينتج عنه. وهكذا بدأ كوننا من لا شيء**". [3]

بعد الموجز القصير حول أصل المتفردة يتجلى لنا ان الكون محتاج بوجوده الى شيء يتجاوز نطاق المادة والطبيعة، فكيف لكون بهذا الاتساع والتعقيد أن ينبثق من لا شـــيء كما يصـــفه البعض؟!! وكيف لبنية دقيقة تحكمها قوانين رياضية مدهشة - كما سيتم اثباته لاحقا - أن تظهر فجأة دون موجِّه أو حكمة مسبقة؟!! إن عجز النماذج العلمية عن تفسير لحظة "**الصفر الكوني**" [4]، حيث لم يكن للزمان وجود ولا للمكان حضـــور، يشـــير إلى حقيقة أعمق تتجاوز نطاق الفيزياء البحتة: فإذا كانت القوانين الفيزيائية نفســـها قد وُلدت مع الانفجار العظيم، فمن الذي وضع هذه القوانين التي تحكم توسع الكون بدقة متناهية؟ ومن أين جاءت المعلومات المعقدة التي كوَّنت النجوم والمجرات وضـــبطت

---

1 . David Berlinski: The Devil's Delusion (Atheism and It's Scientific Pretensions), Basic Books 2009, p69.

2. بيل برايسون (Bill Bryson): كاتب وصحفي أمريكي بريطاني، وُلد عام 1951، يُعرف بأسلوبه الساخر والجذاب في تبسيط العلوم والرحلات. من أشـــهر كتبه تاريخ موجز لكل شـــيء تقريباً (A Short History of Nearly Everything)، حيث اســـتعرض فيه تطوّر المعرفة العلمية بطريقة مبسطة وشيقة، بأسلوب يُقرّب المفاهيم العلمية إلى القارئ العام.

3.Bill Bryson: A Short History of Nearly Everything: Special Illustrated Edition (Kindle Locations 223-226). Crown Publishing Group. Kindle Edition.

4. الصفر الكوني: مصطلح يُستخدم للإشارة إلى لحظة نشوء الكون، أي النقطة الزمنية التي يُرمز إليها بـــ t = 0، حيث بدأ الزمان والمكان مع الانفجار العظيم. في هذه اللحظة، يُعتقد أن الكون نشأ من متفردة ذات كثافة وحرارة لا نهائية، ومنها انطلقت عملية التمدد الكوني.

الثوابت الكونية التي جعلت الحياة ممكنة؟ إن فكرة أن كل شـــيء ظهر فجأة دون سـبب أو تخطيط او ظهر من لا شـيء كما يقول كراوس ومن يعتقد بقوله تعبر على ان أن العدم كان يمتلك خيالاً خصــباً ليبتكر الزمن والمكان والطاقة... أو ربما كان يتابع دروساً في الفلسفة الوجودية على اليوتيوب!

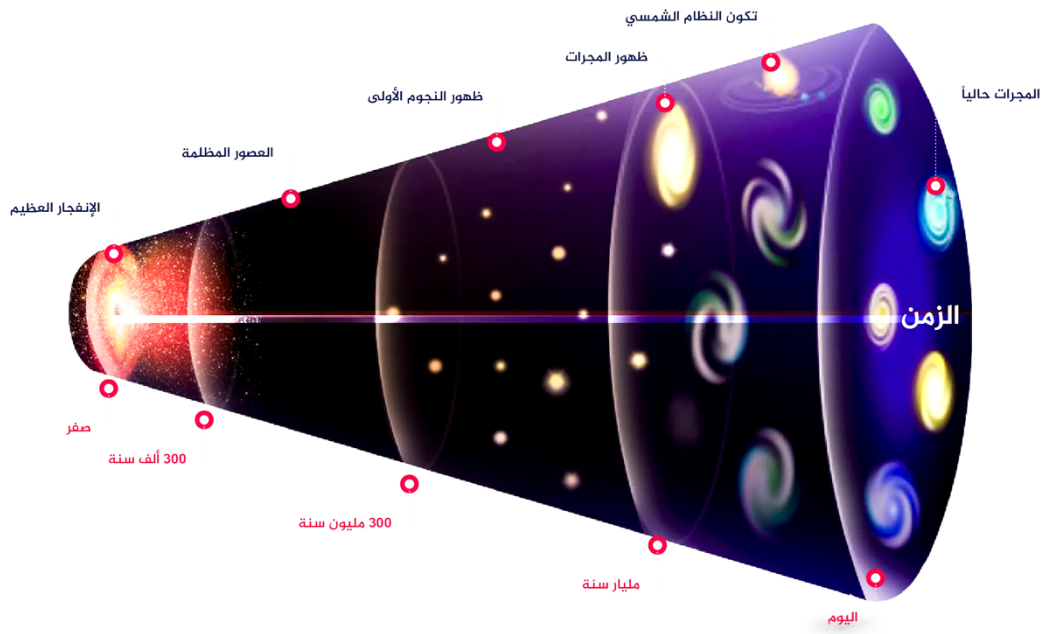

صورة توضيحية لمراحل حياة الكون من الانفجار العظيم لليوم.

اللحظات الأولى بعد الانفجار العظيم

قبل حوالي 13.7 مليار ســنة بدأ الكون كله من نقطة متناهية الصــغر ذات طاقة وكثافة لا نهائية، حيث لم تكن القوى الأساسية والزمان والمكان محددين بعد، وتلك النقطة كانت تحتوي كل المادة والطاقة التي نعرفها اليوم. في لحظة الانفجار العظيم بدأ الكون بالتوسـع بسـرعة مذهلة في عملية تُسـمى "**التضــخم الكوني**"، حيث تضــاعف حجم الكون تريليونات المرات في جزء من الثانية، وخلال هذه الفترة، كانت الظروف قاسـية بشـكل لا يُصـدق؛ الحرارة كانت تصــل إلى مليارات الدرجات، والضــغط كان عالياً جداً لدرجة أن الجســيمات الأساسـية مثل الكواركات والغلوونات [1] لم تكن قادرة على الاسـتقرار، لأنه كانت

1. الغلوونات: جســيمات أولية عديمة الكتلة تقريباً، تحمل القوة النووية القوية التي تربط الكواركات معاً لتكوين البروتونات والنيوترونات داخل النواة.

تتحرك بحرية ضمن ما يمكن وصفه بـــ "**حساء البلازما**" وهو مزيج مكثف من الجسيمات دون الذرية التي لا تزال بلا شكل محدد.

مع اســـتمرار تمدد الكون وانخفاض درجة حرارته تدريجياً، بدأت الكواركات والغلوونـات بـالانـدمـاج تحـت تـأثير القوة النوويـة القويـة، ممـا أدى إلى تكوين البروتونات والنيوترونات، وكانت هذه العملية بالغة الحســـاســـية؛ فأي تغير طفيف في شـدة القوة النووية القوية كان سـيؤدي إلى نتائج كارثية، فلو كانت هـذه القوة أضـــعف بقليـل لمـا تمكنـت الكواركـات من الترابط، ولمـا تشـــكلـت البروتونات والنيوترونات، وبالتالي لما وجدت الذرات والعناصر التي تبني المادة، وعلى العكس لو كانت أقوى قليلاً لكانت النجوم قد اســـتهلكت وقودها النووي بســـرعة هائلة، مما يقلل عمرها ويمنع اســـتقرار الأنظمة الكوكبية الضـــرورية للحياة. إن هذا التوازن الدقيق بين القوى الأســاســية في الطبيعة هو الذي أتاح نشوء المادة الأولى، والتي ستتحد لاحقاً لتشكيل الذرات فالنجوم ثم المجرات.

بعـد حوالي ثلاث دقـائق من الانفجـار العظيم، بـدأت مرحلـة تُعرف بـاســـم "**التخليق النووي الابتدائي**" (Primordial Nucleosynthesis)، حيث اندمجت البروتونـات والنيوترونـات لتكوين نوى العنـاصـــر الخفيفـة مثـل الهيـدروجين والهيليوم، حيث كانت النســب الدقيقة لهذه العناصـر نتيجة لتوازن دقيق بين القوى الفيزيـائيـة؛ حوالي 73٪ من المـادة كـانـت هيـدروجين، و23٪ هيليوم، مع كميات ضئيلة من الديوتيريوم [1] والليثيوم، فهذه النسب لم تكن عشوائية، بل كانت نتيجة لظروف حرارية شـــديدة الدقة؛ فلو كانت درجة الحرارة أعلى قليلاً لتفككـت النوى المتكونـة، ولو كـانـت أقـل لتوقفـت التفـاعلات النوويـة قبـل أن تكتمل، وهذه المرحلة كانت حاسمة في تشكيل الكون الذي نعرفه اليوم، حيث أصـبح الهيدروجين الوقود الأســاســي للنجوم، والهيليوم مكوناً رئيســياً للنجوم العملاقة. ولهذا أشـــار هويل "**لا اعتقد أن أي عالم يختبر الأدلة، ســـيعجز عن التوصـل لاســتنتاج أن قوانين الفيزياء النووية قد صُـممت بشـكل متعمد في مـا يتعلق بـالنتـائج التي تنتج عنهـا داخـل النجوم**" [2] وكلام هويـل يعكس دهشـــة العلماء أمام دقة المصـــمم الذي جعل الكون صـــالحاً لاحتضـان

1. الديوتيريوم هو نظير ثقيل للهيدروجين يُعرف أحياناً بـــ "الهيدروجين الثقيل"، يتميز بأنه يحتوي على بروتون واحد ونيوترون واحد في نواته، بخلاف الهيدروجين العادي الذي يحتوي على بروتون واحد فقط دون نيوترونات.

2. التصميم العظيم، إجابات جديدة عن أسئلة الكون الكبرى، ستيفن هوكينج، ترجمة أيمن أحمد عياد، ص189.

الحياة الذكية. بالإضـافة الى ذلك أشـار عالم الفيزياء الملحد سـتيفن وينبرغ [1] الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء في كتابه الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون الى قضـية ان الكون وراءه منظم بقوله: "**ولكن المقومات الضـرورية لولادة النجوم كانت مهيأة سـلفاً في نهاية الدقائق الثلاث الأولى.**" [2] وهذه الكلمات تشير بوضوح إلى وجود "**تخطيط**" سابق لوجود الكون، حيث تم تهيئة الظروف لولادة النجوم منذ البداية، فمن خطط وهيئ الظروف والقوانين لنشوء النجوم؟!

إنتاج العناصر الثقيلة وأهمية الكربون في الكون

بعد أن شـكَّل التخليق النووي الابتدائي العناصـر الخفيفة مثل الهيدروجين والهيليوم، ظل الكون بحاجة إلى عمليات أكثر تعقيداً لتكوين العناصـر الأثقل، كالكربون والأكسجين والحديد، والتي تُشكِّل أساسَ البنى المعقدة مثل الكواكب والكائنات الحية. هنا يبرز الدور المحوري للنجوم، التي تعمل كأفران كونية عالية الطاقة، حيث تُصـنع العناصـر الثقيلة عبر سـلسـلة من التفاعلات النووية المعروفة باسم تفاعلات "**الانصهار النجمي**" أو "**التخليق النووي النجمي**".

وتُعَد عملية تكوين الكربون واحدة من أكثر العمليات إثارة للدهشـة في الفيزياء الفلكية، فبعد أن تستهلك النجوم وقودها من الهيدروجين في مراحل عمرها الأولى، تبدأ في الانكماش تحت تأثير الجاذبية، مما يرفع درجة حرارة لبها إلى مسـتويات هائلة تصـل إلى مئات الملايين من الدرجات المئوية، وفي هذه الظروف القاسـية تندمج نوى الهيليوم – التي تتكون من جسـيمات ألفا (نواة الهيليوم) – في سـلسـلة تفاعلات تُعرف "**بعملية ألفا الثلاثية**"، حيث تنـدمج ثلاث نوى هيليوم (كتلة كل منها 4 ذرات هيدروجين) لتكوين نواة الكربون. هذه العملية ليسـت تلقائية، بل تتطلب ظروفاً فيزيائية دقيقة جداً،

---

1. ستيفن وينبرغ (Steven Weinberg): فيزيائي نظري أمريكي (1933–2021)، حائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1979 لمساهمته في تطوير النموذج الموحد للقوى الكهرومغناطيسية والضعيفة. له إسهامات مهمة في علم الكونيات وفي فلسفة العلم، وكان معروفًا بموقفه المادي ونقده للفكر الديني، ومن أشهر كتبه: الدقائق الثلاث الأولى، الذي شرح فيه بدايات الكون بعد الانفجار العظيم بلغة مبسطة.

2. الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون Les trois Premières minutes de l'univers، ستيفن واينبرغ، ترجمة محمد وائل الأتاسي، ط 1، دمشق، ص16.

أهمها وجود "حالة رنينية" في نواة الكربون، تنبأ بها الفيزيائي "فريد هويل" عام 1953م. لولا هذه الحالة الرنينية غير المستقرة، التي تسمح باندماج الهيليوم بكفاءة عالية، لمَا تكوَّن الكربون بالكميات الكافية في الكون، ولَتعذَّر ظهور الحياة القائمة على الكيمياء العضوية.

لا تقتصر أهمية الكربون على كونه أساس الجزيئات الحيوية فحسب، بل تكمن أهميته في "التوازن الدقيق" الذي سمح بتكونه، فالقوة النووية القوية التي تربط البروتونات والنيوترونات في النواة، لو كانت أضعف بنسبة ضئيلة، لمَا استطاعت نوى الهيليوم التجاوب مع بعضها لتشكيل الكربون. ولو كانت أقوى قليلاً، لَتحوَّل معظم الكربون إلى أوكسجين، مما يُخلّ بتوازن العناصر الضرورية لتشكيل الكواكب والغلاف الجوي، حتى الكتلة الدقيقة لنواة الكربون والهيليوم تلعب دوراً حاسماً؛ فلو اختلفت طاقة الحالة الرنينية للكربون ولو بنسبة 1٪، لمَا اكتملت التفاعلات بالكفاءة المطلوبة، هذا الإحكام الفيزيائي جعل هويل نفسه يعلن أن الكون يبدو وكأنه معد بعناية لظهور الحياة. وهذا ما أكده الفيزيائي هوكينج بقوله: "**إنَّ الحقيقة الملحوظة هي أنَّ قِيَم هذه الأرقام يبدو أنَّها قد تمَّ ضبطها بشكلٍ دقيقٍ جدًّا لإتاحة نشأة الحياة ... على سبيل المثال، لو كانت الشُّحنة الكهربائية للإلكترون بها اختلاف طفيف جدًّا، لما استطاعت النُّجُوم حرق الهيدروجين والهليوم، ولما كانا انفجرا اصلاً، ويبدو واضحاً أنَّ هُناك عددُ قليلُ نسبيًّا من القِيَم للأرقام التي من شأنها أن تسمح بتطوير أيّ شكل من أشكال الحياة الذَّكِيَّة**" [1]، وعندما تنفجر النجوم الضخمة في نهاية عمرها على شكل مستعرات عظمى، أو عندما تطرد النجوم المتوسطة غازاتها في السدم الكوكبية، تنتشر العناصر الثقيلة – **بما فيها الكربون** – في الفضاء بين النجوم، هذه المواد تختلط مع سحب الغاز والغبار الكوني، لتصبح لَبِنات لأجيال جديدة من النجوم والكواكب، وهكذا فإن ذرات الكربون الموجودة في أجسادنا اليوم كانت يوماً ما جزءاً من نجوم ماتت قبل مليارات السنين، ويذكرني ذلك بالقول المشهور "نحن أبناء النجوم" وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر [2].

1.Stephen Hawking, A Brief History of Time, 1988. Cited in: Donald E. Johnson: Probability's Nature and Nature's Probability (A Call to Scientific Integrity), Booksurge Publishing 2009, p22.

2. ديوان أمير المؤمنين (ع)، حسين بن معين الدين الميبدي (مترجم : زماني)، ص 175.

لكن لماذا الكربون تحديداً؟! تكمن الإجابة في خصائصه الكيميائية الفريدة، التي تجعله العمود الفقري للكيمياء العضوية، فذرة الكربون قادرة على تكوين أربع روابط تساهمية مع عناصر أخرى، مما يسمح ببناء جزيئات معقدة ومتنوعة مثل الحمض النووي (DNA)، والبروتينات، والدهون. بالإضافة إلى ذلك، فإن الروابط الكربونية تتمتع بدرجة مثالية من القوة والمرونة، فهي ليست ضعيفة لدرجة التفتت بسهولة، ولا قوية لدرجة تعطيل التفاعلات الكيميائية الحيوية، بل حتى وفرة الكربون النسبية في الكون مقارنة بعناصر أخرى -كالسيليكون- جعلته المرشح الأمثل لبناء الحياة، وهو ما يؤكده تنوع المركبات العضوية التي لا تُحصى على الأرض. في النهاية، يبقى الكربون شاهداً على التناغم المدهش بين قوانين الفيزياء وضرورات الحياة. هذا الإحكام ليس مجرد مصادفة، بل يُثير أسئلة عميقة حول طبيعة الكون، وكيفية توافق قوانينه مع وجود كائنات قادرة على اكتشاف هذه القوانين نفسها.

لكن الدقة المتناهية في بنية الكون لا تتوقف عند حدود القوى الأساسية وحدها، بل تمتد إلى مجموعة من **الثوابت الفيزيائية الجوهرية**، والتي تحدد مسار الكون وتاريخه منذ لحظاته الأولى، ففي كتابه "**فقط ستة أرقام**" يشير عالم الفلك **مارتن ريس** إلى **ستة ثوابت كونية رئيسية** تلعب دوراً محورياً في رسم ملامح الكون كما نعرفه اليوم، وكل واحدة من هذه القيم مضبوطة بدقة متناهية، بحيث أن أي تغير طفيف فيها سيؤدي إلى كون مختلف تماماً، وربما غير قادر على احتضان الحياة. هذه الثوابت ببساطة:

🔷 **كفاءة الاندماج النووي (ε = 0.007):** تحدد هذه القيمة نسبة الكتلة التي تتحول إلى طاقة خلال تفاعلات الاندماج النووي في النجوم، لو كانت أصغر بقليل لما استطاعت النجوم إنتاج العناصر الثقيلة مثل الكربون والأكسجين، وهما عنصران أساسيان للحياة، ولو كانت أكبر لاحترقت النجوم بسرعة مما يقصر عمرها ويجعل استقرار الكواكب حولها أمراً شبه مستحيل، فمثلا شمسنا تُنتج طاقتها عن طريق دمج الهيدروجين إلى هيليوم عبر عملية الاندماج النووي، وإذا تغيرت **كفاءة الاندماج النووي ε**، فإن الشمس إما أن تحترق بسرعة وتنطفئ، أو تكون ضعيفة جداً ولا تكفي لدعم الحياة.

🔷 **نسبة القوة الكهرومغناطيسية إلى الجاذبية ($N = 10^{36}$):** تمثل هذه النسبة الفرق الهائل بين القوة الكهرومغناطيسية، التي تربط الإلكترونات بالنواة داخل الذرات، وقوة الجاذبية، التي تحكم حركة الأجرام السماوية. فلو كانت هذه النسبة مختلفة، ولو اختلافاً بسيطاً، لما كانت الذرات مستقرة، أو لما تشكلت النجوم والكواكب بالشكل الذي يسمح بظهور الحياة، فالنجوم تحتاج إلى التوازن بين الجاذبية التي تحاول جعلها تنهار، والقوة الكهرومغناطيسية التي تمنع الإلكترونات من الانهيار داخل النواة، هذا التوازن موجود فقط لأن N لها هذه القيمة الدقيقة.

🔷 **الكثافة الكونية النسبية ($\Omega \approx 1$):** تعكس هذه القيمة التوازن بين كثافة المادة والطاقة في الكون والكثافة الحرجة التي تفصل بين كون يتمدد بلا حدود وكون ينهار على نفسه، أي انحراف عن هذه القيمة كان سيؤدي إما إلى تباعد سريع بين المجرات يمنع تكوين الهياكل الكونية، أو إلى انهيار كلي للكون قبل أن يُتاح له الوقت الكافي لتطور الحياة، وفي الكون الحالي Ω قريبة جداً من 1، وهذا الذي يسمح بوجود مجرات وكواكب وحياة مستقرة على مدى مليارات السنين.

🔷 **الثابت الكوني ($\lambda \approx 0.7$):** يمثل λ تأثير الطاقة المظلمة التي تسرّع من تمدد الكون، حيث لو كانت هذه القيمة أكبر لتمدد الكون بسرعة فائقة تمنع تكون المجرات والنجوم، ولو كانت أصغر لطغت الجاذبية وأدى ذلك إلى انكماش الكون على نفسه في وقت مبكر، و نرى أن المجرات تبتعد عن بعضها البعض وفق معدل ثابت، مما يعني أن الطاقة المظلمة تعمل بطريقة تسمح ببقاء الكون منظّماً لفترات طويلة.

🔷 **تقلبات الكثافة في الكون المبكر ($Q = 10^{-5}$):** تحدد هذه القيمة مدى تفاوت توزيع المادة في اللحظات الأولى للكون. فلو كانت أصغر، لما تكونت المجرات والعناقيد النجمية، ولكان الكون عبارة عن فراغ متجانس. ولو كانت أكبر، لكان الكون مليئاً بالثقوب السوداء والانفجارات العنيفة، مما يجعل استقرار أي نظام نجمي أمراً مستحيلاً.

🔷 **عدد الأبعاد المكانية (D = 3)**: يبدو كوننا ثلاثي الأبعاد أمراً بديهياً، لكن الفيزياء النظرية تشير إلى أن عدد الأبعاد هو عامل أساسي لاستقرار القوانين الفيزيائية. ففي بعدين فقط، لن تكون هناك مدارات مستقرة للكواكب حول النجوم، وفي أربعة أبعاد أو أكثر، ستصبح قوانين الفيزياء غير ملائمة لتكوين الذرات والجزيئات الكيميائية.

إن هذه الثوابت الستة ليست مجرد قيم عددية، بل تمثل **أساس التوازن الكوني** الذي أتاح نشوء عالم يمكن أن تزدهر فيه الحياة، لكن يبقى السؤال الأهم: **هل هذه القيم جاءت بهذه الدقة عن طريق الصدفة العمياء؟!** وهل نحن نعيش في كون واحد مضبوط بهذه الطريقة، أم أن هناك عدداً لا يحصى من الأكوان الأخرى، بحيث أننا ببساطة وجدنا أنفسنا في واحد منها ملائم للحياة؟!

مهما كانت الإجابة، فإن هذه الأرقام الستة تقدم دليلاً مذهلاً على مدى الدقة المتناهية التي تحكم بنية الكون، وهي دقة لا يمكن تفسيرها على أنها مجرد مصادفة عشوائية، بل هي جزء من نظام محكم صُمّم بعناية، فاحتمالية أن تتخذ هذه الثوابت القيم الدقيقة التي تسمح بظهور الحياة عن طريق الصدفة البحتة تكاد تكون معدومة، مما يوحي بوجود **ذكاء مبدع** يقف وراء هذا التناسق العجيب، فإن هذا التوازن الدقيق بين القوى والثوابت الأساسية يشير إلى أن الكون ليس مجرد فراغ مادي بلا غاية، بل يحمل في طياته **تصميماً هادفاً** يجعل الحياة ممكنة بل وحتمية ضمن شروطه المضبوطة بعناية، وكما أن ترتيب الكلمات في كتاب متقن لا يمكن أن يكون وليد ضربات عشوائية على لوحة المفاتيح، فإن ضبط قوانين الكون بهذه الدقة لا يمكن أن يكون مجرد نتاج صدفة، بل يعكس **حكمة عليا** صاغت هذا البناء المتكامل.

النشوء والتطور والإرادة الكونية: هل هناك من يقف وراء هذه العملية؟![1]

تنقسم نظرية التطور بشكل أساسي إلى قسمين أو نظريتين منفصلتين، كل منهما تُعنى بشرح جانب محدد من عملية نشوء الحياة وتطورها على كوكب الأرض. القسم الأول أو النظرية الأولى تهتم بتفسير كيفية نشوء الحياة الأولى، أي الكيفية التي ظهرت بها الحياة على الأرض من مواد غير حية، وهذا الجزء يُعرف بدراسة "نشوء الحياة" أو "أصل الحياة"، ويسعى إلى فهم التحول من المادة الجامدة إلى الكائنات الحية الأولى.

أما القسم الثاني أو النظرية الثانية، فيركز على تفسير عملية تطور الحياة وارتقائها بعد نشوئها، بمعنى آخر يدرس هذا الجزء كيفية تطور الكائنات الحية من تلك البذرة الأولى البسيطة وصولا الى هذا التنوع الهائل من الأنواع التي نراها اليوم على الأرض، وهذا الجانب يُعرف بدراسة "**التطور البيولوجي**" أو "**ارتقاء الحياة**"، ويشمل آليات مثل التمايز والانتخاب والوراثة. لذلك، من المنطقي أن نبدأ أولاً بمناقشة نشوء الحياة من المادة غير الحية هل تحتاج الى تدخل او مصمم ام لا، ثم ننتقل بعد ذلك إلى بيان ان عملية التطور لهذه الكائنات الحية هي عبارة عن تنفيذ لخطة مرسومة هدفها الوصول الى هدف معين وهو انتاج "**الة ذكاء**".

البحث عن البداية: أسرار نشأة الحياة على كوكبنا

منذ بداية تحرك عقارب ساعتنا البشرية لم يتوقف الإنسان عن التساؤل حول سر نشأة الحياة على كوكبنا، كيف نشأت تلك الكائنات الحية التي تزخر بها الأرض، وكيف ظهرت في هذا الكون الفسيح؟! هل كانت الحياة نتيجة لحظات عشوائية، أم أن هناك قوة خفية، مدبرة، حكيمة، قد رسمت لهذا الوجود بدايةً ونهاية؟ هذه الأسئلة تظل تتردد في الأذهان، وتثير فينا رغبة شديدة لفهم هذا السر الغامض.

---

1. **نظرية التطور في ذاتها ليست موجهة لنفي وجود الاله**، فهي نظرية علمية تسعى لتفسير العمليات الطبيعية التي أدت إلى التنوع البيولوجي على كوكبنا، وبالتالي فهي لا تتناول مسألة وجود الخالق بشكل مباشر.

على الرغم من التقدم الكبير الذي حققته العلوم على جميع الاصـــعدة، لا يزال العلماء يواجهون تحديات واضحة في تقديم تفسير حاسم لكيفية ظهور الحياة من المادة غير الحية، كيف يمكن لجزيء بســـيط، مثل البروتون الأول، أن يتحول إلى كائن حي معقد يحتوي على شـفرة جينية محكمة، ويمتلك القدرة على النسـخ والتطور؟!! هذه الأسـئلة تؤكد على أن نشـوء الحياة ليسـت مجرد مسـألة علمية بسـيطة يمكن غض البصـر عنها ان لم نجد إجابة لها، بل هي معضـلة فكرية وفلسـفية تأخذنا إلى حدود أعماق الكون. فالحياة أعقد بكثير مما نعرف، وأحد أعظم عجائبها يكمن في المادة الوراثية المعروفة بالحمض النووي الـ DNA، هذا الجزيء الصغير جدا الذي يوجد في كل خلية حية يحتوي على كمية هائلة من المعلومات الدقيقة والمنظمة بصـورة تفوق الخيال، والتي تقود العمليات الحيوية وتحافظ على استمرارها. لكن السؤال المهم هنا هل يمكن أن تكون هذه المعلومات الهائلة قد ظهرت بالصـدفة، أم أنها تشـير إلى وجود مصمم عاقل وراءها؟!!

عند الحديث عن الحمض النووي الـ DNA نجد أن العلماء يتفقون على أنه يحمل شيفرة الحياة بكل تعقيداتها، ولكن في الوقت نفسه يواجهون صعوبة كبيرة في تقديم تفسـيرات علمية مقنعة حول كيفية نشـوء الحياة من دون الحاجة إلى وجود مدبر أو تدخل خارجي، هذا الموضوع بالغ التعقيد لأنه يتناول ثلاثة محاور رئيسية: الأول هو نشوء المادة الأولية القادرة على النسخ والتكاثر، الثانية هي قابلية هذه المادة - سـواء كانت بروتونا أو DNA- على حفظ المعلومات، والثالثة كيف يمكن لمادة صـماء - حسـب زعمهم - مثل الحمض النووي (DNA)، التي تفتقر إلى الوعي أو للذكاء، أن تتحول إلى نظام معقد قادر على إصـدار "أوامر" أو تعليمات دقيقة لتنفيذ عمليات بيولوجية معقدة، مثل بناء الكائنات الحية والحفاظ على وظائفها، بما يحقق أهدافاً محددة دون وجود توجيه خارجي؟! وسـأركز على النقاط الأولى والثالثة، وسـأوضـح من خلالهما لكل طالب حق كيف أن هذه النقاط تعد دليلاً قاطعاً على وجود مصـمم مدبر حكيم خلق فأحسـن خلقاً "**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**" [1]، فالتعقيد المذهل في الحمض النووي DNA ليس

1. الذاريات:20 - 21.

مجرد صدفة، بل هو دليل على أن هناك خطة منظمة وأهدافاً مدروسة، تفرض وجود عقل مدبر قادر على خلق وتنظيم هذا النظام.

لإبراز مدى استحالة نشوء الحياة بشكل عشوائي دون تدخل مصمم خارجي، فلنتأمل سوياً هذا الطرح العلمي المفصل الذي يقدمه السيد أحمد الحسن في كتابه وهم الالحاد: "**فالـ DNA و الـ RNA الموجودة في الخلايا الحية والتي تعتبر ناسخات والبروتينات التي من الممكن أن تنسخ نفسها مكونة من أعداد كبيرة جداً من الوحدات أو الجزيئات بحيث لو أردنا فرض احتمالية تكونها أو تركبها مرة واحدة فقط بصورة صحيحة قابلة للنسخ صدفة فإننا سنحصل على رقم غير قابل للتحقق علمياً ضمن حدود الزمان التي نعرفها على هذه الأرض.**

وحتى لو فرضنا أن بداية نشوء الحياة كانت بأبسط بروتين يوفر عملية النسخ الذاتي ولنقبل فرض أنه بسيط جداً ويتكون من سلسلة فيها 32 حامضاً أمينياً فقط، وبما أننا لدينا 20 نوعاً من الأحماض الأمينية لتكوين هذه السلسلة فسيكون لدينا عدد احتمالات هو: $4.294967296e^{+41}$ أي تقريباً 4×10^{41} أي رقم 4 وأمامه 41 صفراً، وهذا رقم كبير جداً ويمثل نسبة احتمالية تحقق ضئيلة جداً.

وحقيقة هذا الأمر جعل د. دوكنز في كتابة (صانع الساعات الأعمى) يتخبط في فروض غير واقعية في محاولة يائسة لتقليل عدد الأصفار مرة ولزيادتها في الجانب الآخر مرة أخرى، وهكذا يقوم معظم الملحدين بإزالة عشرات الأصفار هنا وإضافة عشرات أخرى هناك بصورة غير علمية وعشوائية وفروض خيالية لعلهم في النهاية يصلون إلى رقم يقولون عنه إنه رقم مقبول وقابل للتحقق في حدود الزمن المتاح على الأرض وهو مليار سنة تقريباً في أحسن الأحوال.

والآن، لنفرض أن المعجزة الأولى تحققت، وأن هناك أحماضاً أمينية تكونت على الأرض بظروف استثنائية مناسبة لنشوئها أو وصولها، وأنها وضعت في ظروف مناسبة بحيث أصبح لدينا على الأرض في كل ثانية وطوال مليار عام محاولة لنشوء بروتين قادر على النسخ الذاتي،

فسيكون عدد المحاولات المتاحة هي: (31449600000000000) أو لنقل تقريباً 3×10^{16} وعندما نطرح هذا الرقم من عدد المحاولات المطلوبة سنجد أننا لا زلنا بحاجة لـــ $3.99999999999999999999997e^{+41}$ محاولة تقريباً (3.9×10^{41}) ليكون الأمر ممكناً. وكما نرى فإن محاولة بالثانية طوال مليار عام لم تؤثر بالرقم تقريباً، ولو أردنا حساب الزمن اللازم لتحقق الاحتمالية إذا كانت لدينا محاولة كل ثانية فستكون فترة زمنية هي تقريباً $4e^{+41}$ ثانية (4×10^{41}) أي تقريبا 10^{34} سنة، أي رقم واحد وأمامه 34 صفراً وهو رقم كبير جداً يزيد عن عمر الأرض بل وحتى عمر الكون بكثير جداً، فعمر الأرض رقم أمامه فقط تسعة مراتب ويقدر بأنه 4.6 مليار سنة، وعمر الكون أمامه فقط عشرة مراتب ويقدر بأنه 13.7 مليار سنة.

ولو حسبنا بطريقة أخرى، أي حسبنا كم محاولة في الثانية الواحدة طيلة مليار عام تكفي ليكون الأمر قابلاً للتحقق ضمن حدود الاحتمالية فسيكون عدد المحاولات في الثانية الواحدة هو ناتج قسمة عدد المحاولات المطلوبة على الزمن المتاح أي مليار سنة: والنتيجة ستكون 1271876271876271876271876 2.718763 أي تقريباً $1e^{+25}$ (10^{25}) أي أننا نحتاج إلى واحد وأمامه 25 صفراً محاولة في الثانية تقريباً أو عشرة مليون مليون مليون مليون محاولة في الثانية تقريباً طوال مليار عام ليكون الأمر ممكناً وهذا رقم خيالي.

فما بالك إذا عرفنا أن احتمالية وجود الأحماض الأمينية الكافية على الأرض هو احتمال ضئيل جداً أيضاً، وما بالك إذا عرفنا أن الأحماض الأمينية هي عبارة عن نوعين؛ أحماض أمينية يسارية وأحماض أمينية يمينية، والبروتينات التي تدخل في تركيب الحياة تبنى من الأحماض الأمينية اليسارية فقط، وهذا يعني أن محاولاتنا السابقة للحصول على بروتينات تنفع فقط عندما تكون الأحماض الأمينية المتجمعة يسارية، وهذا يعني أن احتمالية أن يأتي البروتين الذي نطلبه هي نصف مرفوع إلى عدد الأحماض الأمينية في ذلك البروتين، فمثلاً: إذا كان عدد تراكيب الأحماض الأمينية في البروتين المطلوب هي 50 فاحتمالية أن نحصل عليه هي

نصف مرفوع للأس 50 وهذا احتمال ضئيل جداً، وباجتماع ضآلة احتمال حدوث هذه الخطوات المتوالية اللازمة لنشوء البروتين تنتهي تقريباً مسألة الإمكان وتصبح أمراً أشبه ما يكون بالمستحيل.

ولكن هناك من الملحدين من يعمل حسابات عكسية ويستخرج الأرقام المطلوبة في المقدمات ليحقق الإمكان في النتيجة، فالمشكلة الأولى وهي توفر مادة البناء أو الحوامض الأمينية مثلاً يحاولون اللجوء إلى بعض الفروض التي تطرح في الأبحاث لحلها مثل أن تكون ظروف الأرض والبرق والصواعق الكثيرة في أول نشوء الأرض أدت إلى تكونها أو هناك فرض خيالي آخر وهو أن الأرض كانت تقصف بنيازك محملة بالأحماض الأمينية قبل أربعة مليارات عام، ولما وجدوا أن نوع الأحماض الأمينية يجب أن يكون فقط يسارية فرض بعضهم فرضاً خيالياً آخر وهو أن هذه النيازك تعرضت لضوء نجم نيوتروني وهي في طريقها إلى الأرض وهكذا دواليك، فالأمر كله مبني على فروض خيالية لإثبات أن انتاج البروتين الناسخ لنفسه على الأرض قبل مليارات السنين كان أمراً طبيعياً جداً، ومع أنها كلها فروض خيالية وكل واحد منها قليل الاحتمال حتى التلاشي فما بالك بحدوثها جميعا متتالية؟! ولكن مع هذا يحلو لبعضهم أن يقول إنها معقولة ومقبولة.

فعند الملحدين معقول جداً أن عدداً كبيراً جداً من النيازك المحملة بكميات هائلة من الأحماض الأمينية اختارت كوكب الأرض بالتحديد والذي يمثل للكون حبة غبار في صحراء حتى لو كانت نسبة احتمال هذا الحدث قليلة إلى حد التلاشي!

ومعقول جداً أن هذه النيازك تعرضت وهي في طريقها إلينا لضوء نجم نيوتروني لكي تكوّن حوامضها الأمينية يسارية و.. و.. و.. و.. وهكذا كل هذه الفروض والتي نسبة تحققها ضئيلة إلى حد التلاشي معقولة جداً، ولكن أن يكون وراء القانون الذي أنشأ البروتين الناسخ لنفسه أو الحمض النووي مقنن، فهذا غير معقول عند الملحدين، وأن

يكون وراء الخريطة الجينية اللغوية متكلم أيضاً غير معقول عند الملحدين!" [1]

انقل بعض أقوال العلماء حول نشأة الحياة:

عالم الفلك **فريد هويل** [2] يقول: "**إنَّ السِّيناريو الحالي لنشأة الحياة بنفس نسبة احتمالية تكوين طائرة بوينج 747 بفعل إعصار عصف بمقلب قِمامة**".[3] وفي موضع اخر يفصل بشرح فكرته: "لا يُمكن أن يكون للحياة بداية عشوائية. فلا يُمكن لحُشُود القردة التي تضرب بعشوائية على الآلات الكاتبة أن تُنتج أعمال شكسبير، للسَّبب العَمَلي وهو أنَّ الكون الملحوظ بأكمله ليس كبيرًا بما يكفي لاحتواء جحافل القُرُود الضَّرورية، والآلات الكاتبة الضَّرورية، ولا حتى سلال نفاية الأوراق اللاَّزمة لفصل المُحاولات الخاطئة. وينطبق الأمر نفسه على المادَّة الحيَّة. **فإنَّ احتمالية تشكُّل الحياة تلقائياً من مادَّة غير حيَّة هو واحد إلى عدد يليه 40.000 صفراً عن يمينه** ... لم يكن ثمَّ حساءٌ أوَّليّ، لا على هذا الكوكب ولا على غيره، وإذا لم تكن بدايات الحيَّاة عشوائية، **فلابُدَّ وأنَّها كانت نِتاج ذكاء هادف**". [4]

العالم **فرانسيس كريك** [5]، الحاصل على جائزة نوبل، يقول: "**ليس بوسع إنسانٍ أمينٍ -مُسلَّح بكُلّ المعرفة المُتاحة لنا الآن- سوى القول إنَّه -**

---

1. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، ص 67-69.

2. فريد هويل (Fred Hoyle): عالم فضاء ورياضيات بريطاني، وُلد في 24 يونيو 1915 في بلدة بينغلي (Bingley) بمقاطعة يوركشاير، وتوفي في 20 أغسطس 2001 في بورنموث. يُعد من أبرز علماء الفلك في القرن العشرين، وقد ساهمت أبحاثه بشكل كبير في فهم العمليات النووية داخل النجوم، خصوصاً في تفسير تفاعلات الاندماج النووي النجمي. رغم ذلك، كان من أبرز معارضي نظرية الانفجار العظيم، وهو من أطلق عليها ساخراً مصطلح Big Bang في برنامج إذاعي عبر إذاعة BBC، دون أن يتوقع أن يترسخ المصطلح عالمياً. وقد سُمّي على اسمه لاحقًا أحد المذنبات تكريماً لإسهاماته العلمية.

3. Fred Hoyle, The Intelligent Universe (London: Michael Joseph, 1983), in Walter L. Bradley and Charles B. Thaxton, "Information and the Origin of Life," in The Creation Hypothesis, ed. Moreland, 190-91. Cited in: Ken Boa; Robert M. Bowman, 20 Compelling Evidences That God Exists: Discover Why Believing in God Makes So Much Sense (Kindle Locations 949-952). David C Cook. Kindle Edition.

4.Fred Hoyle: Evolution from Space, Simon and Schuster, New York, 1984, p. 176. See also the last chapter of their book, Cosmic Life Force, Dent, London, 1988. Cited in: John C. Lennox: God's Undertaker: Has Science buried God? Lion Hudson plc 2009, Page 164, 165.

5. فرانسيس كريك (Francis Crick): عالم أحياء جزيئية بريطاني (1916-2004)، شارك مع جيمس واتسون في اكتشاف التركيب الحلزوني المزدوج للحمض النووي (DNA) عام 1953، وهو اكتشاف غيّر جذرياً فهمنا للوراثة والحياة، ونالا بسببه جائزة نوبل في الطب عام 1962. لاحقاً اهتم بدراسة العقل والوعي، وشارك في طرح فرضية "البذور الموجّهة" التي تقترح أن أصل الحياة على الأرض قد يكون جاء من خارجها بطريقة مقصودة.

بمعنى ما- تبدو نشـــأة الحياة في الوقت الحالي على الأغلب مُعجزة، فكثيرة جدًّا هي الظُّرُوف التي كان ينبغي عليها أن تكون مضــبوطة، من أجل السَّماح بنشأة الحياة" [1]

العالِم البريطاني **بول ديفيس** يقول: "**تُشـــير التَّقديرات إلى أنَّ الحياة لو تم تركها لتنشـأ بشـكل طبيعي، فإنَّ محلول مُركَّز من الأحماض الأمينية، سـيحتاج إلى حجم سـائل بحجم الكون المرصـود، لكي يمشـي في عكس اتِّجاه قوانين الدِّيناميكا الحرارية**، من أجل تكوين ببتيدات صــغيرة بشـــكل تلقائي. بشـكلٍ واضـحٍ، إنَّ الخلط الجزيئي العشـوائي ليس ذا فائدة تُذكر عندما يشير سهم الاتِّجاه للطَّريق الخاطئ". [2]

خلاصــة القول إن نشــأة الحياة ليســت مســألة يمكن تجاوزها بســهولة أو تفسـيرها بمحض الصـدفة والظروف المادية فقط، بل إن الأدلة والبراهين تشـير بوضــوح إلى أن التفســيرات الطبيعية والعشــوائية تقف عاجزة أمام التعقيد الهائل والإحكام الدقيق الذي تتطلبه عملية نشوء أول بروتين قادر على النسخ الذاتي، فضلاً عن نشأة الحياة نفسها.

وعندما نجد العلماء الماديين يلجؤون إلى سـلسـلة من الفروض الخيالية [3] التي تزيد الطين بَلَّة بدل تقديم حلول واقعية، فهم وكأنهم فارين كما تفر الشاة من الضبع عن فكرة التصميم او وجود مصمم أو مدبر لهذا العالم، وعندما تطلع على ما كتبوه وافترضـوه سـتدرك عمق المأزق الذي وقعوا فيه، فمن غير المعقول أن نرفض فكرة الإعجاز أو التصـميم الذكي بحجة غياب الأدلة المادية، بينما نحتضــن فرضــيات بعيدة المنال تقوم على احتمالات ضــئيلة إلى حد التلاشــي فقط لان فلان وعلان غير مقتنعين بفكرة وجود مصــمم ومدبر لهذا العالم!!

---

1 .Francis Crick ,Life Itself (New York: Simon and Schuster, 1981), 88. Cited in: Lee Strobel ,The Case for a Creator (Kindle Locations 720-723). Zondervan. Kindle Edition.

2 . The Fifth Miracle, London, Allen Lane, Penguin Press, 1998, p60. Cited in: John C. Lennox: God's Undertaker: Has Science buried God?, Lion Hudson plc 2009, Page 127, 128.

3. انظر وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، بحث فرضيات النشوء.

إذن، وبعيداً عن التحيزات الأيديولوجية، نجد أن العقل والعلم يقودان إلى نتيجة واحدة لا مفر منها: **أن نشأة الحياة بهذا التعقيد والإتقان تشير إلى وجود مصمم حكيم**، وضع القوانين وسخرها لتحقيق هذا النظام المتكامل الذي نراه اليوم.

من جين إلى جين: كيف يبرمج الـدنا (DNA) الكائنات الحية؟!

في مناقشـة نشـوء الحياة على الأرض [1]، تعرفنا على مقدار التحدي الكبير الذي نواجه في تفسـير ظهور البروتينات القادرة على النسـخ الذاتي والتفاعل مع بعضـــها بشـــكل معقد ومنظم يفوق اكبر الأجهزة التي انتجتها الحضـــارة الإنسانية الى يومنا هذا، وحتى لو افترضنا أن الحياة نشأت بالصدفة، ينتقل بنا السـؤال الى كيف يمكن تفسـير وجود المعلومات المعقدة داخل جزيء الـــــدنا الذي يحمل كل التعليمات اللازمة لبناء وتشـــغيل الكائنات الحية؟!، فالبروتينات القادرة على النسـخ الذاتي، التي تعتبر حجر الزاوية في نشـوء الحياة، لا يمكنها أن تنشأ من تلقاء نفسها دون وجود قاعدة معلوماتية دقيقة وقابلة للتكرار.

فإذا كانت البروتينات قد تشـــكلت بالصـــدفة، فكيف يمكن أن تحتوي على تلك التعليمات المعقدة التي تنظم العمليات الحيوية وتحدد وظائف الخلايا بشـــكل دقيق؟! الـدنا الـذي يحمـل المعلومـات الوراثيـة، هو في الواقع أعظم "شـــيفرة" معقدة من المعلومات التي تدير بناء الكائنات الحية وتنظيم حياتها بالكامل. لكن بالإضافة إلى الدنا، هناك الـ RNA، الذي يعد أيضاً جزءاً أساسيا في هذه العملية المعقدة، هل الصـــدفة جاءت بصـــورة ترادفيه بعقول من ينكرون المصـــمم الحيكم ام انها جاءت مرة واحدة كمعجزة قاهرة لوت عنق الطبيعة وصنعت ما تريد واختفت؟!! [2]

الـــــ RNA لا يقل أهمية عن الدنا، بل هو الوســيط الذي يســاعد في نقل التعليمات الجينيـة من الـدنـا إلى البروتينـات، التي تشـــكـل الأســـاس للبنيـة

---

1. يقول بو ديفيز "والذي يبدو للعيان أن التعمق الزائد في المسألة من شأنه زيادة عمق السر. **إن الخلية الحية هي أكثر النظم في حجمها تعقيداً لدى البشرية**. إنها تحتضن جزيئات متخصصة، لا يمكن العثور عليها هنا أو هناك، وإنما فقط في المواد الحية، وهي نفسها غاية في التعقيد. إنها تنفذ ما يشـبه الرقصـة المختارة بعناية والدقيقة لأبعد حد. **والإخلاص الكامل، والانضـباط الأقصـى، وهي صـفات تخطف الأنفاس وتتعاون معاً في أوركسـترا متناغم**. وبشـكل أوسع وأكبر كثيرا من أعقد "الباليهات"، ورقصـة الحياة تلك، تشـمل ما لا يمكن إحصاؤه من الجزيئات المتعاونة معاً بشكل كامل. ولو أن هذه الرقصة لا إشارة فيها لأي مسئول عن وضع الألحان. لا مشرف عبقرياً ولا قوة سحرية، ولا إدارة واعية تؤرجح الجزيئات، لتختار منها الصـالح وفى الوقت المناسـب، وتغلق الفجوات، ولا تزاوج بين الشـركاء، ولكن تدفعهم للأمام. رقصـة الحياة تمضـي بشـكل تلقائي وعضـوي، خالقة ذاتها ومسـتمرة بذاتها. **كيف يمكن لشـيء أن يبلغ هذه الدرجة القصـوى من التعقيد؟ وهذه البراعة والدقة البالغة، وهذه المهارة الفاتنة شـديدة الحساسـية، وكل هذا يأتي للوجود بذاته؟ وكيف الجزيئات - غير العاقلة - أن تصـبح قابلة فقط للدفع والجذب مع جيرانها المباشـرين، ليتعاونا في الإبقاء على شـيء في عبقرية حياة النظم العضـوية الحية**؟" في كتابه أصل الحياة، ص 44.

2. حتى فرانسـيس كريك، أحد مكتشـفي تركيب الحمض النووي، وصـف اسـتمرار الحياة بأنه "**تكاد تكون معجزة**" بسـبب وفرة الشـروط اللازمة لنشـــوء الحياة، وهذا نص كلامه الذي ينقله عالم الفيزياء المشـــهور بول ديفيز في كتابه أصـــل الحياة "**يبدو أنها تكاد تكون معجزة، لوفرة المشـارطات التي من الممكن ان أتجعل الحياة مسـتمرة في السـريان**". كلمة "المشـارطات" تعني الشـروط أو المتطلبات أو الظروف التي يجب أن تتحقق لكي تستمر الحياة.

والوظائف الخلوية، يمكننا وصف الـ RNA بانه حلقة وصل حيوية بين الجينات التي تحتوي على المعلومات وبين الآليات التي تنفذ هذه المعلومات، في الحقيقة الـ RNA لا يقوم فقط بنقل التعليمات بل يمتلك أيضاً قدرات تنظيمية وحيوية مثل مساعدة الخلايا في تكوين البروتينات وتوجيه العمليات الحيوية بشكل معقد ودقيق.

فإذا كانت هذه الأنظمة المعقدة قد نشأت بالصدفة، فكيف يمكننا تفسير هذا التنسيق المذهل بين الدنا والـ RNA؟! وكيف يمكن أن تتطور هذه الأنظمة بشكل عشوائي من مادة صماء دون وجود قاعدة معلوماتية منسقة؟! سنستعرض طبيعة المعلومات المخزنة في الدنا [1]، ونحلل تعقيدها وتنظيمها المذهل، لنستخلص أنها دليل واضح على وجود مصمم حكيم ومدبر عليم وهو الله سبحانه وتعالى "**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**" [2].

سأحاول قدر الإمكان تبسيط الموضوع دون الاضرار فيه. في عالم الكائنات الحية تكمن أسرار الحياة في تفاصيل دقيقة ومعقدة، حيث تعمل مليارات الخلايا بتناغم مذهل لتحافظ على استمرارية الحياة. داخل كل خلية من هذه الخلايا، يوجد نظام معلوماتي فريد يعرف باسم **الجينوم**، وهو بمثابة الكتاب الذي يحوي تعليمات بناء وتشغيل الكائن الحي، هذا الكتاب مكتوب بلغة خاصة تتكون من أربعة أحرف فقط: الأدينين والثايمين والسيتوزين والجوانين هذه الحروف أو القواعد النيتروجينية تشكل الشفرة الوراثية التي تحدد كل شيء من لون العين إلى مقاومة الأمراض.

لكن ما يجعل الجينوم أكثر إثارة للدهشة هو حجمه وتعقيده، حيث يحتوي الجينوم البشري على حوالي **3.2 مليار** زوج من القواعد النيتروجينية، فإذا قمنا بكتابة هذه القواعد فإن طول النص الناتج سيكون تقريباً مساوياً لطول نهر النيل! هذا الكتاب الضخم محفوظ داخل نواة كل خلية، والتي لا يتجاوز حجمها جزءاً من مئة جزء من المليمتر تقريباً. بالإضافة إلى ذلك يتميز الحمض النووي

---

1. "في اثناء صياغتي العلمية لنظرية التصميم الذكي اعتماداً على الخصائص المعلوماتية للدنا، تنبهت الى ان مجرد الظواهر والتسلسلات المعقدة او قليلة الاحتمال من الممكن ان تظهر عبر اليات طبيعية غير موجهة. وفي المقابل، لقد استدللت بناءً على خبرتنا العلمية المطردة بان التسلسلات التي تتصف بكل من التعقيد والتخصص الوظيفي "غنية بالمحتوى المعلوماتي او المعلومات المتخصصة"، **لا تنشا إلا من فعل عامل ذكي**." التصميم الذكي، فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ترجمة محمد طه، ص 67.

2. النمل: 88.

بقدرته على الترميز، حيث يمكنه تخزين كميات هائلة من المعلومات في مساحة صغيرة جداً؛ فعلى سبيل المثال يمكن لجرام واحد من الحمض النووي تخزين حوالي **215 مليون** غيغابايت من البيانات! كما يتمتع الحمض النووي بالقدرة على الإصلاح الذاتي، حيث يمتلك آليات إصلاح مذهلة تمكنه من تصحيح الأخطاء التي قد تحدث أثناء عملية النسخ، مما يضمن استمرارية المعلومات الوراثية بدقة عالية. فالجينوم ليس مجرد كتاب للقراءة؛ بل هو نظام ديناميكي قادر على **نسخ نفسه** و**ترجمة** معلوماته إلى بروتينات، وهي الجزيئات التي تقوم بمعظم الوظائف الحيوية في الخلية، فعملية النسخ تتم من خلال تفاعلات كيميائية دقيقة، حيث ترتبط القواعد النيتروجينية ببعضها البعض وفقاً لقواعد محددة، هذا الارتباط التكميلي هو الذي يسمح للحمض النووي بالحفاظ على شكله اللولبي المزدوج الشهير، والذي اكتشفه العالمان **جيمس واتسون** [1] و**فرانسيس كريك** عام 1953م.

مكونات الدنا (DNA):

🔷 السكر الخماسي (ديوكسيريبوز):

السكر الخماسي هو أحد المكونات الرئيسية للنوكليوتيدة، وهو نوع من السكر يحتوي على خمس ذرات كربون، ويشكل الهيكل الأساسي للنيوكليوتيد، ويتم ترقيم ذرات الكربون من 1 إلى 5، حيث ترتبط القاعدة النيتروجينية بذرة الكربون 1، بينما ترتبط مجموعة الفوسفات بذرة الكربون 5، وله دورٌ أساسي في تشكيل الهيكل العام للحمض النووي. شكل السكر الخماسي وطريقة ارتباطه مع المكونات الأخرى تعكس تصميماً دقيقاً لا يمكننا تجاهله، فلو تغيرت ذرة واحدة في هذا السكر، لاختلَّت وظيفة الحمض النووي بالكامل.

---

1. جيمس واتسون (James D. Watson): عالم أحياء جزيئية أمريكي، وُلد عام 1928، اشتهر باكتشافه مع فرانسيس كريك التركيب الحلزوني المزدوج لجزيء الحمض النووي (DNA) عام 1953، بالاعتماد على بيانات حيود الأشعة السينية التي حصلت عليها روزاليند فرانكلين. نال مع كريك وموريس ويلكنز جائزة نوبل في الطب عام 196، ويُعد أحد رواد علم الوراثة الجزيئية الحديث.

🔷 مجموعة الفوسفات:

مجموعة الفوسفات تتكون من ذرة فوسفور محاطة بأربع ذرات أكسجين، وهي تعمل كحلقة وصل بين النيوكليوتيدات المتجاورة، حيث ترتبط مجموعة الفوسفات مع السكر الخماسي لتشكيل العمود الفقري لسلسلة الحمض النووي، وبدورها تعطي السلسلة شحنة سالبة، مما يساعد في استقرارها، ارتباط مجموعة الفوسفات مع السكر الخماسي يتم بشكل محكم غاية الاحكام، مما يسمح للسلسلة بالحفاظ على شكلها الحلزوني المزدوج.

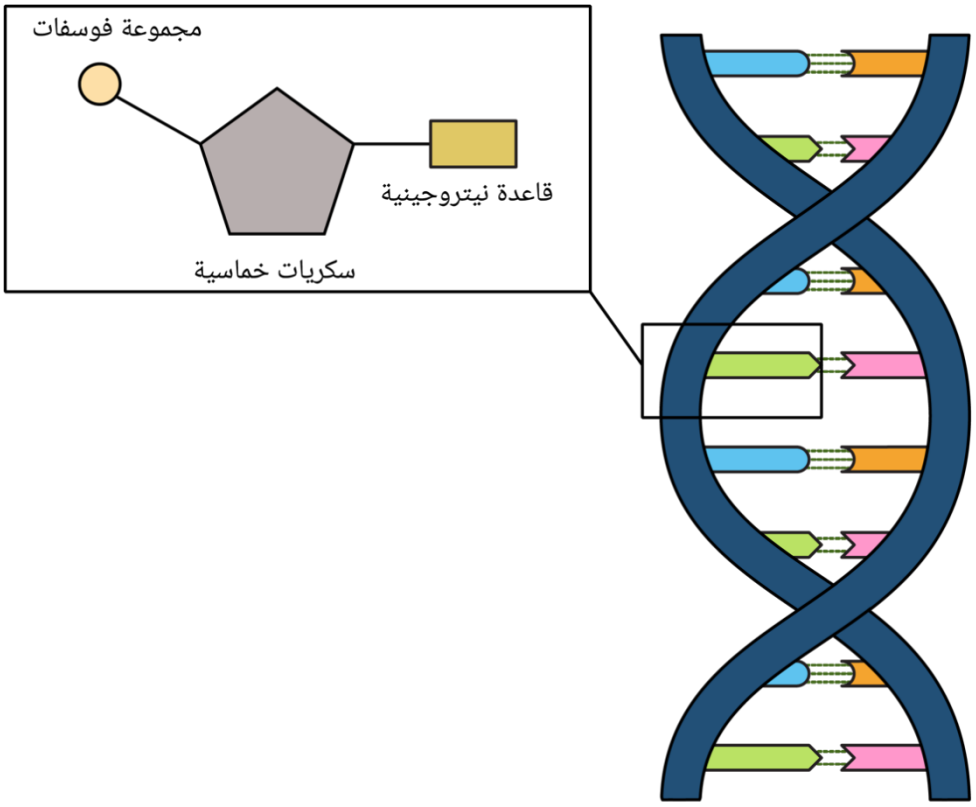

شكل 1: شكل يوضح جزيء الحمض النووي (DNA) وموضع نيوكليوتيدة واحدة في الجزيء.

🔷 القواعد النيتروجينية:

القواعد النيتروجينية هي التي تحمل المعلومات الوراثية، وتُعتبر بمثابة "حروف" الشفرة الوراثية، وهناك أربع قواعد: أدينين (A)، ثايمين (T)، سيتوزين (C)، وجوانين (G). ترتبط هذه القواعد ببعضها البعض عبر روابط هيدروجينية وفقاً لقاعدة التكامل: الأدينين يرتبط مع الثايمين (A-T) برابطتين

هيـدروجينيتين، بينمـا يرتبط السـيتوزين مع للجوانين (C-G) بثلاث روابط هيـدروجينيـة، هـذا الترابط التكميلي هو الـذي يُعطي الحمض النووي شـكله اللولبي المزدوج ويسـمح بنسـخ المعلومات الوراثية بدقة منقطعة النظير. يمكن تشـبيه الشـفرة الوراثية بلغة مكونة من أربع حروف فقط، وباسـتخدام هذه الحروف يمكن كتابة "كتب" كاملة تحوي تعليمات لبناء كائن حي بكامل تفاصـيله، هذا النظام البسـيط في مكوناته، المعقد في وظائفه، الا يعكس تصميماً ذكياً؟!!

لكن هنا نطرح اسـتفهاما مهما: **هل هذه القواعد النيتروجينية تمتلك خصـائص كيميائية تجعلها تتركب بطريقة واحدة فقط؟** بعبارة أخرى، هل الخصـائص الكيميـائيـة للقواعـد هي التي تحـدد ترتيبهـا في الحمض النووي بشكل حصري؟

يجيبنا عن هذا السـؤال العالم **مايكل بولاني** [1] من خلال مقالين نشـرهما بهذا الخصـوص، حيث أشـار إلى أن المعلومات المخزنة في الحمض النووي لا يمكن اختزالهـا في القوانين الفيزيـائيـة أو الكيميـائيـة وحـدهـا. بمعنى آخر، الخصـائص الكيميائية للقواعد النيتروجينية تسـمح لها بالارتباط ببعضـها البعض بعدة طرق مختلفة، وليس بطريقة واحدة محددة، على سـبيل المثال القواعد النيتروجينية يمكن أن تتشـكل بطرق كثيرة على طول العمود الفقري للحمض النووي (سـلسـلة السـكر والفوسـفات)، فالخصـائص الكيميائية تسـمح بوجود العـديـد من التركيبـات الممكنـة، ولكن الترتيـب الفعلي للقواعـد في الحمض النووي ليس محددا بواسـطة هذه الخصـائص وحدها، بل إن الترتيب الدقيق للقواعد هو ما يشـكل المعلومات الوراثية، وهو ما يجعل الحمض النووي نظاما فريدا لتخزين المعلومات. هذا يعني أن القوانين الكيميائية والفيزيائية، رغم أهميتها، لا تكفي لتفسير سبب وجود تسلسل محدد للقواعد في الحمض النووي. بل إن هذا التسـلسـل يعكس وجود معلومات مخزنة بشـكل هادف ومدروس، وهو ما يشـير إلى وجود تصـميم ذكي وراء هذا النظام المعقد، واقتبس من كلامه الذي ينقله د. سـتيفن ماير "**كما ان ترتيب الحروف ليس**

1. مايكل بولاني Michael Polanyi (1891 – 1976 م) كان عالما وفيلسـوفا مجريا بريطانيا، اشـتهر بإسـهاماته في الكيمياء الفيزيائية، والاقتصـاد، وفلسفة العلم.

نتاجاً للتفاعل الحتمي الكيميائي بين الحبر والورق، فكذلك تسلسل القواعد في جزيء الدنا ليس نتاجاً للقوى الكيميائية الفاعلة في الدنا"[1].

🔷 الشكل الحلزوني المزدوج:

اكتشف العالمان جيمس واتسون وفرانسيس كريك عام 1953م أن جزيء الحمض النووي يتخذ شكل لولب مزدوج، يتكون اللولب من سلسلتين طويلتين من النيوكليوتيدات تلتفان حول بعضهما البعض بشكل حلزوني، تُعرف هذه السلسلتان باسم خيطي الحمض النووي، وهما متكاملتان أي أن تسلسل القواعد في أحد الخيطين يحدد تسلسل القواعد في الخيط الآخر. يتميز الشكل اللولبي المزدوج بوجود أخاديد كبيرة وصغيرة بين الخيطين، تلعب دوراً مهماً في تفاعل الحمض النووي مع البروتينات والإنزيمات، هذا الهيكل الفريد يوفر استقراراً لجزيء الحمض النووي ويسمح بتخزين المعلومات الوراثية بشكل آمن.

بعد أن تعرفنا على المكونات الأساسية للحمض النووي (DNA)، وهي النيوكليوتيدات المكونة من السكر الخماسي ومجموعة الفوسفات والقواعد النيتروجينية، ننتقل الآن إلى فهم كيف تُنظم هذه المكونات لتشكل الوحدات الوظيفية التي تحمل أسرار الحياة، هذه الوحدات هي "الجينات" التي تحمل المعلومات الوراثية، و"الكروموسومات" التي تُنظم هذه الجينات وتحميها، من خلال الكلمات القادمة سنرى كيف تترابط هذه العناصر لتُظهر لنا عظمة المصمم في تصميم الحياة.

الجينات هي أجزاء محددة من الحمض النووي تحتوي على تسلسل من القواعد النيتروجينية (A, T, C, G) التي تشفر المعلومات الوراثية، كل جين هو بمثابة فصل في كتاب كبير، يحتوي على تعليمات محددة لصنع بروتين معين أو تنظيم عملية حيوية، هذه البروتينات هي التي تشكل البنية الأساسية للخلايا وتنفذ وظائفها الحيوية، من تحريك العضلات إلى هضم الطعام وحتى التفكير والإحساس. لكن الجينات لا تعمل بمعزل عن بعضها البعض، بل هي

---

1. انظر التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ص 36.

جزء من هيكل أكبر وأكثر تعقيداً يُسمى "الكروموسومات"، وهي هياكل تشبه الخيوط الطويلة، تتكون من جزيء الحمض النووي الملفوف حول بروتينات خاصة تُسمى الهيستونات، هذه البروتينات تساعد في تنظيم الحمض النووي وتكثيفه ليتناسب داخل النواة الصغيرة للخلية، ففي الخلية البشرية، هناك 46 كروموسوماً، مرتبة في 23 زوجاً، تحمل جميعها المعلومات الوراثية اللازمة لبناء الجسم وتشغيله.

عندما نتمعن في كيفية تنظيم الجينات داخل الكروموسومات، نرى تصميماً دقيقاً ومحكماً، حيث كل جين له مكان محدد على الكروموسوم، وهناك آليات معقدة تتحكم في نشاط الجينات، بحيث تعمل في الوقت المناسب وبالقدر المناسب، هذه الآليات تضمن أن الخلية تستجيب بشكل صحيح للتغيرات البيئية والاحتياجات الوظيفية، هي تشبه إدارة مكتبة ضخمة حيث يتم فتح الكتب "تنشيط الجينات" التي يحتاجها القارئ "الخلية" في الوقت المناسب، بينما تبقى الكتب الأخرى مغلقة "جينات غير نشطة"، هذا النظام يسمح للخلية بالاستجابة للتغيرات البيئية والداخلية بكفاءة عالية، لو لم يكن هذا النظام موجودا، لاختلَّت وظائف الخلية ولتعرضت الكائنات الحية للفوضى، ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فالجينات والكروموسومات ليست فقط مسؤولة عن بناء الكائنات الحية، بل تلعب أيضاً دوراً رئيساً في عملية تطور الكائن الحي، من خلال الطفرات وهي تغيرات في تسلسل القواعد النيتروجينية، تتغير على أثرها صفات الكائنات الحية بمرور الوقت، بعض هذه الطفرات قد تكون مفيدة، مما يمنح الكائن الحي ميزة في البقاء والتكاثر، بينما قد تكون الأخرى ضارة وتسبب أمراضاً وراثية [1]، هذا التنوع الوراثي هو الذي يدفع عملية التطور ويشكل التنوع الهائل للحياة على الأرض. وهنا اقتبس بعض الكلمات من كتاب "نقاش التصميم: من داروين إلى الحمض النووي" " Debating Design: From Darwin to DNA" [2] حيث يشير الى ان ما موجود من معلومات في الدنا هو نتاج ذكاء وليس مادة صماء.

1. سنجيب لاحقاً على ان هذا الامر في انه لا يضر في نفي الحكمة والنظام في هذا الكون والخلق.

2. كتاب "Debating Design: From Darwin to DNA"من تأليف ويليام أ. ديمبسكي (William A. Dembski)، الفيلسوف والرياضياتي المعروف بدفاعه عن نظرية التصميم الذكي، ومايكل روس (Michael Ruse)، الفيلسوف المتخصص في فلسفة العلم والتطور والمدافع عن النظرية الداروينية. يقدم الكتاب مجموعة من المقالات التي تناقش الجدل بين أنصار التصميم الذكي والتطور الداروينى، بمشاركة عدد من الكتاب والعلماء البارزين.

"In the first place, intelligent human agents have demonstrated the power to produce linear sequence-specific arrangements of characters. Indeed, experience affirms that information of this type routinely arises from the activity of intelligent agents. A computer user who traces the information on a screen back to its source invariably comes to a mind – that of a software engineer or programmer. The information in a book or inscription ultimately derives from a writer or scribe – from a mental, rather than a strictly material, cause. Our experience-based knowledge of information flow confirms that systems with large amounts of specified complexity (especially codes and languages) invariably originate from an intelligent source – from a mind or personal agent. To quote Henry Quastler again: the 'creation of new information is habitually associated with conscious activity' (1964, 16). Experience teaches this obvious truth".[1]

ترجمة: "**في المقام الأول، أثبتت العوامل البشرية الذكية قدرتها على إنتاج ترتيبات محددة التسلسل للأحرف. في الواقع، تؤكد الخبرة أن معلومات من هذا النوع تنشأ بشكل روتيني من نشاط العوامل الذكية. المستخدم الذي يتتبع المعلومات على الشاشة إلى مصدرها يصل دائماً إلى عقل - عقل مهندس برمجيات أو مبرمج. المعلومات في كتاب أو نقش تستمد في النهاية من كاتب أو ناسخ - من سبب عقلي، وليس ماديًا بحتًا. معرفتنا المستندة إلى الخبرة بتدفق المعلومات تؤكد أن الأنظمة التي تحتوي على كميات كبيرة من التعقيد المحدد (خاصة الرموز واللغات) تنشأ دائمًا من مصدر ذكي - من عقل أو عامل شخصي. كما قال هنري كواسلر: "إن إنشاء معلومات جديدة يرتبط عادة بالنشاط الواعي" (1964، 16). الخبرة تعلمنا هذه الحقيقة الواضحة.**"

بعد أن تعرفنا على الحمض النووي (DNA) ودوره العظيم في تخزين المعلومات الوراثية، ننتقل الآن إلى جزيء آخر لا يقل أهمية، وهو "الحمض النووي الريبوزي (RNA)"، إذا كان الدنا يُشبه الأرشيف الذي يحفظ أسرار الحياة، فإن RNA هو الرسول الذي ينقل هذه الأسرار وينفذها.

RNA هو جزيء مشابه للدنا في بعض النواحي، ولكنه يختلف في تفاصيل مهمة، بينما يتكون الدنا من سلسلتين طويلتين تلتفان حول بعضهما البعض، فإن RNA عادة ما يكون أحادي السلسلة، مما يمنحه مرونة أكبر في أداء وظائفه المتعددة، يتكون RNA من وحدات بنائية تسمى النيوكليوتيدات،

1 .William A. Dembski and Michael Ruse, Debating Design: From Darwin to DNA (Cambridge University Press, 2004), p. 387.

التي تحتوي على سكر الريبوز ومجموعة الفوسفات وقواعد نيتروجينية، ولكن بدلاً من قاعدة الثايمين الموجودة في الدنا، يحتوي RNA على قاعدة اليوراسيل، مما يجعله فريداً في تركيبته ووظائفه. ووظائف RNA في الخلية متنوعة وحيوية، أحد أهم أدواره هو نقل المعلومات الجينية من الدنا في النواة إلى الريبوسومات في السيتوبلازم، حيث يتم تصنيع البروتينات، هذا النوع من RNA يُسمى "RNA الرسول (mRNA)" وهو بمثابة نسخة مؤقتة من التعليمات الجينية التي يتم إرسالها إلى مصانع الخلية لتنفيذها، ولكن RNA لا يقتصر على نقل المعلومات فقط، بل يشارك أيضاً في عملية تصنيع البروتينات، فهناك نوع آخر من RNA يُسمى "RNA الناقل (tRNA)" وهو مسؤول عن نقل الأحماض الأمينية إلى الريبوسومات، حيث يتم تجميعها لتكوين البروتينات، بالإضافة إلى ذلك، هناك "RNA الريبوسومي (rRNA)"، الذي يشكل جزءاً من الريبوسومات نفسها، وهي الهياكل الخلوية المسؤولة عن تصنيع البروتينات. هل انتهت مهام RNA لا طبعا، هناك أنواع أخرى من RNA تلعب أدوارا تنظيمية معقدة، على سبيل المثال "RNA الميكروي (miRNA)" يمكنه التحكم في نشاط الجينات عن طريق منع ترجمة mRNA إلى بروتينات، هذا النوع من التنظيم يسمح للخلية بالاستجابة بمرونة للتغيرات البيئية والاحتياجات الوظيفية، بالإضافة إلى ذلك هناك "RNA الصغير المتدخل (siRNA)" الذي يحمي الخلية من الفيروسات عن طريق تدمير RNA الفيروسي، هذه الأدوار المتعددة لـــ RNA تُظهر لنا أن هذا الجزيء الصغير ليس مجرد وسيط، بل هو جزء أساسي من الشبكة المعقدة التي تدير الحياة.

لم تنتهي القصة هنا؛ تخيل معي أن الحمض النووي (DNA) هو كتاب ضخم يحوي كل أسرار الحياة، وهذا الكتاب مكتوب بلغة خاصة تتكون من أربع حروف فقط: الأدينين (A)، الثايمين (T)، السيتوزين (C)، والجوانين (G)، كل صفحة من هذا الكتاب تحتوي على تعليمات لبناء بروتينات معينة، وهي الجزيئات التي تقوم بمعظم الوظائف الحيوية في الخلية، ولكن ماذا لو حدث خطأ مطبعي في هذا الكتاب؟ ماذا لو تم استبدال حرف بآخر، أو حذف كلمة مهمة، أو إضافة جملة زائدة؟ هذه الأخطاء قد تؤدي إلى تشوهات أو أمراض خطيرة. هنا يأتي

دور نظام تصـــحيح الأخطاء، الـذي يعمـل كفريق من المراجعين الخبراء الـذين يفحصون كل كلمة في الكتاب ويصلحون الأخطاء قبل أن تسبب مشاكل كبيرة.

كيف تحدث الأخطاء؟

عندما تنقسم الخلية، يتم نسخ الحمض النووي بواسطة إنزيمات متخصصة تســمى البوليميرازات، هذه الإنزيمات تعمل بســرعة فائقة حيث تقوم بنســخ ملايين القواعد النيتروجينية في وقت قصــير. تخيل أن هذه الإنزيمات تشــبه طابعة ســريعة جداً تطبع ملايين الحروف في دقائق معدودة، ومع ذلك وعلى الرغم من هذه الســرعة والدقة، قد تحدث أخطاء أثناء عملية النســخ، هذه الأخطاء يمكن أن تكون بسـيطة، مثل اسـتبدال قاعدة نيتروجينية بأخرى (مثل اســتبـدال الأدينين (A) بـالثـايمين (T))، أو أكثر تعقيـداً، مثـل حـذف جزء من التسلسل أو إضافة قواعد زائدة، هذه الأخطاء هي ما يُعرف بالطفرات الجينية.

أنظمة إصلاح الأخطاء!

تحتوي الخلية على عدة أنظمة إنزيمية متخصــصــة لاكتشــاف وإصــلاح الأخطاء في الحمض النووي، هذه الأنظمة تعمل بشــكل تلقائي وفوري، مما يضــمن الحفاظ على دقة المعلومات الوراثية، عندما تقوم إنزيمات البوليميراز بنســخ الحمض النووي، فإنها تتحقق من دقة النســخ في كل خطوة، فإذا تم اكتشاف خطأ يتم إصلاحه على الفور، هذا النظام يشبه مراجعاً يقوم بمراجعة كل كلمة يكتبها لضــمان عدم وجود أخطاء، بعد انتهاء عملية النســخ، تقوم إنزيمات أخرى بمراجعة التســلســل الجديد للتأكد من تطابقه مع التســلســل الأصلي، و إذا تم اكتشاف عدم تطابق في مكان يتم إصلاحه مباشرة، بالإضافة إلى ذلك قد يتعرض الحمض النووي للتلف بسـبب عوامل خارجية، مثل الأشـعة فوق البنفسجية أو المواد الكيميائية، في هذه الحالة تقوم إنزيمات متخصصة بإصلاح القطع في الحمض النووي، وكانه فريق إصلاح متخصص يقوم بإصلاح كابل مقطوع لاستعادة الاتصال. إنزيمات البوليميراز تقوم بنسخ الحمض النووي

بدقة تصـــل إلى خطأ واحد لكل مليار قاعدة نيتروجينية! هذه الدقة الفائقة تعكس تصـميماً دقيقاً لا يمكن أن يكون وليد الصـدفة، بالإضـافة إلى ذلك تقوم إنزيمـات إصـــلاح عـدم التطابق بـاكتشـــاف الأخطـاء التي قـد تفوت إنزيمـات البوليميراز، مما يزيد من دقة النسخ، وإنزيمات إصلاح القطع تقوم بإصلاح التلف الذي قد يحدث بسـبب العوامل الخارجية، مما يضـمن اسـتمرار الخلية في العمل بشكل سليم.

هذه الأنظمة ماذا توحي؟! ببســاطة وباتفاق العقول الســليمة انها توحي وتؤكـد علـــــى فكرة أن الحمض النووي هو نظـام معلومـاتي معقـد يتجـاوز التفسـيرات الكيميائية والفيزيائية البحتة [1]، مما يشـير إلى وجود تصـميم ذكي، فمن يُصـــر على قوله بان الصـــدفة هي التي اوجدت هذه التحفة العظيمة "الدنا"، فهو يؤمن بان انفجارا في مطبعة يمكنه ان ينتج لنا قاموســـا لغوياً مقسماً ومفهرساً ومسموعاً ...!!

هل يمكن أن تصدر المادة الصماء أوامراً؟!

في الكائنات الحية الحمض النووي لا يقتصـــر فقط على تخزين المعلومات الجينية، بل هو يشـكل البنية الأسـاسـية لإصـدار أوامر معقدة داخل الخلية، هذه الأوامر تتحكم في كافة العمليات الحيوية التي تضـــمن حياة الكائنات الحية، بدءاً من تكوين الخلايا، ومروراً بتنظيم الأنشـطة الكيميائية داخل الخلية، وصـولاً إلى اسـتجابة الكائن الحي للمؤثرات البيئية، أي انه مسـؤول عن كل شـيء في جسم الكائن الحي.

الشـيفرة الوراثية، التي تتكون من تسـلسـل القواعد النيتروجينية في الدنا، هي في الأســـاس "**لغـة**" مبرمجـة تحتوي على تعليمـات دقيقـة تنظم حيـاة

1. "احتواء المعلومات Information content: في الســـنوات الاخيرة ركز العلماء على المشـــابهة بين النظم العضـــوية الحية والكمبيوترات. إنّها مسألة حاسمة أن المعلومات ستكون محل احتياج في إعادة نسخ نظام عضوي معتمدة على الجينات المنقولة من الآباء لكي يحققوا الإثمار أو نماء للذرية. وهكذا فإن الحياة هي تقنية معلوماتية مكتوبة بخط صـــغير. ولكن مرة أخرى فإن المعلومات على هذا النحو لن تكون كافية. ثمة معلومات اعتراضـية تعنيها الأوراق السـاقطة في الغابة، ولكن هذا لا يعنى شـيئًا. لكي تكون المعلومات قيِّمة في مجال وصـف الحياة لا بد أن تكون معلومات لها معنى للنظام الذي يستقبلها: لا بد أن ثمة «كتابًا» معينًا، وبكلمات أخرى فلا بد أن تكون المعلومات متخصصة. ولكن من أين جاء هذا الكتاب؟ وكيف لهذا التخصص النافع أن ظهر عفويًا في الطبيعة؟" انظر أصل الحياة، بول ديفيز، ص52.

الكائن الحي، لكن السؤال الأساسي هنا هو: كيف يمكن لمادة صماء مثل الحمض النووي أن تكون قادرة على إصـدار تعليمات معقدة لتنظيم مثل هذه العمليات الدقيقة؟!! هذا التسـاؤل يكشـف عن واحدة من أعظم المفارقات التي يواجهها العلماء، حيث أن هذه الأنظمة المعقدة لا يمكن أن تكون قد نشـأت عن طريق الصدفة أو العمليات العشوائية.

الجواب يكمن في حقيقة أن الشـيفرة الوراثية ليسـت مجرد تسـلسـل عشـوائي للقواعد النيتروجينية، بل هي مجموعة من التعليمات المُركبة بدقة فائقة، كل منها مرتبط بوظيفة بيولوجية معقدة. من خلال عملية "الترجمة" يمكن للحمض النووي أن "يأمر" الخلية بإنتاج البروتينات المناسـبة في اللحظة المناسـبة، وبالتالي تنفيذ الأنشـطة الضـرورية للحفاظ على الحياة، وكأن هذه الأنظمة البيولوجية تملك قدرة على "التخطيط والتنظيم" لحياة الكائن الحي. وإجابة هذا التسـاؤل لا تأتي من العلم التجريبي فقط، بل من التفكر العميق في طبيعة هذه الأنظمة المعقدة. فإذا كانت الشـيفرة الوراثية قادرة على إصدار أوامر معقدة وتحقيق تنسيق داخلي بين الأنظمة البيولوجية المتعددة، فإن هذا يشـير إلى وجود **مصـمم ذكي** وراء هذه العمليات، وهذا ما يثبته عالم البيولوجيا الأمريكي **دين كنيون** [1] بقوله: "**لو أنَّ العِلْم قائمٌ على أسـاس التَّجربة؛ فإنَّه يُخبرنا بأنَّ الرِّسالة المُشفَّرة في الشَّريط الوراثي لابُدَّ وأن تكون قد نشـأت من سـبب ذكيّ**. أيّ نوع من الفاعلين الأذكياء كان هو؟ لا يسـتطيع العِلْم أن يُجيب على هذا السُّـؤال من تلقاء نفسـه: بل لابُدَّ من أن يدعها للدِّين والفلسـفة. بيد أنَّه ينبغي ألَّا يمنع ذلك العِلْمَ من الإقرار بالأدِلَّة على وُجُود سـبب ذكيّ حيثما تُوجد" [2]. فمن المسـتحيل أن تكون مثل هذه الأنظمة قد نشأت بالصدفة أو من خلال العمليات العشوائية.

فالتعقيد الكامن في النظام البيولوجي يتطلب وجود تصـميم دقيق ومصـمم واعي وذكي لا يمكن أن يتولد من مادة غير حية. كما يؤكد ذلك أحد

---

1. دين كنيون (Dean H. Kenyon): عالم أحياء كيميائية أمريكي، وُلد عام 1939. اشـتهر بأبحاثه حول أصل الحياة. كان في بداياته من المدافعين عن التفسـير التطوري الكيميائي لنشـأة الحياة، وشـارك في تأليف كتاب التطور الكيميائي والبيولوجي (Biochemical Predestination). لاحقاً غيّر موقفه وأصبح من أبرز مؤيدي نظرية التصميم الذكي، مجادلاً بأن التعقيد الحيوي لا يمكن تفسيره بالعمليات العشوائية وحدها.

2 .Dean Kenyon: Of Pandas and People: The Central Question of Biological Origins ,P. Davis and D.H Kenyon, Dallas, Texas, Haughton Publishing Co., 1989, p7. Cited in: John C. Lennox :God's Undertaker: Has Science buried God ? Lion Hudson plc 2009, Page 187.

رواد نظرية المعلومات **هينري كواستلر** [1] قائلا: "**نشوء المعلومات مرتبط بشكل مطرد بنشاط واع وذكي**". [2] فلا يمكن لهذه العمليات المعقدة أن تكون قد حدثت من دون وجود **مصمم ذكي** يوجه الأدوات نحو تنفيذ الخطة المرسومة من قبله تماماً كما أن جهازاً معقداً مثل الكمبيوتر يحتاج إلى مصمم ومبرمج، فإن الجزيئات البيولوجية التي تتحكم في الحياة تحتاج إلى "**مُخطط**" قادر على تنظيم وتوجيه العمليات الحيوية الدقيقة. وكما قال ماير "**وبعبارة أخرى، فقد توصلت من خلال فهمنا القائم على التجربة لبنية علاقة السبب والأثر - أو العلة والمعلول - في هذا العالم، إلى أن التصميم الذكي هو التفسير الأفضل للمعلومات الضرورية لبناء أول خلية.**" [3]

قال تعالى "**وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**" [4]، عند التأمل في التعقيد المذهل والدقة الفائقة للخلية الحية، يتضح أنها ليست نتاج صدفة، بل إبداع إلهي محكم، فالخلية كوحدة أساسية للحياة كما راينا سابقا، تعمل بآليات معقدة ومنظمة، بدءاً من تخزين المعلومات في الحمض النووي وترجمتها إلى بروتينات، وصولاً إلى تنظيم التفاعلات الكيميائية بدقة متناهية، هذه العمليات المعقدة والمتناسقة، التي تحافظ على توازن الخلية وتفاعلها مع البيئة، تشير إلى تصميم ذكي متقن، فلا يمكن لهذا التعقيد أن يكون نتاج عمليات عشوائية بل هو دليل على وجود خالق عليم قدير أبدع الحياة بقدرته وحكمته.

نظرية التطور والارتقاء

لقد أثبتت الأدلة العلمية المتعددة أن الحياة على الأرض نشأت وتطورت من خلال عملية طويلة من **التطور والارتقاء ولم تأتي على شكل دفعة واحدة**، وهذا ما اثبتته نظرية التطور والارتقاء لعالم الاحياء البريطاني شارلز

1. هنري كواستلر (1908 – 1973م): طبيب وعالم معلومات حيوية أمريكي من أصل نمساوي، يُعتبر من الرواد في تطبيق مفاهيم نظرية المعلومات على الأنظمة البيولوجية. ركز كواستلر على العلاقة بين تعقيد الأنظمة الحيوية وكمية المعلومات اللازمة لوصفها. واستخدم مفاهيم مثل الإنتروبيا لشرح جوانب متنوعة من البيولوجيا، مثل تنظيم الخلايا والتطور. من أبرز مؤلفاته كتاب "ظهور التنظيم البيولوجي" (1974م) الذي يُعد مرجعاً هاماً في هذا المجال.
2. انظر التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ص 69.
3. انظر التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ص 58 -59.
4. الجاثية: 4.

داروين [1]، ورغم أن هذه النظرية كانت قد واجهت في بداياتها العديد من الاعتراضات من قِبل بعض الأوساط العلمية والدينية، إلا أن جميع هذه الاعتراضات قد تم دحضها اليوم بالأدلة العلمية، وتعتبر اليوم إحدى الحقائق العلمية الراسخة، ويتم تدريسها في معظم المؤسسات الأكاديمية الرصينة حول العالم كإطار علمي لفهم تطور الحياة وتنوعها، وأي محاولة لتقديم اعتراضات ضد هذه النظرية في الوقت الراهن، سواء من ناحية علمية أو فلسفية فهي محاولة بائسة لا أكثر، وتشير هذه النظرية إلى أن الأنواع الحية التي نراها اليوم، من أبسط الكائنات إلى أكثرها تعقيداً، هي نتاج سلسلة من التغيرات التدريجية التي حدثت عبر ملايين السنين، هذه التغيرات تطرأ على الكائنات الحية عبر **الانتقاء الطبيعي**، وهي الآلية التي تقضي ببقاء الأنواع التي تتكيف مع بيئاتها بشكل أفضل.

فالتنوع البيولوجي الذي نشهده اليوم على الأرض، سواء في النباتات أو الحيوانات أو الكائنات المجهرية، لا يمكن تفسيره إلا من خلال نظرية التطور، فهي توفر إطاراً متكاملاً يشرح كيف ظهرت الأنواع الجديدة وكيف انقرضت الأخرى، وكيف تطورت الأنواع الباقية لتتكيف مع بيئاتها المتغيرة، ويُظهر سجل الأحافير والبيانات الجينية أن الحياة على الأرض تعود إلى مليارات السنين، وأنها خضعت لتغييرات كبيرة بمرور الزمن، وهو ما يؤكد صحة النظرية.

يجد الباحث نفسه أمام معضلة حقيقية عند مقارنة حجج أنصار التصميم الذكي مع تفسيرات الملحدين التطوريين، حيث يتوجب عليه تحديد أي الجانبين يمثل الحقيقة، فقد عمد العلماء المؤيدون لنظرية التطور خصوصاً الملحدين منهم إلى نشر فكرة أن هذه النظرية تسير بلا قانون ولا هدف، وعلى الجانب الآخر عجز علماء الدين، وكذلك العلماء المؤمنون بنظرية التصميم الذكي عن توضيح التصميم والهدفية في إطار نظرية التطور، بل إن الغالبية لجأت إلى إنكارها كلياً او جزئيا، ويبحثون على أي ثغرة أو خلل فيها لرفضها أو دحضها، ومع ذلك ظلت هذه النظرية صامدة في تفسير تنوع الحياة على الأرض، مما أكد جدارتها وقوتها العلمية.

---

1. تشارلز داروين (1809–1882م) هو عالم تاريخ طبيعي واحيائي وجيولوجي بريطاني، يُعد أحد أبرز العلماء في تاريخ العلم، حيث وضع أساس نظرية التطور عبر الانتقاء الطبيعي، التي غيرت بشكل جذري مفهومنا عن نشوء الأنواع وتطورها. نشر كتابه الشهير "أصل الأنواع" في عام 1859م، الذي قدم فيه أدلة قوية تدعم فكرة أن الأنواع تتطور تدريجيًا عبر الزمن نتيجة لآلية الانتقاء الطبيعي.

في عام 1897م، أشـــار الفيلســـوف **فريديناند شـــيلر** [1] إلى إمكانية وجود مصـمم ذكي للتطور بقوله: "**لن يكون ممكناً اسـتبعاد الفرضـية القائلة بأن عملية التطور يقودها مصـمم ذكي**" [2]. وعلى مدار العقود الماضـية، اسـتمر النقاش والجدال حول طبيعة نظرية التطور: هل هي عملية عشـوائية بالكامل، أم أنها مُصـممة بشـكل كامل، أم أنها مزيج بين العشـوائية والتصـميم؟ إلى أن جاء **السـيد أحمد الحسـن (ع)** وقدّم طرحاً فريداً ومتميزاً، لم يسـبقه إليه أحد من قبل، ليقدم رؤية متكاملة وشـاملة تجمع بين العلم والإيمان، فقد اسـتطاع من خلال تحليلـه العميق أن يثبـت أن نظريـة التطور، والتي يُنظر إليها غـالبـاً على أنها عملية عشوائية وخالية من الهدف، هي في الحقيقة عملية هادفة ومقننة تخضع لقانون محكم ودقيق.

وأوضـح السـيد أحمد الحسـن (ع) أن هذا القانون الذي يحكم عملية التطور، أنها ليســت مجرد صــدفة أو نتيجة لتفاعلات مادية عمياء او ما شــابه، بل هو دليل واضـــح على وجود إرادة عليا وقوة حكيمة تقف وراء هذا الكون الواســـع، فالتطور وفقاً لرؤيته ليس مجرد سـلسـلة من التغيرات العشـوائية، بل هو مسـار محكوم بغاية وهدف، مما يدل على أن هناك خالقا حكيماً قد وضـــع هذا القانون وأدار هذه العملية بدقة وإتقان. وبذلك بيّن السـيد أحمد الحسـن (ع) أن قانون التطور نفســـه، بكل تعقيده ودقته ينطق بدعوة صـــريحة إلى الإقرار بوجود الله ســـبحانه وتعالى هو صـــاحب هذا القانون والهدف. فالتطور؛ في نهاية المطاف ليس مجرد نظرية علمية تحاول تفسير تنوع الحياة، بل هو أيضاً شـــهادة على عظمة الخالق وقدرتـه على إدارة هذا الكون وفق نظام محكم وغاية واضحة.

هذا الطرح العميق الذي قدمه وانفرد [3] به السـيد أحمد الحسـن يفتح آفاقا جـديـدة للتفكير، حيـث يربط بين العلم والـدين، ويظهر أن الحقـائق العلميـة

---

1. فيرديناند شـــيلر (F.C.S. Schiller) (1864– 1937م) فيلســـوف بريطاني ألماني، يُعتبر أحد أبرز ممثلي البراغماتية البريطانية. درس في جامعة أكســفورد وأصــبح أســتاذًا فيها لاحقًا. عُرف بمعارضــته للوضــعية المنطقية والمثالية المطلقة، ودافع عن فلســفة أطلق عليها اســم "النزعة الإنســانية"، التي تجمع بين البراغماتية والاهتمام بالقضايا الإنسانية. كان شيلر من أوائل المؤيدين لنظرية التطور وعضوًا مؤسـسًا في جمعية تحسين النسل الإنجليزية. من أبرز أعماله "ألغاز أبو الهول" و"البديهيات كمسلمات"، حيث وسع من مفهوم إرادة المعتقد لدى ويليام جيمس.

2. انظر التصميم الذكي فلسفة وتاريخ النظرية، د. ستيفن ماير، ص 23.

3. اقتبس هذه الكلمات للدكتور توفيق مسرور صاحب المقدمة لكتاب وهم الالحاد "أخيراً وللمرة الأولى في التاريخ تبدأ مناظرة "جدية" بين الإلحاد والإيمان.. لماذا أقول للمرة الأولى؟ بكل بســاطة لأني أعتقد أنّ كل المناقشــات التي كانت من قبل لا يمكن اعتبارها مناظرات حقيقية ولا ردوداً حقيقية على الإلحاد العلمي، ولأنها مناظرات ونقاشات بين من يدّعون تمثيل الأديان ويحملون نظرة خاصة وفهماً خاصاً للنصوص الدينية وبين

ليســـت في صـــراع مع الإيمان، بل على العكس يمكن أن تكون أدلة قوية تعزز الإيمان بوجود الخالق وتدبيره الحكيم للكون.

انقل بعض الكلمات المهمة من كتاب وهم الالحاد في كلامه على نظرية التطور وكيف استغلها علماء الالحاد أمثال ريتشارد دوكينز، فيقول السيد احمد الحسن (ع): "**نظرية التطور ومغالطة التجزئة وانكار وجود الإله:**

نظرية النشـــوء والتطور أو الارتقاء لدى علماء علم الأحياء التطوري تعطي تفســـيراً معقولاً ومؤيداً بأدلة علمية على أن الحياة الأرضـــية بدأت من مواد كيميائية تجمعت بصورة قابلة لنسخ نفسها، وهذه هي الناسخات الأولى التي تطورت تدريجياً خلال ملايين السنين، وبهذا فهي تثبت أن المؤثر لنشوء الحياة الأرضـية هو الطبيعة، أي أن المخلوقات الحية إذا اعتبرناها أثراً فهي دالة على مؤثر، ولكنه ليس مؤثراً غيبياً بل هو مؤثر معروف لنا وهو الطبيعة الموجودة بين أيدينا، فخالق هذه المخلوقات الحية هي الطبيعة وليس شيئاً آخر.

وبالتالي فمن ينظِّرون للإلحاد يقولون:

لدينا تفسير كامل لكيفية نشوء الحياة على الأرض وتطورها، فلا نحتاج أن نفرض وجود قوة خارج قوى الطبيعة المعروفة أو قوة غير مرئية أو إله لكي نفســـر الحياة وتطورها على الأرض، فنشـــوء الحياة من مواد غير حية أثبت ولو جزئياً في المختبر، والتطور والارتقاء أمر ثبت بالأدلة العلمية، فالحياة الأرضـــية إذن نتاج طبيعي وليست نتاج وجود إله.

الحقيقة، إن التفسير العلمي للحياة الأرضية يثبت وجود إله وليس العكس؛ حيث لو تم التدقيق في نظرية التطور (النشـــوء والارتقاء) فســـنجد أنها عبارة عن عملية تنفيذ للخريطة الجينية المقننة الهادفة، وهذا يجعلها دالة على مقنن هادف، وبالتالي فهي ليســت فقط لا تتعارض بل تتوافق تماماً مع الأدلة العقلية التي ساقها القرآن لإثبات وجود إله، وبالخصوص دليل (صفة الأثر دالة على صفة المؤثر)، فالتطور هادف بمجموعه.

ملحدين يردّون على دين يقدّمه فقهاء الدين وليس على الدين نفسه.. وربما كلامي هذا لن يرضي البعض!" فما جاء به الامام (ع) ليس مجتزأً او مستوحى من اطروحات سابقة، بل هو سبق لم يسبقه به احد لا من علماء ولا من فلاسفة ولا حتى من رجال الدين ولا غيرهم.

ولكن ما يفعله علماء علم الأحياء التطوري ودوكنز الذي يُنَّظِر للإلحاد هو خدعة تجزئة لكيان واحد كبير، فالطبيعة - أو المحيط الذي نعيش فيه - ونحن كيان واحد، أو بعبارة أكثر وضوحاً: الطبيعة والمتضاعفات أو النواسخ كيان واحد أو لنقل هي كلها عبارة عن عناصر كيان واحد، وبالنتيجة مجموعها أو هذا الكيان هادف لا محالة، ولهذا فدوكنز عمد إلى تجزئتها ليقول: انظروا إنها مجتمعة تظهر كأنها هادفة ولكنها في الحقيقة ليست كذلك!

إن ما فعله دوكنز هو كأنه غاص في داخل إنسان يركض باتجاه هدف معين ثم قال: انظروا هذا القلب يضخ الدم بقوة؛ لأن العضلات تحتاج الأوكسجين والغذاء، والكلى تخلص الجسم من اليوريا، والكبد يخلص الجسم من السموم، والمعدة تهضم الطعام و.. و.. و... وهذه كلها لا تهدف لبقاء الجسم حياً بل إن أهدافها قصيرة بحدود عملها فقط، فهي عمياء لا ترى حياة الجسم، فهي إذن ليست هادفة على المدى البعيد، إذن فلا يوجد هدف، في حين أن الهادف هو مجموعها فالهدف للعمليات كلها وليس لبعضها.

وبالنسبة للتطور، فإن دوكنز ومن يريدون تسويق الإلحاد بما أنهم انطلقوا من الانكار وليس التشكيك، فقد جزأوا التطور بنظرتهم وقالوا: انظر هناك طفر جيني عشوائي، وهناك انتخاب طبيعي غير عشوائي هادف على المدى القصير، فقط حيث إن ما يحصل هو انتخاب الأفضل والأقدر على العيش في المحيط الطبيعي، فلا يوجد إذن هدف نهائي أو بعيد المدى، فالناتج النهائي أو الحالي حصل من تراكم نتاج هذه العملية مع الزمن، إذن فهي عملية عمياء غير هادفة في النهاية.

ولو أنهم لم ينطلقوا من الإلحاد والكفر بوجود إله وانطلقوا من الشك في وجود إله ونظروا إلى التطور ككيان واحد لرأوا أنه يسير بنظام دقيق منتج كأفضل مصنع سباكة يمكن أن نراه، ففي مصنع السباكة لا تخرج القطع من موقع الصب مصقولة عادة بل تجري عليها عدة عمليات صقل وربما قطع حتى تخرج القطعة بشكلها النهائي المطلوب، والتطور كذلك. وأيضاً لو أنهم نظروا له على أنه كيان واحد لحكموا من خلال كونه منتج على أنه هادف، فقد أنتج

التطور الذكاء وبالتالي الحكمة والإيثار والأخلاق، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلو لم يكن هادفاً ومن ورائه مقنن لما أنتج هذا الإنتاج القيم.

ولكنهم للأسف يجزئون التطور وينظرون إلى أجزائه، وبالتالي لا يمكن أن يرون نتاجه على أنه نتاج يخصه، هم يفعلون تماماً كمن يجزئ صناعة كبيرة إلى خطوط إنتاجية منفصلة ليتم تشتيت نظر الباحث بأهداف قصيرة المدى لخطوط الإنتاج عن الهدف النهائي للصناعة ككل.

إن الرؤية يمكن أن تتم من زوايا مختلفة وبعض الأحيان زاوية الرؤية تغير ما تراه تماماً، ومرشح للرؤية تضعه أمام عينك كذلك يغير الرؤية تماماً، فأنت لا ترى التجسيم في الخرائط المجسمة إلا من خلال مرشح رؤية خاص أو لنقل زاوية رؤية معينة، وإذا كنت ترفض أن تنظر من هذه الزاوية حتى على سبيل التجربة فأكيد أنك لن ترى الخريطة مجسمة أبداً رغم أنها خريطة مجسمة وعشرات غيرك يرونها مجسمة.

فالتطور عملية معقدة ومركبة تجري ككيان واحد هادف، فالطفر الجيني والطبيعة المحيطة والتكاثر كلها أجزاء كيان واحد هادف وهو التطور، وما فعله علماء علم الأحياء التطوري هو أنهم جزأوه لغرض البحث العلمي ونظروا إلى هذا الكيان على أنه أجزاء منفصلة، ومن أراد تسويق الإلحاد مثل د. دوكنز وظَّفَ تقسيم التطور إلى طفر جيني وانتقاء طبيعي لصالح إلغاء كون التطور هادف ليقول: انظروا ما لدينا فقط أهداف قصيرة المدى ولا يوجد هدف بعيد المدى أو نهائي، إذن فلا يوجد وراء هذه العملية قوة مدركة، إذن لا يوجد إله، ولكن الصحيح هو أن ننظر إلى الكل وما وصل إليه الكل لنرى بوضوح أنه هادف.

وللأسف فإن د. دوكنز وكل من يوظف نظرية التطور لإثبات الإلحاد يحاولون إغماض أعينهم عن رؤية الإشارات الواضحة إلى قانونية التطور ككل والتي تظهر لهم جلية أثناء بحثهم في أجزاء التطور المفككة، فهم مجبرون على رؤية الأهداف قصيرة المدى وإمكانية نسبتها للانتخاب الطبيعي أو حتى الجينات، وهم يقرون مجبرين أن مسألة التطور على المدى القصير قانونية وليست عشوائية، فهناك على الأقل قانون البقاء للجينات المفضلة فأكيد أن

هناك جينات خرجت من السباق وهناك جينات بقت وترسخت وصقلت كالجينات التي أفادت القوة أو السرعة أو الدماغ والذكاء." [1]

لا يسعنا أن نتوسع في مسألة نظرية التطور فهي ثابتة ومدعومة بالكثير من الأدلة العلمية، ولكن ما نحتاجه في بحثنا هو إثبات أن هذه العملية التطورية مقننة وهادفة. التطور؛ باختصار محكومة بقانون لا يمكن اختراقه ابداً، ويبين ذلك السيد أحمد الحسن بقوله: "لدينا جينات وطفر جيني وقانون البقاء للجينة الأفضل أو يمكن أن نقول: للكائن الأفضل، فالفرق بين الجينة والكائن كالفرق بين خريطة بناء البيت والبيت نفسه وقانون البقاء للجينة المفضلة يصقل هذه الجينات، ونحن نعلم الآن بشكل قطعي أن آلة البقاء الأفضل بالنسبة للحياة الأرضية على الاطلاق هي آلة الذكاء (الدماغ)، ورغم أن كلفة آلة الذكاء أو الدماغ الاقتصادية عالية جداً على الكائن الحي حيث إنه يحتاج كمية غذاء كبيرة ولكن التطور بالنتيجة مُجبَر على أن يسير بهذا الاتجاه أي أن يطور آلة الذكاء.

فطالما أن الطفر الجيني موجود منذ البداية فلابد أن تتوفر جينات بناء آلة الذكاء (الدماغ مثلاً) عاجلاً أم آجلاً حتى وإن كان الطفر الجيني عشوائياً تماماً.

وبما أن قانون البقاء للجينات الأفضل أو للكائن الأفضل [2] هو الحاكم في عملية التطور، إذن فالنتيجة أننا الآن يمكننا الجزم بأن التطور منذ البداية متجه وهادف لإنتاج جينات آلة ذكاء أو كائن ذكي، فالتطور إذن هادف.

وأعتقد أن هذا الاستدلال التام كافٍ لنقض نظرية د. دوكنز الإلحادية ضمن نطاق الحياة الأرضية القائمة على أن التطور غير هادف على المدى البعيد." [3]

اذن، التطور عملية محكومة بقانون الانتخاب أو الاصطفاء الطبيعي الذي يعتمد على بقاء الكائن الأفضل تكيفاً مع بيئته، وأحد اهم أهداف التطور الرئيسية هو الوصول إلى "**آلة ذكاء**"، لأن الذكاء يُعد أفضل أداة للبقاء في المنافسة بين الجينات، وحتى لو افترضنا أن الطفرات الجينية عشوائية، فإن

1. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، ص 193-196.
2. الجينات والكائن كخريطة البناء والبناء نفسه فالجينات تمثل الخريطة والكائن الحي يمثل ناتج تنفيذ الخريطة.
3. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، ص 196-197.

وجود جينات تسـمح ببناء آلة ذكاء - حتى لو كانت بدائية مثل خلية عصـبية واحـدة - أمر حتمي، فالكـائنـات التي تمتلك ذكـاءً أعلى تكون أكثر قـدرة على البقاء والتكاثر، مما يجعل الذكاء هدفاً رئيسياً للتطور، ودليل ذلك هيمنة صاحب الة الذكاء "الدماغ" وهو الانسـان على جميع الكائنات الأخرى، بل انه قد سـيطر حتى على خط التطور. وهذا ما اشـار اليه سـبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز "**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ**" [1] "**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**" [2].

ومع ذلك؛ هذا لا يعني أن الفرد الأذكى دائماً يفوز في كل مواجهة، أو أن النوع الأذكى يبقى دائماً، فظروف المواجهة قد تؤدي إلى خسـارة الأذكى أمام الأقل ذكاءً، ولكن على مسـتوى الجينات، فإن الجينات المسـؤولة عن الذكاء تتفوق دائماً في المنافسـة على البقاء والتقدم، لأنها تمنح الكائنات ميزة تطورية كبيرة.

باختصـار؛ التطور يسـير نحو انتاج الة الذكاء كهدف حتمي، لأن الذكاء هو الأداة الأقوى في سـباق البقاء، وبما أن هذه العملية التطورية مقننة ومحكومة بقوانين، "**ولو أنهم لم ينطلقوا من الإلحاد والكفر بوجود إله وانطلقوا من الشك في وجود إله ونظروا إلى التطور ككيان واحد لرأوا أنه يسير بنظام دقيق منتج كأفضل مصنع سباكة يمكن أن نراه، ففي مصنع السـباكة لا تخرج القطع من موقع الصـب مصـقولة عادة بل تجري عليها عدة عمليات صـقل وربما قطع حتى تخرج القطعة بشـكلها النهائي المطلوب، والتطور كذلك. وأيضـاً لو أنهم نظروا له على أنه كيان واحد لحكموا من خلال كونه منتج على أنه هادف، فقد أنتج التطور الذكاء وبالتالي الحكمة والإيثار والأخلاق، وفاقد الشـيء لا يعطيه، فلو لم يكن هادفاً ومن ورائه مقنن لما أنتج هذا الإنتاج القيم**" [3]. اذن فالتطور بكونه مقنناً ومنظماً يدل على وجود نظام وقانون يحكمه، مما يشـير إلى وجود قوة عاقلة ومدركة وراء هذه العملية العظيمة. [4]

---

1. الروم - 8.

2. الذاريات - 21.

3. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد احمد الحسن، ص 195.

4. ولمن يريد التفصيل حول نظرية الارتقاء والتطور يمكنك مراجعة كتاب وهم الالحاد للسيد احمد الحسن، حيث اثبت وبالأدلة العلمية القطعية ان هذه النظرية هادفة ومقننة وهدفها هو انتاج الة ذكاء... راجع الكتاب ان اردت التفصيل والتوسع في معرفة القضية.

بعد استكشاف البنية العميقة للكون وفهم العمليات الفيزيائية والحيوية التي شكلت وجودنا، يتضح أن الدقة الفائقة التي تحكم الظواهر الكونية ليست مجرد مصادفة عشوائية، بل هي نتيجة قوانين فيزيائية مضبوطة بدقة مذهلة، فمنذ لحظة الانفجار العظيم، حيث تشكلت اللبنات الأساسية للمادة، إلى تطور الأنظمة النجمية والمجرات، وصولاً إلى ظهور الحياة وتعقيدها البيولوجي، نجد انسجاماً رياضياً دقيقاً في الثوابت الكونية، وهو ما يشير إلى نظام محكم يستدعي التأمل العلمي العميق، وهكذا، فإن العقل السليم لا يجد في هذا الإتقان إلا برهاناً على وجود الخالق المصمم، الذي أبدع هذا النظام المذهل بحكمة لا تضاهى، فكلما تعمقنا في فهم القوانين الكونية وأسرار الحياة ازداد يقيننا بأن وراء هذا الإبداع يداً حكيمة، نظمت كل شيء بحساب دقيق، سبحانه وتعالى عما يصف الملحدون.

المقدمة الكبرى: **كل نظام لا بد له من مُنظِّم**

معتمدين أيضا على قانون السببية الذي تناولناه سابقاً، وبينا خصوصيته وقوته فلا نُعيد الخوض في تفاصيله، فالعقل البشري بطبيعته لا يقبل أن يُفسر النظام بالعشوائية، خاصة عندما يكون هذا النظام متكرراً ومتسقاً عبر الزمن، حتى العلم الذي يتخذه الملحدون مطية لإلحادهم كما يدعون هو يرفض فكرة "اللا سبب"، فإذا سألت أي عالم من علماء الالحاد: لماذا تسقط التفاحة على الأرض؟ لن يقول لك: "سقطت عفوياً"، بل سيتحدث عن الجاذبية وقوانين الحركة، فلماذا إذاً نرفض تطبيق نفس المنطق عندما نصل إلى سؤال الأصل؟!! وهو من اوجد هذا النظام؟ أليس الكون نفسه ظاهرة تحتاج إلى تفسير، كما تحتاج التفاحة؟!

لكن البعض قد يُحاول الالتفاف على السؤال بالقول: "الطبيعة هي التي نظمت نفسها بنفسها". لكن هذا أشبه بمن يقول إن قواعد اللغة وحدها كتبت قصيدة شعرية!. فالطبيعة - بكل ما فيها من قوانين ومكونات - هي جزء من النظام نفسه، وليست كياناً خارجياً مستقلاً عنه، فكيف يمكن أن يكون الشيء علة لنفسه؟!

ومن أروع ما نُقل في هذا الباب حديث الامام الصادق (ع) إلى تلميذه المفضل بن عمر، حيث وجَّهه إلى تأمل الكون كنظام متكامل، يشهد على عظمة الصانع الحكيم، حيث قال (ع): "يا مفضل: **أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده** ، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شئ فيها لشأنه معد، والانسان كالمملك ذلك البيت، والمخول جميع ما فيه، وضروب النبات مهيأة لمأربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، **ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملائمة، وأن الخالق له واحد وهو للذي ألفه ونظمه بعضا إلى بعض**، جل قدسه، وتعالى جده، وكرم وجهه، ولا إله غيره، تعالى عما يقول الجاحدون، وجل وعظم عما ينتحله الملحدون" [1]. إن هذه النظرة العميقة التي قدمها الإمام الصادق (ع) تكشف عن فهم دقيق لحكمة الخلق، وهو ما يؤكد أن النظام الكوني ليس وليد الصدفة، بل هو أثر لصانع عليم، أوجد الكون بميزان بالغ الدقة، وأحكم قوانينه وفق غاية وحكمة. فكلما تعمق الإنسان في أسرار الوجود، ازداد يقيناً بأن وراء هذا الإبداع خالقاً قديراً نظَّم الكون بحكمة، وأبدع خلقه بميزان لا يختل، جلَّت عظمته وتقدست أسماؤه.

ببساطة، النظام الدقيق دليل على وجود عقل مدبر، والكون - باعتراف الجميع - هو أعقد نظام نعرفه، فكيف نقبل أن ننسب أبسط الأنظمة، كساعة أو كتاب، إلى صانع ذكي، ثم نُنكر هذه القاعدة عندما يكون النظام بحجم الكون؟!

النتيجة: **الكون له مُنِظم.**

إذن، النتيجة التي نصل إليها هي أن للكون منظماً ومصمماً. وأياً كان هذا المنظم، فإن ما يهمنا في هذه المرحلة هو إثبات وجوده أولاً، ثم الانتقال بعد ذلك إلى إثبات أنه يجب أن يكون مطلقاً.

---

1. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 3، ص 63.

واختم بكلمات مباركة من خطبة الامام علي بن ابي طالب (ع) "أفلا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر انظروا إلى النملة في صغرة جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وفي ورودها لصدورها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديان، ولو في الصفاء اليابس، والحجر الجامس [1]، ولو فكرت في مجاري أكلها، وفي علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف [2] بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقتها عجبا، ولقيت من وصفها تعبا، فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، ولم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر، ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النحلة، لدقيق تفصيل كل شئ، وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء، كذلك السماء والهواء، والريح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار والأنهار، وكثرة هذه الجبال وطول هذه القلال [3]، وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات، فالويل لمن أنكر المقدر، أو جحد المدبر" [4].

تنبيه: إن دراسة أي شيء لمعرفته أو تحديد سماته الجوهرية تتطلب من الباحث أن يكون على مستوى مساوٍ له أو متفوقاً عليه؛ حتى يتمكن من تفكيك مكوناته وفهم أبعاده. ولتوضيح الامر أكثر تخيل معي طفلاً في الرابعة من عمره يحاول فهم كيفية نظرية النسبية العامة لأينشتاين، فهل هذا الامر متعقل؟! ومن هذا المُنطلق، فإن استكشافنا للكون عبر المنهج الاستدلالي لا يُقدم فقط تفسيرات للظواهر المادية وكيفية عمل الكون، بل أيضاً يُشير ضمناً إلى وجود قوة تتجاوز نطاق الطبيعة المحسوسة، منحت الإنسان ملكة عقلية

1. صَخْرَةٌ جامِسَةٌ – لازمة لمكانها – المخصص، ج 10، ابن سيده، ص 98.
2. الشُّرْسُوف، كَعُصْفُورٍ: غُضْرُوفٌ مُعَلَّقٌ بِكُلِّ ضِلَعٍ، مِثْلُ غُضْرُوفِ الكَتِفِ، كما في الصِّحاح، أو هو مَقَطُّ الضِّلَعِ، وهو الطَّرَفُ المُشْرِفُ علىَ البَطْنِ، نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ أيضاً، والجَمْعُ: شَرَاسِيفُ، وقال ابنُ الأَعْرَابِيِّ: الشُّرْسُوفُ: رَأْسُ الضِّلَعِ مِمَّا يَلِي البَطْنَ – تاج العروس، ج 12، مرتضى الزبيدي، ص 296.
3. ق ل ه القُلَّة: قُلَّة الجبل، والجمع قِلال؛ والقُلَّة: أعلى الرأس؛ والقُلَّة: واحد القِلال – جمهرة اللغة، ج 2، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ص 352.
4. الاحتجاج، ج 1، أحمد بن علي الطبرسي، ص 315.

تتعدى حدود المادة، حيث مكنته من رصـد الأنظمة الكونية وتحليلها، بل وفك شـيفراتها الوجودية عبر الزمان والمكان. والا كيف يمكن لشـيء مادي بحت لا يعدو في الحجم ذرة في الكون الكبير جدا؟!

وهدا الامر ينقلنا الى موضـوع مهم جداً، وهو يختص بمعرفة الذات الإلهية معرفة شـمولية مطلقة، فذلك مُتعذرُ بحكم الطبيعة البشـرية المحدودة، إذ يسـتحيل على الكائن المتناهي - المحدود بالزمان والمكان والقدرات - أن يُحيط علماً باللامتناهي (المطلق) إحاطة تامة، فالفارق الجوهري بين الخالق والمخلوق يفرض حتميةَ القصور البشري عن الإحاطة بكمال الألوهية. ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، فالله سـبحانه وتعالى قد مكننا من إمكانية معرفته معرفة مناسـبة معنا ومع نقصـنا، ونحن مكلفين بذلك القدر، فالله سـبحانه وتعالى قد قال: "**لا يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْساً إِلّاَ وُسْعَهَا**" [1] وقال في موضعا اخر "**لا يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْساً إِلّاَ ما آتاها**" [2]

الفصل الرابع: صفات الخالق [3]

1. البقرة، 286.

2. الطلاق، 7.

3. اختلفت المذاهب الفلسـفية في تصـوُّرهم للإله إلى خمسـة مذاهب رئيسـة تقريباً: بدءاً من "الماديين" او الملحدين الذين أنكروا وجوده جملة وتفصيلاً، ورأوا أن الكون وُجد بمحض المصادفة دون حكمةٍ أو خالق، مروراً "بالعقليين" الذين استدلوا بالمنطق على ضرورة وجود إله كعلة أولى للكون، لكنهم اعتبروه مُتعالياً عن الإدراك البشـري، فاسـتحالت معرفة حقيقته. أما "أصـحاب وحدة الوجود" فدمجوا بين الإله والكون، فاعتبروهما تعبيراً عن جوهر واحد، حيث يتجلى الإله في الكون ويتجلى الكون فيه. بينما ذهب "المؤمنون بالإله المحرك" إلى فصل الإله عن العالم، وحصروه في صـورة "قوة محركة" غير واعية، مجردة من أي صـفات ذهنية أو إرادية. أما المذهب الخامس، "المُقر بذاتية الإله"، فقد تفرع إلى أربعة اتجاهات حول طبيعة هذه الذات وصفاتها: فمنهم من رأى أن صفات الإله (كالعلم والقدرة) زائدةٌ عن ذاته، ومنهم من عد الصفات عينَ الذات دون انفصال، بينما رفض فريقٌ ثالث إثبات أي صـفات إيجابية للإله (كالقول بأنه "عليم" أو "قدير") لما فيها من تشـبيه بالمخلوقات، فاكتفوا بالصـفات السـلبية (كـــ"ليس بجاهل" أو "ليس بعاجز")، في حين ذهب فريقٌ رابع إلى نفي الصفات عن الإله تماماً (كالقول بأنه "لا يعلم" أو "لا يقدر")، اعتقاداً منهم أن نفي الصفات يُحقق التنزيه الكامل له، ويصونه من أي مشابهة لخصائص الموجودات المحدودة. اما عقيدتنا فهي ما قاله السيد أحمد الحسن **" سـبحانه وتعالى أن تكون الألوهية أو الربوبية كنهه وحقيقته، بل هما صـفاته سـبحانه وتعالى فهو الله الذي يأله له الخلق ليكملوا ويدفعوا النقص عن صـفحات وجودهم، وهو الرب الذي يفيض على خلقه الكمال ويسـد نقصـهم. ولكن أبداً ليسـت الألوهية أو الربوبية هي كنهه وحقيقته، بل هو سـبحانه وتعالى تجلى لخلقه الفقراء بالكمال المطلق ، فكان هو الإله المطلق - الله سبحانه وتعالى - الذي يألهون إليه لسد نقصهم، وتجلى لخلقه الفقراء بالربوبية، فأفاض على نقصهم الكمال ليعرفوه ويعبدوه، فالعبادة دون معرفة فارغة عن المعنى فضـلا عن الحقيقة. وبما أنّ غاية معرفة الحقيقة هو: معرفة العجز عن معرفة الحقيقة، فقد تجلى سـبحانه وتعالى لخلقه بالألوهية التي هي الكمال المطلق المواجه لنقصـهم، والذي يحثهم على التألّه إليه، وبالتالي تحصـيل المعرفة في هذه المرتبة التي تؤهلهم إلى معرفة العجز عن المعرفة في مرتبة الحقيقة. فالألوهية غنى وكمال مقابل للفقر يدفع الفقراء أن يألهون إليه ليفيض عليهم الكمال، فيعرفونه بالألوهية وهم يألهون إليه ويعرفونه بالربوبية وهو يفيض عليهم الكمال، إنّ عدم التمييز بين الألوهية وبين الحقيقة جعل الأمور تختلط على كثير ممن يدعون العلم والمعرفة، هذا فضلاً عن أنّ كثيراً من هؤلاء لا يكادون يميزون بين الألوهية والربوبية، حتى نجد اليوم وبوضوح تام عجز من يدعون أنهم علماء الإسـلام طوال أكثر من ألف عام عن بيان معنى لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ﴾** (1)." التوحيد تفسير سورة التوحيد، السيد أحمد الحسن، ص7.

صفة الأثر دالة على صفة المؤثر

الحمد لله الذي تعجز العقول عن إدراك حقيقة عظمته، ولا تحيط بأسرار جلاله عقول الناظرين، سبحانه ذو الكمال المطلق، المنزه عن شوائب النقص والحدثانية، يا من اوجد كل شيء، وبث فيه البهاء والجمال وهو لمحة من فيض جماله، وكل ما في الكون من حكمة ونظام هو ظل من تجليات حكمته. والصلاة والسلام على من فُتحت له أبواب الأسرار الإلهية [1] ومدينة العلم، نبينا وسيدنا محمد المصطفى (ﷺ) الذي حمل مشعل الهداية للأمم، فكان ترجماناً لحقائق الأسماء والصفات، علم الانسانية كيف تعبد رباً لا تُحدده الأوهام ولا تحويه الأزمان، وعلى آله الأطهار الذين استودعهم الله سر بيان كمالاته وجعلهم أبواب مدينة علمه، فكانوا مرايا تعكس أنوار الذات الإلهية بلا تشبيه ولا تعطيل، ورسلاً يهدون العقول الحائرة إلى بر اليقين، فلم يكونوا مجرد ورثة لدم النبي (ﷺ)، بل حملة لرسالته الالهية، يُفككون إشكالات الصفات بمنهج قرآني أصيل، يرفض حيرة المتكلمين وجفاف المجردين، ويجمع بين عظمة التنزيه وضرورة الإثبات، وكانوا ميزاناً للاعتدال في بيان صفات الجلال والكمال، فمن أراد أن يعرف كيف يثبت لله الكمال دون أن يشبهه بالمخلوقات، أو ينزهه عن النقائص دون أن يعطل معاني الأسماء والصفات، فلينظر إلى ما وصلنا عنهم عليهم افضل الصلاة والسلام بعين الحقيقة والانصاف، فسيعلم بحق انهم سفن النجاة [2] التي تعبر بنا من ضباب التشبيه إلى شمس التنزيه، ومن ظلمات التعطيل إلى أنوار الإثبات، فبهم عرفنا ان اصل معرفته هو توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه، وبهم عرفنا انه سميع بصير لا يغفل عن ظلم ظالم ولا جور جائر، وأنه لطيف خبير لا يعجزه إغاثة مكروب اين ماكن ومن أي دين كان فهو الرحمن الرحيم [3]. فكان النبي (ﷺ) وآله جسراً بين العبد وربه، يُعرفون الخلق بخالقهم، فسبحان من جعل في بيت نبوته كنوز الحكمة، وجعل من آل بيته تراجمة أسرار ربوبيته وقرانه.

---

1. "قال الله "**قاب قوسين أو أدنى**"، فقال له أبو بصير: جعلت فداك ما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سيتها (1) إلى رأسها فقال: كان بينهما حجاب يتلألأ يخفق (2) ولا أعلمه إلا وقد قال: زبرجد، **فنظر في مثل ســم الإبرة** (3) **إلى ما شــاء الله من نور العظمة**" الكافي، ج1، الشــيخ الكليني، ص491.

2. قول رسول الله (ﷺ): "مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق وهوى". نوادر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدين، الفيض الكاشاني، ص 15.

3. "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" البقرة، 186.

إن التأمل في حقيقة الإيمان بالله يمر عبر محطات، لا تقف عند إثبات السبب الأول اواجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى بالنصوص الشرعية والبراهين العقلية فحسب، بل تمتد إلى فهم سر العلاقة بين الخالق والمخلوق، ذلك أن الإيمان الحقيقي لا يكتمل إلا بمعرفة الله [1] من خلال أسمائه وصفاته [2]، لأن التساؤل عن وجود الله يتبعه سؤال أشد عمقاً "**من هو الإله الذي نؤمن به؟**" "**وكيف نتعامل مع هذه الذات الإلهية التي أحاطت بكل شيء علماً، ووسعت رحمتُها كل شيء؟**" هذه المعرفة ليست مجرد إدراك نظري، بل هي تجربة روحية يعيشها الإنسان في أعماق نفسه، إذ يكتشف مع كل لحظة من التأمل في الكون وفي نفسه آيات تدل على عظمة الصانع وحكمته البالغة. ومعرفة الله تبدأ من إدراك الحاجة الفطرية للارتباط بمصدر الوجود، فالإنسان بطبعه كائن باحث عن المعنى، وكلما تعمق في البحث عن الغاية من وجوده وجد أن الإجابات كلها تشير إلى حقيقة واحدة، وهي أن لهذا الكون خالقاً عليماً حكيماً، وأن الحياة ليست عبثاً ولا مصادفة [3]، بل هي جزء من مشروع إلهي متكامل يهدف إلى إيصال الخلق إلى الكمال الذي أراده الله لهم بان يكونوا صورته في الخلق [4]. وحين يدرك الإنسان أن الله هو الغاية الكبرى، يبدأ في رحلة داخلية نحو التوحيد الحقيقي، حيث يرى الله في كل تفاصيل حياته، فيبتعد عن الظنون المحدودة التي تحصر الإيمان في الطقوس الظاهرية، ويدرك أن العبادة الحقة هي حالة من الوعي الدائم بحضور الله في كل لحظة، مما يجعله يحافظ على ما يأمر الله به ظاهرياً وباطنياً [5].

---

1. قال تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" الذاريات، 56. أي "ليعرفون" كما جاء في تفسير اهل البيت (ع).
2. قال تعالى: "وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا" الأعراف، 180.
3. قال تعالى: "وما خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبِينَ" الأنبياء، 16.
4. قال رسول الله (ﷺ) "**خلق الله آدم على صورته**" بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 108، ص 61.
5. قال تعالى: "**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**" آل عمران، 191.

يجب ان تكون الحقيقة الموجدة مطلقة [1] [2]

إن واجب الوجود هو الموجود الذي لا يحتاج إلى علة خارجية توجده أو تحدد كماله، فهو الغني المطلق الذي لا يعتمد في وجوده أو صفاته على أي سبب فكل صفاته هي عين ذاته [3]. وهذا الوجوب الذاتي يفرض بالضرورة أن تكون جميع صفاته مطلقة وغير محدودة، لأن أي قيد أو نقص فيها يعني افتقاره إلى ما يكمل ذلك النقص، وهو ما يناقض جوهر "**الوجوب**" الذي يستحيل معه الاحتياج إلى الغير. فلو افترضنا - على سبيل المثال - أن علم الله محدود، لاحتاج إلى اكتساب المعرفة من مصدر خارجي، مما يجعله معتمداً على ذلك المصدر في إكمال نقص علمه، وهذا يناقض كونه واجب الوجود القائم بذاته. كذلك فإن القدرة المطلقة ضرورة حتمية لضبط النظام الكوني؛ فلو كانت قدرته مقيدة، لوجدت أمور خارج نطاق سلطانه، مما يؤدي إلى ظهور قوى منافسة تفقد الألوهية معناها، وتجعل الكون فوضوي بلا تدبير حكيم. أما الوجود المطلق فيعني أنه لا يحده زمان أو مكان، لأنه خالق الزمان والمكان، فلا يصح أن يخضع لمخلوقاته أو يُقاس بقيودها. وهكذا، فإن إطلاق الصفات ليس مجرد نتيجة عقلية، بل هو أساس فلسفي يمنع انهيار مفهوم "**العلة الأولى**"، ويقطع الطريق على أي تسلسل لا نهائي في العلل الذي هو باطل عقلاً ومنطقاً، لأن

---

1. "مطلق Absolu : من اللفظة اللاتينية absolutus، اسم المفعول من absolvere: انفصل عن، أنجز. حل: فك القيد، حرر. **من منطلق الفلسفة. مقابل نسبي: ما هو خارج كل علاقة، موجود في ذاته وبذاته؛ من ناحية، على المستوى الأنطلوجي، ما هو مكتفٍ ذاتياً بالكامل؛ من ناحية أخرى، من حيث المعرفة، ما هو مستقل عن كيفية تمثيلنا له. إنه مثل خير أفلاطون - ما وراء الجوهر - الجوهر الإسبينوزي ذاتي الاكتفاء، والشيء في ذاته لدى كانط، شرط احتمالية الظواهر**" قاموس الفلسفة، الجزء الأول، مجموعة مؤلفين غربيين، ترجمة لطفي السيد منصور، دار الرافدين، الطبعة الأولى. ص35.

2. "**الصفة الأولى له سبحانه وتعالى - أي لكنهه وحقيقته (هو) - هي اللاهوت المطلق، فبما أنّ علة الخلق هي المعرفة، وبما أنّ المعرفة بالنسبة للناقص منحصرة بتحصيل الكمال؛ كان حتماً أنْ يتجلى لهم سبحانه بالكمال المطلق أو اللاهوت المطلق ليتحقق المطلوب وهو المعرفة، واسم "الله" الذي يطلق على اللاهوت المطلق مشتق، ووجه اختصاصه بالذات الإلهية هو الاستعمال (1) مثله مثل اسم "الرحمن". ولهذه الصفة أو هذا الاسم صفات هي في الحقيقة الكمالات التي ندرك شيئاً منها لتجليها فينا ولتجليها لنا بمن هم أعلى منا، ولأنها كمال وغنى مطلق في مقابل نقصنا وفقرنا، وهذه الصفات تتجلى في الإنسان؛ لأنه مخلوق على صورة الله، أي أنّ الإنسان هو تجلي اللاهوت في الخلق، وفطرة الإنسان تؤهله لأنْ يكون اللّه في الخلق،... فصفات اللاهوت: الرحمة، العلم، القدرة، الحياة، القيومية .... الخ، عندما ننسبها له سبحانه فمرادنا أنها مطلقة، أي رحمة مطلقة وعلم مطلق وقدرة مطلقة ... الخ، فلا توجد قيود أو حدود ذاتية أو خارجية لهذه الصفات، ومعرفتنا لها بقدر توجهنا له سبحانه وتجليها فينا. وهي فينا لا يمكن أنْ تكون مطلقة، بل مقيدة بنقصنا وحاجتنا وفقرنا (بظلمتنا)، فحياتنا منه سبحانه وقائمة به، ورحمتنا مهما بلغت فهي غير تامة ومقيدة بنقصنا، وعلمنا وقدرتنا مقيد بفقرنا وبالحاجة إليه سبحانه. فالإنسان حي يحمل الموت والفناء (الظلمة)، والله سبحانه وتعالى حي لا يحمل الموت (الظلمة)، فهو حي لا يموت؛ لأنه نور لا ظلمة فيه. والإنسان يعلم ويجهل؛ لأنه مشوب بالظلمة، والله يعلم ولا يجهل؛ لأنه نور لا ظلمة فيه. والإنسان قادر على أمور ويعجز عن أخرى، والله قادر لا يعجز؛ لأنه نور لا ظلمة فيه.**" عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن، ص 172-174.

3. وهذا ما أشرنا اليه سابقاً في اثبات وجود السبب الأول في الفصول السابق، بامتناع التسلسل والدور.

واجب الوجود هو المسبب الأول الذي تستمد منه الموجودات وجودها، دون أن يحتاج هو إلى سبب سوى ذاته.

إن تفرد واجب الوجود وعدم مشاركته لأحد في ألوهيته يفرض بالضرورة أن تكون صفاته مطلقة، لأن التعدد في الذات أو الصفات يستلزم وجود منافس أو شريك، وهو ما يناقض فكرة "الوحدانية". فلو تعددت الآلهة - افتراضا - لاحتاج كل إله إلى ما يحدد اختصاصه، فيصبح وجود كل منها معتمداً على حدود الآخر، مما يفقدهم جميعا صفة "الوجوب الذاتي"، ويجعلهم خاضعين لشروط خارجية، وهو ما لا يتفق مع ضرورة الوجوب الذاتي. كما أن بساطة الذات الإلهية (أي عدم تركيبها من أجزاء) تجعل صفات الله عين ذاته، فلا انفصال بين العلم والقدرة والإرادة، لأنها تعبيرات عن كمال واحد غير قابل للتجزئة. فصفات الله ليست أعراضا تُضاف إلى الذات، بل هي حقيقة الذات الإلهية في تجلياتها المطلقة.

وحدانية الله: يجب ان يكون المطلق واحداً [1]

التعدد يؤدي إلى التركيب والاحتياج ضرورة

"اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ" [2]

عندما نتأمل في صفة الإطلاق ونفهما بالشكل الصحيح - ونقصد بها الكمال التام الذي لا يعتريه نقص، والوجود الذي لا تحده حدود، والغنى الذي لا تشوبه حاجة - نجد أن هذه الصفة لا يمكن أن تنطبق إلا على موجود واحد فقط. فالمطلق، بحسب مقتضى العقل، لا يقبل التعدد، لأن التعدد لا بد أن يقوم على التمايز والاختلاف، وهذا بدوره يستلزم وجود صفات مميزة لكل طرف عن الآخر، ويعني ذلك وجود تركيب في الذات. وكل مركب في نهاية الأمر هو محتاج إلى أجزائه، بل قائم بها، ولا يستطيع الاستغناء عنها، وهو ما يتناقض تماماً مع مفهوم الإطلاق، لأن المطلق غني بذاته، قائم بنفسه، غير محتاج لشيء خارج عنه. وأشار الفيلسوف سبينوزا إلى معنى قريب من هذا في برهانه على وحدة الجوهر، بقوله: "**لو كان الجوهر يتجزأ فإما أن الأجزاء التي ينقسم إليها ستحافظ على طبيعة الجوهر اللامتناهي إطلاقاً، وإما أنها لن تحافظ عليها. وفي الفرضية الأولى ستوجد جواهر كثيرة من نفس الطبيعة، وهذا (القضية 5 [3]) محال. وفي الفرضية الثانية سيجوز للجوهر اللامتناهي إطلاقاً، كما بيّنا آنفا، أن يكف عن الوجود، وهذا (القضية 11 [4]) أيضاً محال.**" [5]

فالذات الإلهية بسيطة غير مركبة، أي لا تتكون من أجزاء أو عناصر، كما قال السيد أحمد الحسن: "الأسماء أو الصفات الذاتية متحدة وفانية في الذات الإلهية

---

1. يقول امير المؤمنين(ع) في بيان معنى وحدانية الله: "يا أعرابي إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه، فأما اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: ثالث ثلاثة. وقول القائل: هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فبهذا ما لا يجوز عليه لأنه تشبيه، وجل ربنا عن ذلك وتعالى (2). وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: **هو واحد ليس له في الأشياء شبه**، كذلك ربنا، وقول القائل: **إنه عز وجل أحدي المعنى، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم** (1) كذلك ربنا عز وجل." التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 83.

2. البقرة: 255.

3. يقصد هذه القضية: "لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران أو عدة جواهر من طبيعة أو صفة واحدة." علم الاخلاق، ص34.

4. يقصد هذه القضية: "الله - أعني جوهراً يتألف من عدد لا محدد من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية - واجب الوجود" علم الاخلاق، ص40. مع الملاحظة ان ما يعنيه بالجوهر هو الاتي: "أعني بالجوهر ما يوجد في ذاته ويتصور بذاته: أي ما لا يتوقف بناء تصوره على تصور شيء آخر." نفس المصدر، ص31.

5. علم الأخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، ص44.

أو اللّه فناء أحدياً يجعلها والذات واحداً أحداً لا تركيب فيه، **فجميع الأسماء والصفات الذاتية متحدة في الذات الإلهية أو "الله" وحدة حقيقية، أي أنّ اللّه واحد أحد وجميع الأسماء والصفات عين ذاته**؛ وليست أعراضاً تتصف بها الذات، ولا جواهر تتركب منها، فهذه الأسماء والصفات الذاتية القديمة ليست آلهة منفصلة عن اللّه باعتبار أن ألوهيتها مطلقة في الجهات التي تمثلها بل هي غير منفكة عن الذات الإلهية، وبالتالي فهي عين الذات، فهو سبحانه قادر والقدرة ذاته وعالم والعلم ذاته و..." [1] [2]، فالتركيب يعني حاجة الأجزاء الى بعضها البعض وايضاً حاجتها إلى من يُركبها، وهذا يناقض غنى الله المطلق. بالإضافة الى ذلك ما ذكرنها سابقا فلو تعدد واجب الوجود، فنحن بين احتمالين:

اما ان يتطابقان تماماً: وفي هذه الحالة، هما حقيقة واحدة، لأن التطابق التام يلغي التمايز بينهما. [3] وهنا بالإضافة الى الامتناع العقلي من التعدد، كيف لنا ان نعرف انهم اثنان او أكثر إذا كانا متطابقين تمام الانطباق؟!!

او يختلفان: وفي هذه الحالة، سيتميز أحدهما بصفة يفتقر إليها الآخر، مما يجعل الناقص منهما غير واجب الوجود.

وباختصار إذا جاز لنا ان نرتب الدليل على شكل قياس منطقي سيكون هكذا:

المقدمة الصغرى: كل تعدد في الذات الإلهية يستلزم التركيب (لأن التعدد يعني التميز بين الذوات أو الصفات، والتميز لا يكون إلا بوجود أجزاء متمايزة).

المقدمة الكبرى: كل مركب هو محتاج إلى أجزائه، والمحتاج لا يكون واجب الوجود بذاته (لأن الوجود الواجب هو الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى شيء خارج ذاته).

النتيجة: إذن، تعدد المطلق مستحيل، لأنه يجب أن يكون واحداً بسيطاً غير مركب، وإلا فقد صفة الوجوب الذاتي والغنى المطلق.

---

1. عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن، ص 182.
2. وهنا رد على كل الفلاسفة الذين يقولون ان الحقيقة الموجدة او اجب الوجود ليس له صفات لأنها دليل على انه مركب من الذات وصفاتها، يبين السيد هنا انهم على خطأ، لان صفاته هي عين ذاته فلا انفكاك بين الذات والصفات، حتى يصح ان نقول انها متعددة او متكثرة.
3. التطابق في كل شيء دون أي فرق.

فالتعدد اذن يستلزم تركيباً، والتركيب يستلزم حاجة، والحاجة تنفي الوجوب الذاتي [1]، مما يجعل التعدد مستحيلاً شرعاً وعقلاً. بالإضافة الى ذلك فان العقل يقر باستحالة وجود مكافئ لله او واجب الوجود [2]، لان الوجود المطلق لله يعني أنه لا يُساويه شيء في الكمال. قال تعالى: "**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**" [3]، حيث تنفي سورة التوحيد عن ذاته المقدسة صفات النقص والمحدودية، كالولادة أو الحاجة إلى شريك مُؤكدة انفراده بصفات الأزلية والغنى المطلق، فلا كفءَ له في الوجود يُشاركه في الذات أو الفعل. وقوله جل جلاله: "**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**" [4]، ومن خلال هذه الاية يُبرهن على وحدانيته التي لا تحدها الابعاد والافكار، فالله مُحيطٌ بكل شيء وجوداً وعلماً، لا يُحد ببداية أو نهاية، ولا يُقاس بمنطق تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وفي هذا السياق، انقل كلام السيد أحمد الحسن (عليه السلام) في الرد على من يؤمن بالأقانيم الثلاثة، إذ يتناول مسالة تعدد الحقيقة المطلقة وينفي ذلك، ويؤكد أن الموجد الحق واحد لا شريك له، بقوله "**وإن قلتم بوجود الاختلاف أو التمايز أو التغاير - كما يصرح النصارى اليوم إن الأقانيم متمايزة - فهذا يحتم وجود لاهوت ثان ﴿..... صَاحِبَةٌ .....﴾ ليكون الإبن صادراً عن الاثنين فلا يطابق أحدهما؛ لأنه صدر عنهما معاً، فهل أنتم تقولون بوجود اللاهوت الثاني (الصاحبة) الذي سبق الابن [5] ؟؟!!!**

---

1. كما أشرنا سابقا في موضوع وجوب ان تكون الحقيقة الموجودة مطلقة، فانا أي نقص او احتياج هو يخرج الموجود من كونه واجب الوجود او انه العلة الأولى.

2. "لما كان الواجب تعالى منتهى سلسلة الحاجات والتعلقات وهو غاية كل شيء وتمام كل حقيقة فليس وجوده متوقفا على شيء ولا متعلقا بشيء كما مر. فيكون بسيط الحقيقة من كل جهة. فذاته واجب الوجود من جميع الجهات كما أنه واجب الوجود بالذات وليست فيه جهة إمكانية ولا امتناعية وإلا لزم التركيب المستدعي للإمكان وهو ممتنع فيه تعالى. (107) فإذا تقرر هذا فنقول: لو فرضنا في الوجود واجبين فيكون ما فرض ثانيا منفصل الذات عن الواجب تعالى لاستحالة أن يكون بين الواجبين علاقة ذاتية وإلا لزم معلولية أحدهما أو كليهما وهو خلاف الفرض. فلكل منهما إذن مرتبة من الكمال الوجودي ليس للآخر ولا مترشحا منه فائضا من عنده. فيكون كل منهما عادما لكمال وجودي وفاقدا لمرتبة وجودية. فلم تكن ذات الواجب محض حيثية الفعلية ووجوب الوجود بل مؤلفا من جهتين ومصداقا لوجود شيء وفقد شيء آخر كليهما من طبيعة الوجود بما هو وجود ومناطا لوجوب نحو من الوجود وإمكان نحو آخر منه أو امتناعه. فلم يكن واجب الوجود من كل جهة وقد ثبت أن ما هو واجب الوجود بالذات يجب أن يكون واجب الوجود من جميع الجهات وهذا خلف. فواجب الوجود بالذات يجب أن يكون من فرط الفعلية وكمال التحصل جامعا لجميع النشآت الوجودية والأطوار الكونية والشؤون الكمالية. **فلا مكافئ له في الوجود ولا مماثل ولا ند ولا ضد ولا شبه بل ذاته من كمال الفضيلة يجب أن تكون مستند جميع الكمالات وينبوع كل الخيرات. فيكون تاما وفوق التمام**." المشاعر، صدر الدين محمد الشيرازي (صدر المتألهين)، ص 47.

3. سورة الإخلاص.

4. الحديد، 3.

5- وهذا أيضاً أمر فطري وعقلي وهو إن الحقيقة البسيطة المطلقة لا يمكن أن ينفصل عنها شيء مغاير لها أو متميز عنها، ولا يمكن أن يكون فيها أقسام أو أجزاء أو أصول أو أقانيم كما يسمونها متمايزة؛ لأن هذا يعني إنها حقيقة مركبة وليست بسيطة، والتركيب دلالة الافتقار وينفي

فاعلموا أنكم إن قلتم بوجود الإبن فلابد أن تقولوا بوجود اللاهوت الثاني (الصاحبة) قبله وإلا فكيف تقولون بوجود الإبن (اللاهوت المطلق الذي صدر عنه) دون وجود اللاهوت المطلق الثاني (الصاحبة) ابتداءً معه سبحانه وتعالى، ووجود الإله المطلق الثاني (الصاحبة) ابتداءً معه سبحانه وتعالى محال؛ لأن اللاهوت المطلق حقيقة بسيطة مطلقة ولا يمكن أن تتعدد ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ علىَ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]. " [2]

وبطريقة اخرى: اللامحدودية الالهية تنفي التعدد من اساسه

الوجود الالهي - بحكم تعريفه - وجود مطلق لا يحد بزمان او مكان او ماهية، فهو كمال محض لا يشوبه نقص، وحقيقة لا تقبل التجزئة او التعدد، وفكرة "اللامحدودية" ليست مجرد سلب للحدود فقط، بل هي اثبات ان الوجود الإلهي مطلق في كل شيء ولا حد ولا نهاية لكمالاته. لكن كيف تلغي اللامحدودية امكان تعدد الالهة؟

المقدمة الصغرى: وجود الله غير متناه [3]

كل موجود محدود يشترط وجوده تلبسه بالعدم؛ فالمحدودية تعني انتهاء الكينونة عند حد معين، سواء اكان مكانيا (كجبل الهملايا الذي ينتهي عند سفحه)، ام زمانيا (كعمر الانسان الذي ينتهي بالموت). حيث ان الوجود المطلق هو الذي لا يحده شيء، ولا يقيده قيد، ولا يعرضه نقص، لأنه هو الحق او الحقيقة الموجودة او واجب الوجود. واما الوجود المحدود فهو لا بد أن يكون مشروطاً بقيد من القيود، سواء كان قيد الزمان أو المكان أو القوة أو الفعل، وهذا القيد

عنها الغنى، وبالتالي لينفصل شيء ما متميز عن الحقيقة البسيطة المطلقة لابد من وجود حقيقة بسيطة مطلقة أخرى، وهذا أمر محال؛ لأن الحقيقة البسيطة المطلقة واحدة ولا يمكن أن تتعدد.

1- المؤمنون: 91.

2. كتاب التوحيد تفسير سورة الفاتحة، السيد أحمد الحسن، ص 83 - 84.

3. يعرف سـبينوزا الله بانه: "أعني بالله كائناً لا متناهياً، أي جوهراً يتألف من عدد لا محدود من الصـفات تعّبر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لا متناهية." ويشـرح ذلك بقوله: "أقول لا متناهياً إطلاقاً، ليس في ذاته فحسـب، لأن ما يكون لا متناهياً في ذاته فحسـب إنما نسـتطيع أن ننفي عنه عدداً لا محدوداً من الصفات، أما ما يكون لا متناهياً إطلاقاً، فكل ما من شأنه ان يعّبر عن ماهية من الماهيات من غير ان ينطوي على نفي، فهو ينتمي الى ماهيته" الاخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، ص31 - 32.

يجعل وجوده قابلاً للزيادة والنقصان. فالمحدود يفقد ما وراء حدوده، والفاقد ناقص، والنقص يناقض الكمال. أما الله سبحانه وتعالى فوجوده غير متناه، لا يسبقه عدم، ولا يعتريه نقص، ولا يتقيد بأي ماهية خارجية، بل هو صرف الوجود. الوجود غير المحدود، المطلق، هو الغني بالذات، الكامل من جميع الجهات، الذي لا يتصور فيه فقدان أي كمال، وإلا لما كان مطلقاً، بل محدوداً بما يفتقده. والله هو واجب الوجود، لا ماهية له زائدة على الوجود، بل هو وجود محض بسيط، لا يتطرق إليه التركيب، ولا يعتريه نقصان، كما يقول الامام علي (ع): "**ليس له حد ينتهي إلى حده ولا له مثل فيعرف بمثله**" [1]. فذاته تعالى تتعالى عن كل وصف يحصرها في إطار، لان الحصر يناقض كمالها.

المقدمة الكبرى: كل لا متناه واحد لا يتعدد

التعدد يستلزم التمايز، والتمايز يقتضي ان يختص كل موجود بخصائص تمنع انطباقه على الآخر. فلو فرضنا وجود الهين لا متناهيين، لزم ان يتميز كل منهما عن الآخر بصفة - والا كانا شيئا واحدا -، وهذا التميز يفرض حدودا على كل منهما (كان يكون الاول موجودا في جهة دون الثانية، او متصفا بصفة ينفرد بها). وهنا ينشأ التناقض: فكيف يكون الاله غير المحدود محصورا بحدود التمايز؟![2]

النتيجة: الوحدانية ضرورة نقلية وعقلية

اللامحدودية - بوصفها سر الذات الالهية - تجعل من التعدد محالا؛ لان التعدد يفترض حدودا تنفي الاطلاق. وهذه الحقيقة بصورتها الكاملة ليست نتاج عقل بشري، بل هي متجذرة في الوحي الالهي، كما في قول الامام علي (ع): " الذي لم يلد فيكون في العز مشاركا ولم يولد فيكون موروثا هالكا، ولم تقع

---

1. الكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 190.

2. التمايز يفترض وجود حدود تُعرف بها الأشياء، لأنه يعني أن شيئاً يختلف عن شيء آخر. لكي يختلف شيئان، لا بد أن لكل واحد منهما حدوداً تُعرف بها حقيقته. لكن الله وجود مطلق بلا حدود. فلو كان لله حد، لكان محتاجاً لمن يُحده، وهذا يناقض كونه واجب الوجود بالإضافة الى ذلك من اوجد هذا الشيء الذي يحد واجب الوجود؟!!!.

عليه الأوهام فتقدره شبحا ماثلا ولم تدركه الابصار فيكون بعد انتقالها حائلا، الذي ليست في أوليته نهاية ولا لآخريته حد ولا غاية، الذي لم يسبقه وقت ولم يتقدمه زمان، ولا يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولا يوصف بأين ولا بم ولا مكان" [1].
فالله - بلا حدود - يملأ الوجود، ويستحيل معه وجود منازع لسلطانه، ولا وجود حقيقي الا له سبحانه وتعالى.

تقسيم صفات الله او اللاهوت:

ان صفات الله سبحانه ليست مجموعة من الصفات المتجاورة، بل هي وجوه متعددة لحقيقة واحدة مطلقة، فعندما نصفه بأنه قدير، فإننا لا نضيف إلى ذاته شيئاً زائداً على وصفه بأنه عالم، أو رحيم، أو حكيم؛ بل كلها تعبيرات عن تلك الذات الغنية البسيطة التي لا نقص فيها. وهذه الوحدة في الصفات ترجع إلى وحدة الذات، كما قرر ذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام والعقل السليم، أي أن علمه هو عين ذاته، وقدرته هي عين ذاته، وهكذا هلم جرا فهي ليست صفات زائدة على الذات، بل عين الذات. وفي هذا الموضوع انقل ما بينه السيد أحمد الحسن بقوله: "**هو سبحانه تجلى للخلق باللاهوت المطلق أو الكمال المطلق (الله) ليعرفه الخلق، ولا نقص في ساحة اللاهوت المطلق (اللّه) سبحانه، ومن هنا فهو موصوف بكل كمال مطلق ومنزه عن كل نقص، فلا إشكال في تسمية صفات الكمال بالثبوتية، وتسمية تنزيهه عن النقص بالصفات السلبية، فهي مجرد مصطلحات لفظية تشير إلى معنى معين، والمهم هو المعنى المراد، ولكن فقط الإشكال في حصر بعضهم صفات الكمال بثلاث هي: العلم والقدرة والحياة أو بعدد معين، وكذا حصر التنزيه أو الصفات السلبية كما يسمونها بعدد معين، فالحق إن اللّه موصوف بكل كمال مطلق ومنزه عن كل نقص.**

أما الصفات الفعلية فهم يضعون لضبط تقسيم الصفات إلى فعلية وذاتية أمرين:

1. الكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 189.

الأول: إن الصفة التي يوصف بها وبضدها هي صفة فعلية؛ لأن الصفة الذاتية هي عين ذاته، فلا تنفك عنه ليمكن أن يوصف بضدها، ومثالها الإرادة فهو يوصف بأنه مريد ويوصف بأنه كاره أو غير مريد، أما الصفة التي يوصف بها ولا يوصف بضدها فهي صفة ذاتية كالعلم، فهو يوصف بأنه عالم ولا يوصف بأنه جاهل.

الثاني: إن كل صفة تحتاج لانتزاعها فرض غير الذات فهي صفة فعلية، مثل صفة الخالق فهو لا يوصف بأنه خالق قبل أن يخلق، وكل صفة تنتزع من فرض الذات فقط فهي صفة ذاتية مثل صفة الحياة.

هذا هو مجمل ما يعتمدونه لهذا التقسيم، والحقيقة إنّ تسمية بعض الصفات بالفعلية عندهم باعتبار فهم معين لمعناها يجعلها مرتبطة بالفعل ووجودها مرتبط بوجود الفعل، وبالتالي تكون صفات حادثة بحدوث الفعل فلا يصح أنْ تكون ذاتية، فيقال إنها إضافية بالنسبة للذات وإنها صفات فعلية، وهذا لا إشكال فيه بناء على هذا الفهم لمعنى الصفات.

ولكن هناك معنى آخر وفهم آخر لهذه الصفات يمكن أنْ نقدمه، ويجعلها صفات غير حادثة وليست صفات فعل ولا إضافية بالنسبة للذات، وبالتالي تعود للصفات الذاتية وتتفرع عنها، فصفة الخالق مثلاً يمكن أنْ نفهم منها فعل خلق المخلوقات فتكون حادثة؛ لأنها مرتبطة بالحادث، ويوصف بضدها فنقول إنه غير خالق ونقصد قبل أنْ يخلق الخلق، وهذا نجعلها صفة فعلية إضافية للذات. وأيضاً يمكن أنْ نفهمها على أنها القدرة على الخلق فتكون صفة ذاتية وليست حادثة ولا يمكن أنْ يوصف بضدها، فنقول إنه عاجز عن الخلق، أي أنّ صفة الخالق يمكن أنْ نقول عنها إنها صفة فعلية إذا نسبناها إلى الفعل، ويمكن أنْ نقول عنها إنها صفة ذاتية إذا نسبناها إلى الذات، ولا إشكال في كونها مرة صفة فعلية ومرة صفة ذاتية في مقامين مختلفين." [1]

1. عقائد الإسلام يليه يسألونك عن الروح، السيد أحمد الحسن، ص181-182.

علم الله: علم المطلق لابد ان يكون مطلقاً

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "**إن الله علم لا جهل فيه، حياة لا موت فيه، نور لا ظلمة فيه.**" [1] من الصفات التي اتفق عليها كل المؤمنين بعلة خالقة للكون على إثبات ان لهذه العلة صفة العلم، إذ لا يُتصور إله لا يعلم، كما لا يُتصور أن يكون هناك خالق ومرب ومدبر لا يحيط علماً بما يخلق ويُدبر، بل إن صفة العلم تُعد من أبرز صفاته الذاتية التي لا تنفك عنه في كل حال، وتُعبر عن كماله المطلق وقدرته الشاملة. والعقيدة الإسلامية بصورة عامة والشيعية، المستندة إلى القرآن الكريم وتعاليم أهل البيت عليهم السلام، تؤمن بأن الله سبحانه عالمٌ بكل شيء، في كل زمان ومكان، وأن علمه لا يطرأ عليه تغيير ولا تجدد، ولا يتقدمه جهل، ولا يلحقه نسيان، فهو علمٌ أزلي أبدي، غير محدود، غير مكتسب، بل علمه عين ذاته جل وعلا [2]. ومن ناحية النصوص الشرعية فالقرآن الكريم مليء بالآيات التي تؤكد علم الله وتُبهر القارئ بسعة هذا العلم وشموله وتفصيله، حيث لا يفلت من دائرة علم الله شيءٌ أبداً. يقول تعالى في محكم كتابه: "**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**" [3]. هذه الآية وحدها كافية لتصور مدى الإحاطة الإلهية، فهي تشير إلى علمه بالمفاتيح الغيبية التي لا يطلع عليها أحد، ثم تنزل بالتفصيل إلى سقوط الورقة في الغابة، فالحبة المدفونة في الظلمة، فكل رطب ويابس، حتى لا يُترك في ذهن المتلقي أي احتمال للغفلة أو الجهل وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ومن كلام الله الى روايات أهل البيت عليهم السلام ليفصلوا لنا النصوص القرآنية، وبذلك تسد أي منفذ للتأويلات الباطلة التي قد تُدخل النقص على ساحة الله سبحانه وتعالى. فقد ورد عنهم عليهم السلام: "عن أيوب بن نوح أنه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عز وجل أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكونها أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها

---

1. التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 148.
2. عن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: "**علم الله لا يوصف منه بأين، ولا يوصف العلم من الله بكيف، ولا يفرد العلم من الله، ولا يبان الله منه، وليس بين الله وبين علمه حد.**" التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 149.
3. القران الكريم، سورة الأنعام، آية 59.

فعلم ما خلق عندما خلق وما كون عندما كون؟ فوقع بخطه: **لم يزل الله عالما بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء**"[1]

وفي رواية أخرى "أبي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن يحيى العطار، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن محمد بن مسلم، عن أبي - جعفر عليه السلام، قال: سمعته يقول: **كان الله ولا شئ غيره، ولم يزل عالما بما كون. فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد ما كونه**" [2]

"حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، قال: حدثنا أحمد بن الفضل ابن المغيرة، قال: حدثنا أبو نصر منصور بن عبد الله بن إبراهيم الإصفهاني، قال: حدثنا علي بن عبد الله، قال: حدثنا الحسين بن بشار، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام، قال: سألته أيعلم الله الشئ الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون أو لا يعلم إلا ما يكون؟ فقال: **إن الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال الله عز وجل: (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وقال لأهل النار: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فقد علم الله عز وجل أنه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه، وقال للملائكة لما قالوا: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) فلم يزل الله عز وجل علمه سابقا للأشياء قديما قبل أن يخلقها، فتبارك ربنا تعالى علوا كبيرا خلق الأشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء، كذلك لم يزل ربنا عليما سميعا بصيرا.**" [3]

ومن خلال هذه الآيات والروايات، يظهر بوضوح أن أهل البيت عليهم السلام أرادوا تثبيت هذه القاعدة العقائدية الكبرى: أن علم الله تبارك وتعالى لا يتغير، ولا يتجدد، ولا يسبق بجهل، ولا يحصل له شيء من النقص أو الغفلة أو الانتظار حتى يقع الحدث ليعلمه، فالله عالم بالمعدومات على أنها معدومة، وعالم بالموجودات على أنها موجودة، وعالم بالممكنات على أنها ممكنة، كما أنه عالم بالمستقبل كعلمه بالماضي والحاضر، لأنه ليس مرتبطاً بزمن، بل هو خالق

1. الكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 155.
2. التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 145.
3. نفس المصدر السابق، ص146-147.

الزمان، وهو فوقه لا تحكمه قواعده. ولهذا، فإن القول بتجدد علمه أو حصوله بعد وقوع الأشياء، هو تقييد لله بزمانه وخلقه، والله أجل وأعظم من ذلك.

ومن منظور الأدلة العقلية، نجد أن إثبات صفات الله بصورة عامة ومن ضمنها العلم لا يتوقف على نصوص الوحي فقط، بل يمكن للعقل وحده، إن سلك طريق البرهان، أن يُثبت باليقين أن الله عالم بكل شيء. بل إن نفي العلم عن الله أو نسبته إليه بنحو ناقص يؤدي إلى المحال العقلي.

المقدمة الصغرى: وجود الله غير متناه

تناولنا هذه المقدمة سابقاً وقد بينت ان الله سبحانه وتعالى بكونه الحقيقة المطلقة الموجودة لهذا الكون لا بد ان يكون مطلقا وكاملاً من جميع جهات الكمال، ومنزهاً من جميع جهات النقص، ومن غير ذلك فلن يكون هو الوجود الحقيقي، او واجب الوجود.

المقدمة الكبرى: الغير متناه عالماً بكل شيء ضرورة.

العلم كمال، والجهل نقص. وكل وجود كامل غير محدود لا بد أن يتصف بكل كمال وجودي، ولا يقبل أي نوع من النقص. فلو لم يكن الله عالمًا، لكان جاهلاً بشيء، والجهل فقدان، والفاقد لما هو كمال لا يكون كاملاً. وهذا محال على الوجود المطلق. ثم إن العلم ليس فقط كمالاً، بل شرط أساسي في الفعل المحكم، وكل فاعل مختار حكيم، لا بد أن يعلم ما يصدر عنه، فكيف بمن هو مبدأ كل شيء؟! وهل يُتصور أن يصدر عن الله خلق لا يعلم به؟! هذا تناقض في التصور. وإذا ثبت أن كل ما سواه صادرٌ عنه، فإن كل ما يصدر عنه يكون معلوماً له بعلم حضوري، لأنه صادر من ذاته، وذاته غير غائبة عنه، فكيف يغيب ما صدر عنها؟!

وبعدما ثبت بالعقل والنقل أن الله سبحانه وتعالى منـزهٌ عن كل نقص، متصفٌ بكل صفات الكمال، فإن هذا الأصل يُغنينا عن تتبع كل صفة إلهية واحدة

تلو الأخرى لإثباتها، ما دام العقل قد أقر أن كمال الذات الإلهية المطلقة يستلزم شمولها لجميع صفات الجلال والجمال. فكل ما يُعد كمالاً وجودياً، فإن الله أحق به، لأن من كان واجب الوجود بذاته، غنياً عن كل ما سواه، لا يُتصور أن يكون فاقداً لأي كمال حقيقي، وإلا لكان قابلاً للزيادة والنقص، وهو نقصٌ في كماله، ونقص الكمال يناقض الوجوب الذاتي. فصفات الكمال ليست مضافة إلى ذاته إضافة عرضية، بل هي عين ذاته، لأن الذات المطلقة التي لا تركيب فيها ولا افتقار، لا تقبل الانفصال بين وجودها وصفاتها. وعلى هذا الأساس، فإن كل صفة إلهية، مثل القدرة، والإرادة، والحكمة، والرحمة، وسائر الصفات، تُثبت بنفس القاعدة العقلية التي أقمناها في إثبات صفة الوحدانية والعلم: وهي أن كل كمال لا نقص فيه، ولا يقتضي تركيباً، ولا يشابه المخلوقات، فهو لازم للذات الإلهية. فإن القدرة كمال، والحكمة كمال، والرحمة كمال، وكلها لا تنفك عن الإله الحق الكامل المطلق. ولهذا، فالعقل لا يحتاج في كل مرة إلى برهان جديد لكل صفة على حدة، بل يكفي أن يُثبت أن الله وجود محض لا نقص فيه، وكل كمال وجودي واجب الثبوت له. وبما أن الجهل، والعجز، والظلم، والقسوة، وكل ما هو سلبي أو عدمي، تُعد نقائص وجودية، فهي منفية عنه تعالى، لأن من صفات وجوبه وغناه أنه لا يفتقر إلى شيء، ولا يتأثر بشيء، ولا يعتريه ما يعتري سواه.

وهكذا، فإن الطريق الذي سلكناه في إثبات صفة العلم، انطلاقاً من كون الله غير محدود، وكامل الذات، يُعد مفتاحاً لفهم بقية الصفات الإلهية، دون حاجة إلى إعادة البرهنة في كل مرة. فكل ما ثبت لله من صفات كمالية، يثبت بنفس المبدأ: أن واجب الوجود المطلق الكامل لا بد أن يتصف بكل كمال، وينزه عن كل نقص، وأن صفاته ليست عوارض طارئة، بل هي عين ذاته المقدسة. وهذا ما يجعل من العقيدة التوحيدية في الإسلام، وخصوصاً كما قررتها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، عقيدة عقلية متماسكة، يقبلها كل صاحب عقل سليم، وتنتظم تحت قاعدة محورية: "الله هو الكمال المطلق، وكل كمال فهو له، ومنه، وبه". فلا غرابة أن تُفنى العقول في تأمل ذاته، ولا تصل إلى كُنهه، لأنه الكامل الذي لا يُحد، والعظيم الذي لا يُدرك، وهو كما وصف نفسه: "**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**"، وكفى بذلك وصفاً لمن لا تدركه الأبصار، وهو يُدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

إثبات صفات الله بالعقل بناءً على قاعدة فاقد الشيء لا يعطيه

من البديهيات العقلية التي يتفق عليها كل العقلاء، وهي أن العدم المحض لا شيئة فيه وهو بذلك لا ينتج عنه وجود، ولا ينبثق منه أي أثر. فالعدم، من حيث هو عدم، يعني غياب كل شيء اي غياب الذات، والصفات، والفعل، والتأثير. وبالتالي، يستحيل عقلاً ومنطقاً أن يصدر عن العدم وجودٌ أو أثرٌ، مهما كان صغيراً أو بسيطاً. وهذه الحقيقة تُعد من المسلمات الأولية التي لا تحتاج إلى برهان بعد تصور معناها، إذ العدم بذاته لا يملك أن يفعل، ولا أن يؤثر، ولا أن يغير، بل هو نفيٌ محض لكل وجود وإمكان. ومن هذه القاعدة البديهية الأساسية يتفرع أصل آخر، لا يقل عنها يقيناً ووضوحاً، وهو قاعدة: "**فاقد الشيء لا يعطيه**". ومعنى هذه القاعدة أن الموجود الذي لا يملك صفة معينة لا يمكنه أن يمنحها لغيره، ولا أن يوجدها خارج ذاته، فمن كان فاقداً للحياة لا يستطيع أن يهبها، ومن كان فاقداً للعلم لا يستطيع أن يُعلم غيره، ومن كان فاقداً للقدرة لا يقدر على الإيجاد أو التغيير. فالإنسان مثلاً مهما بلغ من المهارة والعلم لا يستطيع أن يعطي غيره صفة لم توجد فيه ابتداءً، بل هو يتصرف في حدود ما يملك. وهذه القاعدة، وإن كانت تبدو للوهلة الأولى بسيطة، إلا أن تأملها يكشف عن عمق منطقي كبير، يجعلها أداة قوية في الاستدلال العقلي، خاصة في قضايا الإلهيات الكبرى.

وانطلاقاً من هذه المقدمة العقلية، وعند التأمل في العالم المحيط بنا، نجد أن المخلوقات التي أوجدها الخالق الأول الأزلي تتصف بصفات كمالية متنوعة. فالكون منظم ومقنن بصورة دقيقة ومحكمة، تدل على علم واسع، وقدرة لا متناهية، وحكمة عظيمة. والكائنات الحية - بتركيبها المعقد ووظائفها المتناسقة - تشهد بجمال النظام وروعة الإبداع. بل إن أدنى تأمل في مظاهر الطبيعة، وفي النفس الإنسانية، وفي العوالم العلوية والسفلية، يكشف عن حضور صفات الكمال بشكل واضح لا يقبل الإنكار. فبناءً على قاعدتنا "فاقد الشيء لا يعطيه" يوجب العقل السليم أن تكون هذه الصفات موجودة في الخالق بدرجة أتم وأكمل مما هي عليه في المخلوقات. إذ يستحيل أن يصدر التنظيم من العشوائية، أو أن ينبثق العلم من الجهل، أو أن يولد الجمال من القبح، أو أن ينتج الإحكام من العجز. بل إن الأثر فرع عن صفات المؤثر، ولا يكون

الفرع أكمل من الأصل. فكل صفة كمالية ندركها في المخلوق إنما هي علامة ودليل على وجود تلك الصفة في الخالق، ولكن بمرتبة الكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص ولا قصور.

تنبيه: ينبغي أن يُلتفت الى ضرورة ضبط مجال سريان قاعدة فاقد الشيء لا يعطيه ضمن دائرتها العقلية الصحيحة، فإن هذه القاعدة تجري في مقام الكمالات الوجودية المحضة، ولا يصح تعميمها على جميع الصفات إطلاقاً من غير تمييز بين ما هو كمال وجودي وما هو نقص وعدم. فالكمالات الوجودية من قبيل العلم، والقدرة، والحياة، وسائر الكمالات التي تمثل تحققات وجودية خالصة أو إضافات وجودية حقيقية، لا يمكن أن يتحقق في الموجود الممكن نصيب منها إلا بواسطة المفيض الذي يملكها أولاً على جهة الكمال الذاتي. فمن لم يملك العلم بذاته لا يقدر على إفاضة العلم على غيره، ومن لم يملك الحياة بذاته لا يمكن أن يفيض الحياة على سواه، وهكذا في بقية الأوصاف الوجودية التي لا يتحصل أثرها إلا من موجود مالك لها على نحو الكمال الأولي.

وأما النقص في حقيقته ليس شيئاً موجوداً او له تحقق قبال الوجود الحقيقي الكامل، بل هو غياب الكمال. فالظلمة ليست شيئاً موجوداً بنفسها، بل هي ببساطة غياب النور. والجهل ليس وجوداً، بل هو غياب العلم. لذلك النقص لا يحتاج إلى من يخلقه أو يمنحه، بل يكفي أن لا يوجد الكمال في ذلك الموضع فيظهر النقص تلقائياً. ولتوضيح الصورة اضرب هذا المثال: تخيل معي غرفة مظلمة. هذه الظلمة ليست شيئاً تم جلبه إلى الغرفة، بل هي نتيجة غياب النور فقط. فعندما يتم تشغيل الإضاءة المصباح مثلاً، تزول الظلمة مباشرة، لا لأنك أخرجت الظلمة، بل لأنك أدخلت النور اليها عن طريق المصباح. وكذلك الحال مع الجهل؛ إذا لم يتعلم الإنسان، فهو جاهل، ليس لأن "الجهل" أُضيف إليه، بل لأن "العلم" لم يتحقق فيه. فالنقص لا يحتاج إلى فاعل خاص، بل هو ناتج عن غياب الكمال أو عدم تحققه.

وعليه؛ فإن من الخطأ المنهجي أن يُطلب للنقص مفيض كما يُطلب للكمال مفيض، لأن النقص ليس أمراً وجودياً قابلاً لأن يعطى. فحين يخلق الله سبحانه موجوداً محدود القابلية بحسب مقتضى حكمته تعالى، فإن ما يلازم وجوده من

النقص والحد إنما يعود إلى حدود ذاته وقابليته الذاتية، لا إلى إفاضة النقص من الله تعالى على جهة الفعل والإنشاء، بل الله لا يفيض إلا كمالاً، وأما النقص فهو نتيجة لازمة لقصور الماهية الممكنة، لا لفعل المفيض.

شبهات وردود: على صفاته سبحانه وتعالى

🔷 الرحيم المطلق لماذا يعذب بالنار؟! ألا يتعارض هذا مع صفته الرحيمة؟! بل قد يُتصور أن هذا الفعل خالٍ من الرحمة والحكمة، ويُشبه العبث؛ إذ ما الحكمة في أن يخلق الله عباداً ثم يُدخلهم ناراً أبدية؟! أليس الأولى - بناءً على هذا الفهم - أن لا يخلقهم من الأصل إذا كان مصيرهم العذاب؟! وهل يصح أن نعتبر العذاب فعلاً من أفعال الرحيم المطلق؟!

الجواب:

إن أول ما ينبغي أن يتأمله الإنسان عند مناقشة مسألة العذاب الإلهي وعلاقتها برحمة الله تعالى، هو أن يتذكر أن الله سبحانه وتعالى هو **المالك الحقيقي المطلق لكل شيء**، فهو الذي خلق، وهو الذي رزق، وهو الذي منح العقل والاختيار، وهو الذي يُحيي ويُميت، ويبعث ويُحاسب. لا شريك له في الخلق، ولا منازع له في الحكم، ولا معقب لحكمه، كما قال تعالى: "**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**" [1]، وقال: "**لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون**" [2]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن تصرف الله في خلقه لا يكون محل اعتراض من أحد؛ لأن **المالك لا يُحاسب على تصرفه في ملكه**، بل يُسأل المملوك عن موقفه وسلوكه تجاه ما أُعطي من فرص، لا أن يسائل الخالق عن أفعاله. لكن الله تعالى، رغم كونه المالك المطلق، لم يتصرف في عباده تصرفاً عبثياً ولا ظلماً، بل تصرف فيهم بحكمة ورحمة وعدل. خلقهم لغاية، وبين لهم الطريق، وأرسل إليهم الرسل، وأقام عليهم الحجة، ثم جعلهم في دار اختبار وامتحان. والامتحان بطبيعته - عقلاً وتجربةً - يستلزم أن يكون هناك **ناجحٌ وراسب، مطيعٌ وعاصٍ، مثابٌ ومعاقب**. فلو أن الجميع يُجزون بنفس المصير، سواء أطاعوا أو عصوا، أصلحوا أم أفسدوا، لما كان للامتحان معنى، ولا كان هناك فرق بين الظالم والمظلوم، والمجتهد والمقصر، ولفسد ميزان العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض. وقد قال تعالى: "**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ**

---

1. القران الكريم، سورة آل عمران، آية 26.
2. القران الكريم، سورة الأنبياء، آية 23.

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" [1]، وقال عز وجل: "**وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**" [2]، وهذا يدل بوضوح على أن العذاب لا يأتي عبثاً، بل هو نتيجة لسوء الاختيار بعد تمام البيان.

ومن هنا تتبين أن الرحمة الإلهية لا تعني إلغاء العدل، بل هي متحققة ضمن إطار العدل، ومرتبطة به ارتباطاً وثيقاً، فلا تعارض بينهما كما قد يتوهم البعض. فالذي يفهم الرحمة بأنها مجرد "مغفرة بلا حساب"، أو "تسامح مطلق مع كل أحد"، يُسيء فهم طبيعة الرحمة الإلهية، ويقيسها على المفاهيم العاطفية البشرية القاصرة. فإن رحمة الله تعالى ليست عاطفة مجردة، بل هي صفة كمال مرتبطة بالحكمة والعدل، تُمنح لمن استحقها، وتُمارس في مواضعها المناسبة، كما أن العقوبة أيضاً لا تعني القسوة أو الانتقام، بل هي تكون عين الحكمة والرحمة، خصوصاً إذا كانت وسيلة للردع أو الإصلاح، أو لحفظ حقوق المظلومين، أو لإنصاف العدالة الكونية. بل إن الرحمة المطلقة لا تكتمل إلا إذا كانت منسجمة مع العدل، فلو أن ظالماً قتل الأبرياء، وسفك الدماء، وخرب المجتمعات، ثم قيل يوم القيامة: "الله رحيم، فادخلوه الجنة"، لكانت تلك الرحمة في حقيقتها ظلماً للمظلومين، وخيانة لدمائهم، وإفساداً لمفهوم الثواب والعقاب، حيث إن إنصاف المظلوم رحمة، ومعاقبة الظالم عدل، وجمعهما معاً هو الكمال، وهذا هو فعل الله عز وجل. الرحمة ليست محواً للحدود، ولا تجاوزاً عن القوانين، بل هي تصرفٌ حكيم يُعطي كل إنسان ما يستحقه، بعد أن يُمكن من الحجة والفرصة والاختيار، ومن هنا نفهم أن العذاب الإلهي في الآخرة ليس ناتجاً عن غضب منفعل أو انتقام أعمى، بل هو حكمٌ قائمٌ على العدل الكامل، والعلم التام، والحكمة المطلقة.

ولكي يتضح هذا المعنى أكثر، يمكننا أن نتأمل هذا المثال. تخيل قاضياً في محكمة أرضية، وقف أمامه مجرم اعترف بكل جرائمه، وثبت عليه بالأدلة قتل الأبرياء وانتهاك الحرمات. فهل من العدل أن يُقال: "لن يُعاقب لأنه إنسان، ولأننا نريد أن نكون رحماء"؟! بل إن تركه بلا عقوبة يُعتبر ظلماً صارخاً للمجتمع، واستهانة بدماء الأبرياء، وإفساداً للقانون، وتكريسا للفوضى، وكذلك الأب الذي

---

1. القران الكريم، سورة الملك، آية 2.
2. القران الكريم، سورة الإسراء، آية 15.

يرى ولده يتمادى في الإفساد والعدوان، ثم لا يؤدبه ولا ينهاه بحجة الرحمة، فإنه يظلمه ويظلم غيره، وقد يتسبب في ضياعه وضياع من حوله. إذاً، الرحمة الحقيقية ليست تهاوناً، وإنما هي **وضع الشيء في موضعه، والتمييز بين من يستحق العطف ومن يستحق الحزم**.

وفي هذا السياق، ينبغي أن نُدرك أن الله لا يُعذب - مع العلم ان الله لا يُعذب أصلاً - أحداً حتى يُتم عليه الحجة، ويُبين له الطريق، ويمنحه الفرصة، كما قال تعالى: "**وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**" وقوله تعالى: "**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ علىَ اللَّـهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّـهُ عَزِيزاً حَكِيماً**" [1]. ومن يُصر على الضلال بعد البيان، ويختار النار بإرادته، لا يكون الله ظالماً له حين يدخله فيها، بل يكون هو الظالم لنفسه، وهذا ما بينه السيد احمد الحسن وسأذكره بعد قليل. والله عز وجل قال: "**إِنَّ اللَّـهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**" [2]، وقال: "**وَخَلَقَ اللَّـهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**" [3] وقال: "**إِنَّ اللَّـهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً**" [4].

وقد تناول هذه الشبهة السيد أحمد الحسن وفصل فيها في كتاب عقائد الإسلام: "**العذاب أو نار جهنم ما هو إلا كشف الحقائق الدنيوية لمن اختاروا هذه الحياة الدنيا وتعلقوا بها، فالأمر لا يتعدى إعطاء شخص ما أراد هو لنفسه من بقاء وخلود في هذه الحياة الدنيا، ولكن مع كشف حقيقة اختياره له، وبالتالي فهو عدل ورحمة وإحسان، فهو اختار الحياة الدنيا وأعطاه اللّه ما أراد، فأين الظلم أو القسوة في هذا؟!**

قال تعالى:

(لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَكُمْ تُسْأَلُونَ) [الأنبياء: 13]

---

1. القران الكريم، سورة النساء، آية 165.
2. يونس، 44.
3. الجاثية، 22.
4. النساء، 40.

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) [العنكبوت: 54]

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ) (1).

هذه هي الحقيقة، اللّه أعطى كل إنسان المفتاح الرئيس الذي يفتح كل الأبواب والذي يثبت إنسانيته، فيمكنه أن يفتح الأبواب واحداً بعد الآخر لينتقل من نور إلى نور أعظم منه حتى يصل إلى مواجهة النور الذي لا ظلمة فيه، ويمكنه أيضاً بكل بساطة أن يلقي المفتاح إلى الأرض ويعود إلى حيوانيته وبهيميته والتي بها يمسي يساوي القرد كما في النص القرآني (وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ)!

لا ظلم في ساحة الله، فالنار هي الدنيا لمن اختاروها وطلبوا الخلود فيها، فقط سيكشف الغطاء عنهم ليجدوها مشتعلة بأعمالهم وظلمهم وفسادهم، وملأتها عقارب حسدهم ووحوش أفكارهم وجرائمهم وحقائقهم الحيوانية البهيمية التي ستظهر لهم جلية فيعذب بعضهم بعضاً بتلك الحقائق الخبيثة عندما يكشف الغطاء. لا ظلم في ساحة الله، من طلب الخلود الدنيوي سيعطى أمنيته ويبقى حيث أراد، فقط سيكشف عنه الغطاء ليرى الحقائق كما هي (لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَكُمْ تُسْأَلُونَ) (1).

اللّه عادل في كل شيء، بل هو محسن وكريم إلى درجة لا يمكننا أن نفهمها وليس عادلاً فقط، لهذا فهو لا يؤذي أحداً بل أشد عقوبته هي أن يعطي الإنسان اختياره الذي عادة يكون فيه هلاكه الأبدي، لهذا فمعنى قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (3)، وقوله تعالى: (قُلْ هَن أُنَبِّئُكُم بِشَرّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُ عَن سَوَاء السَّبِيلِ)(3)، وقوله تعالى: (فَلَمَا عَتَوْاْ عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (4):

أي أنهم ألقوا المفاتيح من أيديهم وخسروا الروح الإنسانية التي بثها اللّه في أبيهم آدم (عليه السلام) وحثهم على تحصيلها، ولم تبق لهم إلا الروح الحيوانية، فعادوا إلى أصولهم حيوانات وبهائم لا يكادون يفقهون قولاً] (1).

وهنا ربما يطرح إشكال مفاده: إن هذا الإنسان يجهل حقيقة اختياره، وبالتالي فهو تعرض لعملية خداع فهو لا يعرف أن هناك حقيقة مخفية خلف الصور التي يراها في هذه الحياة الدنيا، ولا يعلم أن هذه الحقائق بشعة وأن العيش فيها مع رؤيتها والإحساس بها تمثل عذاباً عظيماً لا يحتمل، فهو لو كان يعلم بهذه النتيجة لما أقدم على هذا الاختيار.

وهذا الإشكال مبني على أساس أن الإنسان ليس لديه أي علم بنتائج اختياره، ولهذا فهو غير صحيح، نعم، لو كان اللّه لم يخبره بحقيقة اختياره ربما يكون للإشكال وجه، ولكنه أخبره وحذره." [1]

1. عقائد الإسلام يليه يسألونك عن الروح، السيد أحمد الحسن، ص 25 - 27.

🔷 إشكالية الشر

أبرز الصياغات الحديثة لهذه الإشكالية ما قدمه الفيلسوف الأسترالي جون ليزلي ماكي (J.L. Mackie) [1]، الذي حاول أن يضعها في قالب منطقي صارم، مدعياً وجود تناقض جوهري بين أربع مقدمات أساسية يعتنقها المؤمنون عادة، هذه المقدمات هي:

1. اذا كان الله موجوداً، فهو كلي العلم: يعلم كل شيء، بما في ذلك الشرور والمعاناة.

2. وهو كلي القدرة: لا يعجزه شيء، وقادر على منع كل شر.

3. وهو كلي الخير: لا يريد الشر، بل يسعى لرفاه المخلوقات.

4. ومع ذلك، فالشر موجود في العالم بوضوح، بكل أشكاله من آلام، ومآس، وظلم، وكوارث. ويدعي ماكي أن هذه القضايا الأربع تشكل مجموعة غير متسقة منطقياً (inconsistent triad)، أي لا يمكن أن تكون جميعها صحيحة في آن واحد

الجواب:

تُعد مسألة الشر من أعقد الإشكاليات الفلسفية التي واجهت العقل الإنساني على امتداد تاريخه، لاسيما في سياق التصورات الإيمانية عن وجود إله مطلق الصفات من حيث العلم والقدرة والخير. فقد استُغلت هذه الإشكالية مراراً وتكراراً للطعن في وجود الخالق سبحانه، أو التشكيك في كمال صفاته، أو عدله. ومع أن جذور هذه الشبهة تعود إلى الفلسفات القديمة، إلا أنها تجد في كل عصر صياغات جديدة تحاول خلخلة يقين المؤمنين وبث الشكوك في أساسيات العقيدة.

وقد اخترت صياغة ماكي لأنها تعد طرح شامل او شبه شامل حول مشكلة الشر، وللوهلة الأولى قد تبدو حجة ماكي محكمة، لكنها عند التدقيق تقوم

---

1. جون ليزلي ماكي (J. L. Mackie): فيلسوف أسترالي (1917–1981)، عُرف بمساهماته المؤثرة في فلسفة الدين ونظرية المعرفة والأخلاق. اشتهر بطرحه حجة التناقض المنطقي لوجود الله ضمن مشكلة الشر، وبعمله في ميتافيزيقا الأخلاق حيث دافع عن "نظرية الخطأ" (Error Theory) التي تنفي وجود القيم الأخلاقية الموضوعية. من أبرز أعماله معجزات الإيمان وأصل الأخلاق.

على مقدمات وافتراضات مبنية على مغالطات او سوء فهم للطرح الديني الصحيح حول صفات الله سبحانه وتعالى، وغالبا ما تكون هذه الإشكالات على الأديان التي وقع عليها التحريف، كاليهودية والمسيحية او كل دين او طائفة تعتقد بانقطاع الخلافة الإلهية.

تفكيك مقدمات ماكي الأربعة:

المقدمة الأولى: "إن كان الله موجوداً، فهو كلي العلم".

لا يوجد خلاف جوهري حول هذه المقدمة في الفكر الإلهي عموماً، ومدرسة أهل البيت (ع) خصوصاً. فالله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، يقول تعالى في محكم كتابه: "**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**"[1]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: "**إن الله علم لا جهل فيه، حياة لا موت فيه، نور لا ظلمة فيه.**" [2]. فالعلم الإلهي وحكمته يتجاوزان حدود الفهم البشري القاصر لكيفية تعامله مع ظاهرة الشر وأسباب وجودها. فعلم الله ليس مجرد إحاطة بالمعلومات، بل علم مطلق وشامل، يحيط بكل شيء، ما كان وما يكون، وما هو كائن، الظاهر منه والباطن، الدقيق والجليل. لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وعلمه سبحانه ليس علماً حصولياً مكتسباً يتجدد بتجدد المعلومات، بل هو عين ذاته. وهذا العلم المطلق يتضمن بالضرورة العلم بالشرور، أسبابها، طبيعتها، حكمها، والغايات المترتبة على وجودها ضمن النظام الكوني الأشمل، ولكن لا يستلزم العلم التغيير، والملازمة هنا غير صحيحة.

المقدمة الثانية: "وهو كلي القدرة"

إن وصف الله سبحانه وتعالى بكونه كلي القدرة هو من أصول الإيمان بصفاته الكمالية. غير أن هذا الوصف رغم بداهته الظاهرة، قد أساء البعض فهم

---

1. القران الكريم، سورة الأنعام، آية 59.
2. التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 148.

حدوده وطبيعته الفلسفية، مما جعله موضع إشكال في العديد من الشبهات المطروحة حول العلاقة بين قدرة الله ووجود الشر في العالم.

لذلك يقتضي أولاً الوقوف على حدود مفهوم "القدرة المطلقة" الذي يُنسب إلى الخالق جل وعلا. فبخلاف التصورات السطحية التي قد تساوي بين القدرة المطلقة وبين القدرة على كل ما يُتصور ذهنياً، يذهب التحليل العقلي الرصين إلى أن القدرة الإلهية تتعلق بجميع الممكنات الذاتية، ولا تتعلق بما يستحيل وجوده في ذاته، أي ما كان مستحيلاً عقلاً أو متناقضاً ذاتياً. لان القدرة لا تعني تحصيل المحالات؛ إذ المحال ليس بشيء حتى يكون قابلاً للإيجاد، بل هو عدم صرف لا يقبل التحقق في الخارج.

فعند البحث في طبيعة صفة القدرة الإلهية وحدودها، تبرز مجموعة من الأسئلة الفلسفية المتداولة في الأدبيات الفكرية عبر العصور، والتي تستهدف اختبار الاتساق الداخلي لهذا المفهوم، كالسؤال: "هل يقدر الله أن يخلق شريكاً له؟!" أو "هل يستطيع أن يخلق دائرة مربعة؟!" أو "هل يجعل مجموع اثنين واثنين يساوي خمسة؟! أو "هل يقدر على خلق صخرة لا يستطيع رفعها؟!". وجميع هذه الأسئلة، وإن بدت مختلفة في ظاهرها، إلا أنها تنتمي إلى بنية منطقية واحدة، وتشترك في كونها تقوم على سوء فهم لطبيعة القدرة الإلهية الحقة.

أولاً: السؤال عن إمكانية خلق شريك لله سبحانه وتعالى، في ذاته، سؤال يتضمن تناقضاً داخلياً. ذلك أن مفهوم الألوهية ذاته يقوم على الكمال المطلق من جميع الجهات، ومن مستلزمات هذا الكمال أن تكون الذات الإلهية غير مركبة ولا محدودة ولا مزاحمة لها في وجودها بأي كائن آخر على درجتها من الكمال. وبالتالي فـ"الشريك" إن كان مشابهاً له في الكمال، فقد تحقق تعدد في ما هو واجب الوجود بذاته، وهو مستحيل عقلاً لأن واجب الوجود لا يقبل التعدد بحسب تعريفه المنطقي العقلي. وإن كان هذا "الشريك" ناقصاً، لم يكن شريكاً في الحقيقة، بل مخلوقاً تابعاً داخلاً تحت سلطان الخالق الحق. ومن هنا، فإن السؤال ذاته في حقيقته يطلب اجتماع النقيضين: وحدة واجب الوجود من جهة، وتعدد واجب الوجود من جهة أخرى.

ثانياً: أما سؤال خلق دائرة مربعة، أو جعل مجموع 2+2 يساوي 5، فهو من جنس المطالب المستحيلة لذاتها أيضاً؛ لأن الجمع بين الصفات المتناقضة داخل المفهوم الواحد أمر غير معقول عقلاً، إذ الدائرة تقتضي في تعريفها استدارة كل النقاط على بعد ثابت من المركز، بينما المربع يقتضي زوايا قائمة وأضلاعاً متساوية بخطوط مستقيمة، فطلب وجود "دائرة مربعة" هو طلب لإلغاء خصائص كل منهما في آن واحد. وكذلك الحال في محاولة جعل الحقائق الرياضية الضرورية غير ما هي عليه؛ إذ هذه الضروريات لا تخضع لإرادة المخلوق أو الخالق على حد سواء، لأنها من لوازم منطق التصور ذاته وليست أموراً قابلة للإنشاء أو التغيير؛ فالله لا يغير منطق الهوية ولا قوانين التعريف الذاتي للأشياء.

ثالثاً: وأما شبهة "الصخرة التي لا يستطيع رفعها"، فهي أعمق من حيث تركيبها الظاهري، إذ تبدو كأنها صياغة ذكية للسؤال عن حدود القدرة ذاتها، لكنها في جوهرها تندرج أيضاً تحت نفس الإشكال المنطقي السابق؛ لأن مضمونها يطلب اجتماع النفي والإثبات في آن: أن يخلق شيئاً في ذاته يخرجه عن كمال القدرة. إذ أن خلق صخرة لا يستطيع الله رفعها معناه أن يحد من قدرته وهو الكامل من جميع الجهات، فهو في حقيقته يطالب بأن تكون القدرة الإلهية قادرة على تقييد ذاتها، أي أن تصبح غير قادرة وهي في ذات الوقت قادرة. وهو بذلك يطلب من القدرة أن تُنتج أثراً يجعلها عاجزة عن أن تكون قدرة مطلقة بعد تحققه، فتكون القدرة مطلقة ومحدودة في نفس اللحظة والموضوع، وهذا اجتماع لنفي الشيء وإثباته في وقت واحد، وهو محال عقلاً ويمثل خرقاً صريحاً لمبدأ عدم التناقض، الذي هو حجر الأساس لكل تفكير عقلي منظم. وهذا تعارض ذاتي، لأنه يجعل القدرة المطلقة عاجزة عن أن تبقى قدرة مطلقة. فالسؤال يطلب أن تكون القدرة المطلقة محدودة وغير مطلقة في آن واحد، وهو من جنس المحالات العقلية لا الممكنات التي تتعلق بها القدرة. حيث إن اجتماع النفي والإثبات هنا لا يقع في الخارج فقط، بل حتى على مستوى المفهوم ذاته، إذ معنى "قدرة مطلقة" هو عدم وجود قيد أو عجز عليها مطلقاً، فإذا طلب السائل من القدرة أن تخلق حالة يصبح فيها عاجزة، فقد ألغى تعريف القدرة المطلقة أثناء مطالبته بتحققها؛ وكأنه يقول: أريد قدرة مطلقة ذات عجز!

وهذا نقض ذاتي للمفهوم لا يحتمل التحقق لا في عالم الممكنات ولا حتى في عالم التصور العقلي المجرد.

والقاعدة الكلية التي تدخل تحتها جميع هذه الإشكالات هي أن القدرة الإلهية تتعلق بما يمكن وقوعه في عالم الإمكان الذاتي الواقعي، أي بكل ما كان خالياً من التناقض الذاتي أو الجمع بين المتنافيين. أما المحال في ذاته فلا يدخل في حيز الممكن أصلاً حتى يكون موضوعاً للقدرة؛ لأنه لا صورة له في عالم الخارج، وهو معدوم حتى في عالم المفهوم، والقدرة لا تتعلق بالعدم المحض.

إن هذه الفوارق الدقيقة تؤكد أن الحدود الحقيقية للقدرة ليست قيوداً على كمال الخالق سبحانه، بل هي صيانة لمفهوم القدرة من أن يُنزل إلى مستوى التصورات الساذجة التي تخرق قوانين العقل نفسه، فالقدرة الإلهية الكاملة شاملة لكل فعل ممكن بالذات، لا يتعارض مع كمال الذات الإلهية ولا مع قوانين الهوية والمنطق السليم، وبهذا تنحل كثير من المغالطات التي تبتني عليها الشبهات التي أثيرت في فلسفة الدين قديماً وحديثاً حول هذا الموضوع.

المقدمة الثالثة: "وهو كلي الخير"

إن الخيرية المطلقة التي يتصف بها الله سبحانه وتعالى هي من أسمى الصفات الإلهية وأشدها تعلقاً بقلوب العباد، غير أن فهم هذه الصفة فهماً دقيقاً يقتضي تحريرها من التصورات الساذجة التي قد تفترض أن الخير المطلق يساوي بالضرورة منع كل شر أو ألم في الوجود فوراً وبلا استثناء. فمفهوم الخير في المطلق الإلهي لا ينحصر في منع الألم، بل يرتبط بحكمة كلية تحكم الوجود كله، وتجعل لكل حدث مهما كان ظاهره مرتبطاً بمقاصد أعمق وأشمل في نظام الخلق والابتلاء والتربية والتكامل الروحي، فلو كان معنى الخيرية هو فقط انتفاء مطلق لكل صور الشرور في عالم الاختبار، لما أمكن ابتداءً تحقق الغايات الوجودية التي أرادها الله للإنسان، كحرية الاختيار، والتكليف، وبلوغ مراتب الكمال الأخلاقي والمعنوي من خلال الصراع بين الخير والشر، والصبر على البلاء، ومجاهدة النفس في ميادين الامتحان. ومن هنا فإن السماح بوجود بعض الشرور

الجزئية لا يمثل إخلالاً بالخيرية الإلهية، بل هو مقتضى تلك الخيرية حين تُربط بالحكمة العليا التي ترى في هذا الابتلاء الجزئي طريقاً لإنتاج الخير الكلي الأعظم في مصير الفرد والمجتمع، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

وقد يظهر هذا الخير الأعظم في صور متعددة: كتهذيب النفوس بصقلها بالمحن، وإيقاظ الغافلين من غفلتهم، وكشف معادن الناس وإقامة الحجة عليهم، أو تمكينهم من بلوغ مراتب العبودية الكاملة من خلال الصبر والرضا واليقين والتوكل على الله. وهكذا فإن الخيرية المطلقة تتجلى في إدارة إلهية تحيط بكل الجزئيات والتفاصيل، بحيث يُسمح بوقوع بعض الشرور المؤقتة في الدنيا، لكنها في الحساب الكلي وفي ضوء الحكمة الربانية، تصب في مصلحة العباد والوجود ككل، وهذا هو المعنى الذي تتأسس عليه فلسفة الابتلاء في التصور الإسلامي، حيث تكون الخيرية غير منفصلة عن الحكمة، والحكمة غير منفصلة عن العدل، والعدل غير منفصل عن الغاية من الخلق، في نظام متكامل يحفظ صفات الله جميعها متناسقة غير متضادة، ومن هنا يتهاوى الاعتراض القائل بأن وجود الشر يقدح في خيرية الخالق أو حكمته، إذ أن منشأ هذا الاعتراض هو الجهل بتفصيل العلاقة الدقيقة بين هذه الصفات في مستوى المطلق الذي لا تدركه العقول المحدودة إلا من زوايا مجملة.

المقدمة الرابعة: "ومع ذلك، فالشر موجود في العالم بوضوح"

إن من أعظم الأخطاء المفهومية التي أدت إلى تضخيم إشكالية الشر في عقول كثير من الفلاسفة والملحدين هو تصورهم أن الشر وجودٌ حقيقي مستقل في ذاته، قائم بذاته كوجود الخير، وكأن هنالك قوتين متقابلتين تتصارعان في عالم الوجود على نحو المثنوية الفارسية القديمة أو الازدواجية الفلسفية الباطلة، بينما الحقيقة في الرؤية الإسلامية، حيث تبين أن الشر في جوهره ليس وجوداً أصيلاً، بل هو إما أمر عدمي، أو نسبي، أو عرضي. فوجود الله سبحانه وتعالى – وهو الوجود المحض الكامل – ولا وجود حقيقي معه، وكل ما سواه فهو وجود اعتباري لا أكثر، لا يصدر عن الوجود الحقيقي إلا الخير، لأن كل كمال وجودي هو خير محض بالضرورة، وكلما ازداد الشيء وجوداً ازداد كمالاً وخيراً. وأما

الشر، فهو في حقيقته ليس سوى غياب الخير أو نقص كماله في موضع من المواضع، تماماً كما أن الجهل هو غياب العلم، والمرض هو نقصان في الصحة، والفقر هو غياب الغنى.

ولهذا فإن الشر لا يوجد بذاته، بل يظهر حينما ينقص الخير، فهو فرع وناتج عن نقصان الكمال في رتبة من رتب الموجودات، لا كيان وجودي مستقل. بل إن كثيراً من صور الشر في هذا العالم لا تكون شراً على الإطلاق من حيث النظام الكوني ككل، وإنما تكون شراً نسبياً بالنسبة لمواضع أو أفراد معينين، بينما هي من ضروريات انتظام العالم وحفظ توازنه الكلي؛ فالزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير مثلاً، رغم ما تحدثه من أضرار موضعية، إلا أنها تدخل ضمن نظام متوازن يحفظ استقرار الأرض وتجديد مواردها الطبيعية بشكل لا يتحقق بدونه انتظام الكون المادي واستمراره. ومثله أيضاً السمّ الموجود في بعض الكائنات، كالأفاعي والعقارب، فهو شر بالنسبة للإنسان إن أصيب به، لكنه ضرورة دفاعية لتلك الكائنات وحكمة في حفظ توازن النظام البيئي. بل قد يكون ما يظهر شراً في لحظة من اللحظات سبباً لخيرات أعظم تتحقق في الأمد البعيد وفي توازن النظام الأشمل الذي تتكامل فيه أغراض الخلق. ولهذا فإن نسبة وجود الشر إلى الله نسبة غير صحيحة من جهة الخلق المباشر، لأن الله لم يخلق الشر كغاية في ذاته، وإنما خلق نظاماً وجودياً خيراً من حيث الأصل، وقبل في هذا النظام – بحكم ضروراته الذاتية وغاياته العليا – أن تظهر بعض صور النقص والشر تبعاً لطبائع الموجودات وقوانينها المحدودة التي تقتضيها طبيعة الإمكان، لا كقصور في فعل الله أو إخلال بخيريته المطلقة. فإذن، لا يُسأل الله تعالى عن "خلق الشر" إلا بتقدير من لم يفهم حقيقة الشر على وجهها الصحيح، بل السؤال الأدق هو: لماذا اقتضت الحكمة الإلهية إنشاء عالم له قوانين تفتح إمكان النقص؟ وهنا يأتي الجواب في ضوء التكامل الإلهي: لأن ذلك من لوازم عالم الابتلاء والاختيار، الذي تتحقق فيه كمالات العباد وتُصفى فيه مراتبهم بحسب إرادتهم وأعمالهم في هذه الحياة الدنيا. ومن ثم ينحل الإشكال من أصله بانكشاف خطأ الفرضية التي بُنيت عليها دعوى التناقض في مسألة الشر.

يتضح من مجموع ما سبق أن إشكالية الشر التي صاغها جون ماكي تنهار عند إخضاعها للتحليل الدقيق، وانها لا تصمد امام الفهم الصحيح للصفات

الإلهية، ولطبيعة الشر في حقيقته، والحكمة الإلهية التي تنتظم بها سنن الوجود. فالقول بالتناقض بين وجود الشر وكمال صفات الله مبني على تصور سطحي قاصر يتجاهل الارتباط العميق بين العلم والقدرة والخيرية والحكمة والعدل في النظام الإلهي، حيث إن الشر ليس وجوداً مستقلاً في ذاته، بل هو غالباً عدم للخير أو نقص فيه أو أمر نسبي أو نتيجة مترتبة على حرية الاختيار التي بها يتحقق معنى الابتلاء والتكليف والتربية الأخلاقية للإنسان.

ومن أبرز الصور التي يُستغل بها موضوع الشر للطعن في حكمة الخلق وعدالة الخالق مسألة الإعاقات الخلقية [1] والعلل الجينية التي تصيب بعض الكائنات في مراحل التكوين أو بعد الولادة، حيث يزعم البعض أن وجود أطفال يولدون مع إعاقات أو تشوهات خلقية هو دليل على نقص في الخلق، أو ظلم من الخالق لعباده، أو قصور في علمه وقدرته وتصميمه. غير أن هذا التصور يفتقر إلى الفهم الصحيح لطبيعة عالم الإمكان المخلوق، فإن الأجساد المادية التي تُكوّن الكائنات الحية ومنها الإنسان، هي أجسام حيوانية خاضعة لمنظومة الأسباب المادية والتفاعلات الكيميائية والجينية، وبالتالي فهي بطبيعتها المحدودة قابلة للنقص والخلل بحسب السنن التي أودعها الله في نظام المادة. فالإنسان في جسده ما هو إلا تركيب حيواني متطور بيولوجياً، يجري عليه ما يجري على أي مادة من مواد هذا العالم المخلوق الذي ليس مثالياً في ذاته، بل يمتزج فيه النقص مع الكمال، والظلمة مع النور، على نحو ملازم لطبيعة الوجود الإمكاني الذي لا يستقيم فيه تصور كمال مطلق إلا في ذات الله سبحانه. ولو قُدّر أن يكون النظام المخلوق كله خالياً من النقص مطلقاً، لتحقق بذلك كمال المطلق الذي لا يتحقق إلا في واجب الوجود وحده سبحانه وتعالى، لا في أي عالم مخلوق دونه.

ثم إن النظر إلى كيفية وقوع الخلق نفسه يرفع جانباً كبيراً من هذا الإشكال، إذ أن المباشر لعملية الخلق في العوالم الجسمانية ليس هو الذات الإلهية المطلقة بشكل مباشر، بل بواسطة خلق مكرمين جعلهم الله أسباباً في ترتيب هذا النظام التكويني، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله تعالى:

1. انظر كتاب عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن، ص 27 – 30.

"وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لمُوسِعُونَ" [1]، وقوله: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ" [2]، وهذه "الأيدي" ليست جزءاً من الذات الإلهية، بل هم وسائط تنفيذية تعمل بإذن الله ضمن حدود خلقهم وقابلياتهم المأذون بها تكوينياً، وبما أنهم مخلوقون محدودون في مراتب الوجود، فآثار النقص التي تظهر أحياناً في عملية التكوين الجسدي ليست ناشئة من قصور في الخالق المطلق، بل هي من لوازم طبيعة الوسائط المخلوقة التي أوكل إليها تنفيذ الخلق في عالم المادة. ولذا فإن ما يراه بعضهم من ثغرات في البنية الجينية كضعف العمود الفقري أو استدارة بعض الأعصاب أو غيرها من مظاهر ما يُسمى "عدم كفاءة التصميم"، لا يدل على ضعف في علم الخالق أو قدرته، بل يشير إلى خصائص النظام التكويني الذي جرت فيه سنن الله من خلال الوسائط التي اختارها، وفق حكمة كلية يترتب عليها في المحصلة النهائية تحقق الابتلاء وتربية النفوس وتهيئتها لنيل الكمال الأبدي في النشأة الآخرة، حيث تتحقق العدالة الإلهية المطلقة التي ترفع كل ظلم وتعوض كل نقص.

وبالمناسبة إن من المسلمات الأساسية في النظر العقلي إلى صفات الله سبحانه وتعالى التي يجب الا يغفل عنها، هي أن هذه الصفات مطلقة غير متناهية، وهذا يقتضي بداهة أن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك حقيقتها إدراكاً تاماً شاملاً؛ لأن المحدود لا يمكن أن يحيط بالمطلق، والناقص لا يدرك كمال الكامل إدراكاً كلياً، فالعقل الإنساني بما هو مخلوق حادث مقيد بالزمان والمكان، وبما أن أدوات إدراكه قائمة على المفاهيم النسبية والتجريد الجزئي، فإن معرفته تظل معرفة وصفية تقريبية لماهية الصفات الإلهية، لا إحاطة حقيقية بكنهها وتمام حقيقتها، ذلك لان الشيء لا يعرف حقيقة الكاملة إلا إذا توفر شرط من اثنين: إما الهيمنة الوجودية عليه بحيث يكون محيط به، وإما المساواة في الدرجة والكمال بحيث يكون على مستواه المطلق، وكلا الأمرين منتفٍ في حق الإنسان تجاه الله تعالى؛ فهو مخلوق فقير محدود، والله سبحانه واجب الوجود بذاته، غني عن كل ما سواه، متعال في ذاته وصفاته عن أي مخلوق. ومن هنا فإن ما يصل إليه الإنسان في فهم هذه الصفات إنما هو تجليات لمفاهيمها بحسب وسعه وحدود قابليته العقلية، لا ذات الصفات بكمالها

1. القرآن الكريم، سور الذاريات، آية 47.
2. القرآن الكريم، سورة يس، آية 71.

المطلق، ولهذا تقع الكثير من الإشكالات التي تثار حول قدرة الله أو علمه أو حكمته أو عدله أو بقية الصفات، وهذه الإشكالات في أصلها نتيجة لمحاولة العقل البشري إسقاط قيوده النسبية على مقام المطلق الإلهي، فظن المتوهم أن هناك تناقضاً بين بعض الصفات، بينما منشأ هذه الشبهة في الواقع هو قصر إدراكه عن تصور كيف تتكامل تلك الصفات في مطلقها الإلهي دون تعارض أو نقص.

وقد أشار اهل البيت عليهم السلام الى ذلك، ومن خطبة للإمام علي بن ابي طالب (ع) يقول فيها: "**لا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين**" [1]، وفي مناجاة العارفين للإمام زين العابدين (عليه السلام) ورد ما يؤكد هذا المعنى: "**بسم الله الرحمن الرحيم إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك، وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك، ولم تجعل للخلق طريقا إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك**" [2]، وروي عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام): "**أن الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه، وكفوا عما سوى ذلك**" [3] إن تأكيد الأئمة على أن "**غاية المعرفة به هي الإقرار بالعجز عن معرفته**" ليس دعوة للجهل، بل هو أرقى درجات المعرفة التوحيدية، فالمعرفة البشرية تسعى بطبيعتها للإحاطة بالمُدرَك، ولكن الله مطلق وغير محدود، فلا يمكن الإحاطة به. وعندما يصل العقل إلى أقصى حدوده في التفكر في عظمة الله، يدرك هذا العجز الحتمي عن الإحاطة. هذا الإدراك للعجز هو بحد ذاته معرفة بطبيعة العلاقة بين المحدود والمطلق، وهو أقصى ما يمكن أن يصل إليه المخلوق في معرفة الخالق من حيث الكنه.

علاوة على جميع ما تقدم، فإن من مقتضيات التوحيد أن يُعلم بأن الله سبحانه وتعالى هو وحده الوجود الحقيقي المطلق، وكل ما سواه من الممكنات إنما وجودهم وجود اعتباري تبعي قائم به سبحانه، لا مستقل في ذاته. وحيث إن الله تعالى نور محض لا ظلمة فيه، وكمال مطلق لا نقص فيه، كان من الممتنع عقلاً أن يوجد غيره من الموجودات المخلوقة على صورة الوجود النوري

1. بحار الأنوار، ج 74، العلامة المجلسي، ص 319.
2. الصحيفة السجادية (ابطحي)، الإمام زين العابدين (ع)، ص 417.
3. الكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 150.

المحض ذاته؛ إذ لو تحقق وجود آخر لا ظلمة فيه ولا نقص، لتحقق بذلك وجود واجب آخر، وهو أمر محال في ضوء ضرورة وحدة واجب الوجود عقلاً، وهذا ما بيناه بالأدلة في مبحث وحدانية الله. وذلك لأن واجب الوجود بذاته هو الموجود الذي لا يمكن تصور عدمه، الكامل من جميع جهاته، الغني بذاته عن كل ما سواه.

أما الممكن، فهو الموجود الذي تتساوى نسبة وجوده وعدمه ولولا وجود المرجح لما وجد، وهو ناقص بالذات ومفتقر إلى علة في ذاته ودوامه. ولو افترضنا – محالاً – وجود ممكن تام الكمال لا نقص فيه ولا ظلمة مطلقاً، للزم من ذلك أن يكون هذا الممكن قد استوفى مرتبة الكمال المطلق التي لا يعتريها نقص من أي وجه، وهذه المرتبة هي بعينها مرتبة واجب الوجود، لأن كمال الوجود المحض لا يقبل التعدد ولا يقبل النقص في جهة من جهاته. ومن ثم يكون هذا التصور جمعاً بين نقيضين: بين الإمكان الذي حقيقته الافتقار والقصور، وبين الوجوب الذي حقيقته الغنى المطلق والكمال التام؛ إذ يستحيل عقلاً أن يكون الشيء في آن واحد ممكناً من جهة ذاته (أي قابلاً للوجود والعدم) وواجباً من جهة ذاته (أي ممتنع العدم ومتعين الوجود). ولذلك كان من لوازم كل وجود مخلوق أن يكون فيه نصيب من النقص والظلمة بالقياس إلى الوجود الإلهي المطلق، وهذا النقص ليس طارئاً عليه بفعل عجز الخالق، بل هو من طبيعة المخلوقية ذاتها؛ إذ لا يتحقق الإمكان إلا بمحدودية عن الكمال المطلق الذي لا ينفرد به إلا الله سبحانه وتعالى.

الفصل الخامس: الخلافة الإلهية في الأرض

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلُ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) [1]

إنّ الحديث عن الخلافة الإلهية في الأرض ليس مجرد حديث عن نظام حكم بشري أو نموذج من أنماط السلطة السياسية التي تخضع للانتخاب أو التوريث أو التغلّب، بل هو حديث عن أصل إلهي عظيم، يشكّل أحد أعمدة المشروع الرباني في الأرض. حيث إنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بغاية الخلق، وبسُنّة الهداية الإلهية التي تقتضي ألا يُترك الإنسان سدى، بلا دليل يهديه ولا قائد يرعاه، كما يرتبط أيضاً بسُنّة الاستخلاف، وهي سُنّة إلهية ثابتة لا تتبدّل ولا تتوقف، جرت منذ أول الخلق وستبقى ما دامت الحياة قائمه "**رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ علىَ اللَّهِ حُجَّةُ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**" [2]. وفي قلب هذا المشروع الإلهي، يقف الإنسان بصفته القطب المحوري، إذ هو المخلوق المكرّم، الذي فضله الله وخلقه على صورته [3]، وصاحب أرقى آلة إدراك وهبها الله لمخلوق وهو العقل او آلة التفكير، الذي جعله مؤهلاً لتحمل أمانة الاستخلاف، وهذه الخلافة الإلهية تمس بشكل مباشر سؤال الوجود: لماذا خُلق الإنسان؟ وما الغاية من وجوده؟ كما تمسّ أيضاً سؤال الهداية: من الذي يُمثل الله بين عباده؟ ومن هو القادر على أن يدل الناس على الطريق الذي أراده لهم ربهم، بما ينسجم مع الفطرة والعقل والوحي؟

والناظر في أحوال البشرية، منذ فجر التاريخ، يدرك أنها لم تكن في يوم من الأيام مستقلة في إدارة شؤونها الروحية والدنيوية بمعزل عن السماء، بل على العكس، فإنّ سير التاريخ الديني والأنبياء يؤكد على أن الله سبحانه وتعالى قد أقام دائماً في الأرض خلفاء عنه، يقومون مقامه في الهداية والتشريع والحكم بين الناس بما أنزل، ويُبيّنون للناس ما اختلفوا فيه من أمر دينهم ودنياهم. وهذه الحقيقة تُمثّل تجلياً من تجليات الحكمة الإلهية، التي تأبى أن تترك الإنسان يتيه في متاهات الجهل والضلال من دون أن تبعث إليه من يدلّه على الصراط المستقيم. ولذلك، فإنّ الخلافة الإلهية ليست فرعاً في الدين، ولا أمراً ثانوياً أو

---

1. البقرة:30.
2. النساء: 165.
3. قال رسول الله (ﷺ) "**خلق الله آدم على صورته**" بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 108، ص 61.

جزئياً، بل هي أصل الدين او المشروع الإلهي في الارض، وهي لازمة لا يستغني عنها أي مجتمع إنساني يريد أن يعيش وفق الإرادة الإلهية. ولقد جسّد هذا الأصل الأنبياء على طول الطريق، من آدم عليه السلام الذي نصّ الله على استخلافه، إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم خاتم الأنبياء محمد (ﷺ)، ثم الائمة من بعده استلموا مشعل هداية الناس، وجميعهم جاءوا بأمر الله، وكانوا خلفاءه في أرضه، وهداة إلى شرعه.

في هذا الفصل، سنسعى لبيان حقيقة الخلافة الإلهية: مفهومها، ودلالتها، وشروطها، وأدلتها العقلية والنقلية، وسيرتها عبر التاريخ، وانعكاسها في الواقع الإنساني. كما سنُفرّق بين الخلافة الإلهية التي تكون بالنصّ والاصطفاء الإلهي، وبين الخلافة الدنيوية التي تقوم على الانتخاب أو القوة، ونكشف كيف أن تجاهل مبدأ الخلافة الإلهية أدى إلى ضياع الدين، وتشويه مساره، وفتح الباب أمام الطواغيت والدجالين الذين حكموا باسم الدين زيفاً وافتراءً. وإذا ثبت بالعقل والنقل أن لله في كل زمان حجة، وخليفة، وإمام، فسيكون لزاماً على كل منصف أن يبحث عن هذا الخليفة، ويتعرّف عليه، ويقف إلى جانبه، لأنّ طاعته طاعة لله، ومعرفته منجاة من الضلال، كما قال رسول الله (ﷺ): "**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة، ومن عرفه كفاه به معرفة إذا عرفه حقّ معرفته**" [1].

مصطلحات مفتاحية:

مفهوم الخلافة

لغة: في جمهرة اللغة قال الأزدي: "والخِلافة: معروفة؛ **خَلَفَ فلانٌ فلانا فهو خليفة له، والجمع خُلَفاء**" [2] وابن منظور في لسان العرب قال: "الخلف: ضدّ قدّام . . . وخلفه يخلفه: صار خلفه . . . **واسْتَخْلَفَ فلاناً من فلان: جعله مكانه. وخَلَفَ فلان فلاناً إذا كان خَلِيفَتَه. يقال: خَلَفه في قومه خِلافةً. وفي التنزيل العزيز: وقال موسى لأَخِيه هارون اخْلُفْني في قَوْمي**. وخَلَفْتُه أيضاً إذا جئت بعده. ويقال: خَلَّفْتُ فلاناً أُخَلِّفُه تَخْلِيفاً واسْتَخْلفْتُه أنا جَعَلتُه

1. الكافي (دار الحديث)، ج 6، الشيخ الكليني، ص 123.
2. جمهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ج 1، ص 616.

خَليفَتي. واسْتَخْلفه: جعله خليفة.... **والخِلافةُ: الإمارةُ** وهي الخِلِّيفَى. وإنه لخَلِيفةُ.... قال الزجاج جاز أن يقال للأئمة خُلفاء الله في أَرْضِه بقوله عز وجل: يا داودُ إِنَّا جَعَلْناك خَلِيفةً في الأَرض.... قال ابن الأثير: **الخَلِيفةُ مَن يقوم مَقام الذاهب ويَسُدُّ مَسَدَّه، والهاء فيه للمبالغة، وجمعه الخُلَفاء**..." [1] وقال الاصفهاني في المفردات: "**الخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض**" [2]

أي ان **الخلافة** بالمختصر هي مشتقة من الجذر "خَلَفَ"، وتعني النيابة عن الغير أو القيام مقامه. حيث يُقال: "خلف فلانٌ فلاناً" إذا قام مقامه بعد وفاته أو غيابه. حيث ان معاجم اللغة العربية تتفق على أن المعنى الأساسي لكلمة "الخلافة" يدور حول فكرة التعاقب والنيابة عن الغير، ولكنها تتوسع لتشمل مفاهيم الحكم والقيادة والإدارة في بعضها. وهذا المعنى اللغوي يُبرز جانباً مهماً من المفهوم العقائدي، وهو أن الخليفة يقوم مقام من استخلفه في أداء وظيفة ما، سواء في الحكم أو التبليغ أو الإدارة أو الهداية.

اصطلاحاً:

أن الخلافة ليست مصطلحاً محدوداً بجانب معين من جوانب الهداية الإلهية، بل هي مفهوم عام وشامل، يجمع في دائرته عدة مصطلحات إلهية كبرى، مثل النبوة والرسالة والإمامة، فالخلافة تمثل الإطار الكلي الجامع لهذه المراتب الثلاث، إذ يشترك فيها الجميع من حيث كونهم خلفاء لله في أرضه، وإن اختلفت مراتبهم ووظائفهم. فكل نبي هو خليفة، وكل رسول هو خليفة، وكذلك كل إمام هو خليفة. لكن ليس كل خليفة إماماً بالمعنى الاصطلاحي الخاص، إذ يمكن أن يكون الإنسان نبياً أو رسولاً دون أن يكون إماماً كحال بعض الأنبياء الذين لم ينالوا مقام الامامة. ويبين هذا الامر السيد أحمد الحسن "... **وباعتبار صفاتِ الخليفةِ وحيثياتِ عَمَلِهِ أو تكليفِهِ من المُستخلِفِ يمكنُ أن نصفَهُ وما يحمِلَهُ ونصفَ مُستخلِفَهُ، فنقولُ باعتبارِ أنهُ يتلقى أنباءَ الغيبِ فهو نبيٌ**

1. لسان العرب، ابن منظور، ج9، ص 82 – 89.
2. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 156.

يحملُ أنباءً ويُنبِئُهُ من يوحى إليهِ بالأصل، وباعتبار أنهُ حاملُ رسالةٍ فهو رسولُ يحملُ رسالةً من مُرسلٍ، فأصلُ الدينِ وهو الاستخلافُ يتضمّنُ أصولاً ثلاثة هيَ: المُستخلِفُ والخليفةُ والعلمُ، أو مُنْبِئُ ونبيُ وأنباءُ، أو مُرسِلُ ورسولُ ورسالةُ. ويمكنُ أنْ نصفَ الخليفةَ بأنهُ إمامُ إذا كانَ لهُ مقامُ الإمامةِ." [1]

ومن الأدلة القرآنية التي تؤكد أن الخلافة الإلهية هي المصطلح الأوسع والأشمل لكل من اصطفاه الله تعالى، هو أن القرآن الكريم استخدم مصطلح "الخليفة" في سياقات متعددة عند الحديث عن أنبياء وأولياء الذين اصطفاهم وارسلهم الى خلقه، مثل آدم وداوود، ونص صراحة على أن الله هو من جعلهم خلفاء له في الأرض، قال تعالى: "**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلُ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**" [2] [3] "**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**"[4] وهذا الاستخدام لمصطلح الخليفة يدل على أن الخلافة وصفُ يُطلقه الله على من يصطفيهم من عباده ليقوموا مقامه في تنفيذ أمره، وهداية خلقه، والحكم بما أنزل، أي أن الخليفة هو من يتحقق فيه مقام تمثيل الإرادة الإلهية في الأرض. وكما يقول العقل "حكم الأمثال في ما يجوز ولا يجوز واحد" نجد أن ما جاز أن يُقال في حق آدم وداوود من كونهم خلفاء لله، يجب أن يجوز في حق سائر المصطفَين من

---

1. عقائد الإسلام يليه يسألونك عن الروح، السيد أحمد الحسن، ص 6.

2. القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 30.

3. ولا يصح القول بأن المراد من قوله تعالى: "**إِنِّي جَاعِلُ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**" هو عموم بني آدم، لأن تتمة الآيات الكريمة –30 الى 33 من سورة البقرة – تدل بوضوح على أن المقصود بالخليفة هو شخص آدم (عليه السلام) على وجه الخصوص، لا البشرية جمعاء. إذ بعد هذا التصريح الإلهي، يبين القرآن مشهداً خاصاً يتعلّق بآدم دون سواه، قال تعالى: "**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ علىَ المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" "قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا" "قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ**...". وهذه الآيات تبين أن الله زود آدم بعلم خاص لم تُعطَه حتى الملائكة، وهو ما يؤكد خصوصية هذا الاصطفاء، إذ لا يمكن تعميمه على بني آدم كافة، خاصة وأن منهم من وصفهم القرآن بأنهم كالأنعام بل أضل سبيلاً، كما في قوله تعالى: "**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**". ويزداد الأمر وضوحاً في الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لهذا الخليفة، سجود طاعة لا عبادة، كما في قوله تعالى: "**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**". وهذا السجود دليل واضح على وجوب طاعة هذا الخليفة المختار، حتى على الملائكة أنفسهم، مما يدل على علو مرتبته وخصوصية موقعه. والتعبير القرآني الذي جاء بصيغة اسم الفاعل: (جَاعِلُ)، الذي وقع خبراً لـ (إن) يدل على أن الخليفة موجود في كل زمان فلا يخلو منه زمان، ذلك أن صيغة الفاعل (جَاعِلُ) بمنزلة الفعل المضارع الذي يفيد الدوام والإستمرار. وهذه الدلالة تبين ان الخلافة ليست المقصود منها شخص ادم فقط بل كل من يقوم مقام ادم، وهي بذلك سنة إلهية ثابتة لا يخلو منها زمان، كما في قوله تعالى: "**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**"، والجعل في كليهما يشير إلى فعل دائم مستمر. وبما إن الله سبحانه هو الخالق والمالك الحقيقي، وخليفته في أرضه هو من يقوم مقامه، فهو يكون الحاكم بأمر الله. وتؤكد هذه الحقيقة آيات أخرى، منها قوله تعالى: "**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**". فلو كانت الخلافة الإلهية عامة لكل الناس لما كان ثمة معنى لأن يُخاطب الله نبيه داود (عليه السلام) –وهو واحد من الناس– بخطاب خاص يصرّح بخلافته. بل إن النص القرآني هنا يربط الخلافة بالحكم بين الناس بالحق، مما يعني أن الخلافة مقامُ تشريعيُّ وسياسيُّ، لا مجرد عمارة الأرض. وعليه، فإن الخلافة الإلهية المقصودة في الآيات المباركة هي منصب إلهي يُعطى لأشخاص مختارين من الله، مزوّدين بعلم خاص ومقام رفيع، ويُفرض على الخلق طاعتهم، وهي سنة إلهية مستمرة لا تنقطع في الأرض. انظر https://ahmedalhasan.org/ar/Post/هل-الامامة-بالنص-الالهي-او-باختيار-الناس .

4. القرآن الكريم، سورة صاد، آية 26.

الأنبياء والرسل والأوصياء ما لم يصرف عنهم بقرينة قطعية، حيث انهم ما داموا مشتركين معهم في نفس العلة، وهي الاصطفاء الإلهي والقيام بالحجة وإقامة العدل الإلهي بين الناس، فإذا كان آدم خليفة لأنه مُصطفى ومُعلم من الله، وداوود خليفة لأنه حاكم بين الناس بالحق بأمر الله، فإن من يحمل مثل هذه الصفات لا بد أن يكون هو الآخر خليفة لله، وإن اختلفت درجته أو اسمه أو صفته في النصوص، سواء سُمي "نبياً" أو "رسولاً" أو "إماماً".

وحتى التفاسير عند اهل السنة والجماعة تؤكد هذا المعنى ففي جامع البيان يقول الطبري: "**إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه**" [1]

واكد السمعاني ان ما ذهبنا اليه في معنى الخليفة هو الاصح: "(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض) .... وقيل: إنما سماه خليفة؛ لأنه يخلفه غيره. فيكون الخليفة بمعنى أنه يخلف غيره. ويكون الخليفة أنه يخلفه غيره. **وقيل: إنما سمى خليفة لأنه خليفة الله في الأرض؛ لإقامة أحكامه، وتنفيذ قضاياه، وهذا هو الأصح.**" [2]

والنسفي في تفسيره يبين ان الخليفة ينطبق على ادم وعلى كل الأنبياء من بعده: "والمعنى خليفة منكم لأنهم كانوا سكان الأرض فخلقهم فيها آدم وذريته ولم يقل خلاف أو خلفاء لأنه أريد بالخليفة آدم واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما تستغنى بذكر أبى القبيلة في قولك مضر وهاشم أو أريد من يخلفكم أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك **أو خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي قال الله تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض)**" [3]

اما القرطبي فهو قد ثبت معنى الخلافة الذي طرحنا بالإضافة الى ذلك بين ان تنصيب الامام او الخليفة أصل من أصول الدين، ورد على من ينكر ذلك الأصل: "**والمعنى بالخليفة هنا - في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل**

1. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 1، محمد بن جرير الطبري، ص 289.
2. تفسير السمعاني، ج 1، السمعاني، ص 34.
3. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، ج 1، النسفي، ص 35.

التأويل - آدم عليه السلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره، ... الرابعة - هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم (2) حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك. ودليلنا قول الله تعالى: " إني جاعل في الأرض خليفة " [البقرة: 30]، وقوله تعالى: " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض " [ص: 26]، وقال: " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض " [النور: 55] أي يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآيات." [1]

وفي تفسير الثعلبي اثبت هذا المعنى من نقله لحديث عن حادثة وقعت في زمن عمر بن الخطاب: "فصل في معنى الخليفة قيل: سأل أمير المؤمنين الخطاب، طلحة والزبير وكعباً وسلمان: ما الخليفة من الملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندري. فقال سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرّعية ويقسم بينهم بالسّويّة ويشفق عليهم شفقة الرّجل على أهله ويقضي بكتاب الله، فقال كعب: ما كنتُ أحسب أن في المجلس أحداً يعرف الخليفة من الملك غيري، ولكنّ الله عزّ وجلّ ملأ سلمان حكماً وعلماً وعدلا." [2]

بالإضافة الى الأدلة القرآنية والتفسير فهناك احاديث عن رسول الله (ﷺ) تذكر الخلافة الإلهية، ففي صحيح البخاري يبين ان الله سبحانه وتعالى هو الذي يستخلف الخليفة، وقرن الاستخلاف بإرسال الأنبياء: "حدثنا اصبغ أخبرنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ﷺ) **قال ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة** الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى" [3] والحديث واضح ببيان ان الاستخلاف هو

1. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ج 1، القرطبي، ص 270.
2. الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، ج 1، الثعلبي، ص 89.
3. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ص1271، رقم الحديث 7198.

لشخص مفرد وليس لجمع بني ادم، وأيضاً يثبت ان الاستخلاف بيد الله فقط. وأيضا الحديث المشهور حول خليفة الله المهدي "عن ثوبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقتتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة. ثم لا يصير إلى واحد منهم. ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق. فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم ". ثم ذكر شيئا لا أحفظه. فقال " فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج. **فإنه خليفة الله، المهدى**." [1] [2]

وبهذا يثبت أن الخلافة ليست مصطلحاً خاصاً بآدم وداوود عليهما السلام، بل هي عنوان جامع لكل من اصطفاه الله سبحانه وتعالى، وتولّى تعيينه وتكليفه بقيادة الخلق. ومن ثم، فإن الخلافة تشمل الإمامة، وتشمل النبوة، وتشمل الرسالة.

التفتازاني في شرح المقاصد يطرح بيان لمفهوم الامامة وهو ممن يعتقد ان الخلافة هي نفسها الامامة: "الفصل الرابع - في الإمامة. (وهي رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا خلافة عن النبي (صلى اللّه عليه وسلّم) وأحكامه في الفروع." [3] لا اشكال في دمج معنى الخلافة بالإمامة ان كان مقصدهم من الامامة هو قيادة الناس في الدنيا، اما اذا كان مقصدهم المقام الخاص عند الله فهو لا يصح لكل خلفاء الله، بل هو ثابت عندنا انه مختص بمجموعة خاصة وهم محمد وال محمد عليهم السلام وبعض الأنبياء عليهم السلام الذين نالوا مقام الامام، ودليل ذلك هو قول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: "**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**" [4] فهذه الآية تبين ان إبراهيم عليه السلام لم ينال مقام الامامة الا بعد ان ابتلاه الله، مع العلم ان إبراهيم كان نبياً ومن اولي العزم.

ويعرف الخلافة بن خلدون: "**الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية** الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة

1. سنن ابن ماجة، ج 2، محمد بن يزيد القزويني، ص 647.
2. ومن أراد التوسع في النقاش في هذا الحديث واثبات صحة صدوره ودلالته، فدونه كتاب الشيخ ناظم العقيلي فصل فيه خير تفصيل جزاه خير الجزاء، عنوانه "رسالة في حديث خليفة الله المهدي".
3. شرح المقاصد، ج 5، التفتازاني، ص 232.
4. القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 124.

خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم" [1] وأضاف في بيان هذا المفهوم "وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماما"[2]

الملك لله - لا يخلق الحكيم بلا تدبير، ولا تدبير بلا حجة

إن الحديث عن الملك الإلهي ليس منفصلاً عن المباحث السابقة، بل هو امتداد طبيعي لها، وبناء متكامل على ما قررناه سابقاً من وجود خالق أزلي لهذا الكون، ومن أن هذا الخالق يتصف بصفات الكمال كالعلم المطلق، والحكمة المطلقة، والقدرة التامة. وهذا هو مبنى العقلاء، فعندما نقوم بإثبات نقطة او مقدمة ما فهذا لا يعني التخلي عنها عندما ننتقل الى ما بعدها من المواضيع، بل ان هذا الموضوع في ترابطه هو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهذه المسألة تمثل حجراً في جدار التوحيد المتماسك، بحيث يصبح من التناقض أن يُثبت الإنسان لله وجوداً وصفات، ثم لا يُسلمه بما يترتب على ذلك من مُلك، وسلطان، وحاكمية على خلقه. لذلك يُعد مفهوم الملك الإلهي من الحقائق الكبرى التي يثبتها النقل والعقل والفطرة السليمة، فهو ليس مجرد تصور ديني خاص أو تراث لاهوتي منغلق.

فعندما يتفكر الإنسان في نظام الخلق ودقته، وفي ارتباط أجزائه بعضها ببعض، يجد نفسه مُلزماً بالإقرار بأن لهذا النظام موجداً عالمِاً حكيماً. وهذا الإقرار يجب الا يتوقف عند إثبات وجود الخالق، بل يمتد بداهةً إلى الاعتراف بأنه مالك لهذا الوجود، وأن ملكه ليس لحظة خلق عابرة، بل هو ملك قائم دائم مستمر، يتضمن الخلق والتدبير والتوجيه. لأنه هو الملك والمالك الحقيقي لكل ما هو موجود، ومن صفات هذا الملك يثبت ان حدوده او ملكه لا يقف عند مجرد فعل الإيجاد، بل يمتد الى تدبير مستمر لشؤون المُلك، وضمان أنه يسير وفق الغاية التي من أجلها أُنشئ. ولهذا لا يمكن أن يُنسب إلى الله تعالى الخلق، ثم يُنفى

1. تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج 1، ص 191.
2. نفس المصدر السابق.

عنه التدبير أو يُجعل نظام الخلق منفصلاً عن إرادته. ذلك لان المفارقة بين الخلق والتشريع أو بين الإيجاد والإرشاد تُنتج تصوراً باطلاً لا يليق بالحكمة الإلهية، ولا بكمال الربوبية.

ومن هنا، يثبت عقلاً أن وجود خليفة لله في أرضه، يمثّل إرادته ويُبين شرعه، هو أمر ضروري لا يمكن للعقل إنكاره. لأن غياب هذا الخليفة أو ما يُعرف بالحجة الإلهية، لا يعني فقط تعطيل شريعة الله، بل يعني تعطيل معنى الملك الإلهي نفسه، وانقطاع الصلة بين الخالق والمخلوق، وانهيار الغاية من الخلق. فكما أن الكون لا يقوم إلا بنظام دقيق مستمر، فإن الهدى لا يستقيم إلا بحجة قائمة، يعرف بها الناس الحق من الباطل، وتُحفظ بها الشريعة، ويُقام بها العدل.

أولاً: الخلق لله

نبدأ بأول جوانب هذا الموضوع وهو الخلق، إذ إن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، وهذه حقيقة أثبتناها سابقاً بالأدلة العقلية والعلمية. وهي حقيقة راسخة لا يزيغ عنها إلا مكابر، وقد بُسطت الأدلة العقلية والمنطقية التي تؤكد ضرورة وجود خالق عظيم لهذا الكون. ومن ينكر وجوده فإليه تُرد الحُجج التي سبق عرضها في بيان وجوده وصفاته وعليه ان يردها ويبطلها وقبل ذلك عليه ان يقدم ادلة تنفي وجود هذا الخالق. ولتكامل الصورة نعرض هنا عدداً من النصوص الشرعية من الكتب السماوية، وعلى رأسها القرآن الكريم، والتي نصت بوضوح على أن الخالق هو الله، نذكر منها: "**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ**" [1]، وقوله: "**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**" [2]، وقوله: "**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**" [3]. فالله سبحانه وتعالى لم يترك باباً للشك، بل أكد انه الخالق، ولا يخلق غيره الا بأذنه وقدرته. وفي الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، نجد نفس الإقرار بأن الخالق هو

1. القران الكريم، سورة السجدة، اية 4.
2. القران الكريم، سورة الزمر، اية 62.
3. القران الكريم، سورة الأعلى، آية 2-3.

الله، ففي العهد القديم جاء: "**فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**" [1] "**هكَذَا يَقُولُ اللهُ الرَّبُّ، خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَنَاشِرُهَا، بَاسِطُ الأَرْضِ وَنَتَائِجِهَا، مُعْطِي الشَّعْبِ عَلَيْهَا نَسَمَةً، وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا رُوحًا**" [2]. وفي العهد الجديد، جاء التأكيد ذاته على هذا المعنى: "**أَنْتَ مُسْتَحِقُّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ**" [3]. وهذا نص يجمع بين الخلق والإرادة الإلهية، وهو ما يتفق مع المفهوم الإسلامي للتوحيد.

وبذلك يتكامل البرهان العقلي مع النصوص الشرعية والفطرة السليمة، ليشكّل كل ذلك منظومة معرفية متماسكة تؤكد أن الله هو الخالق، وأن وجوده ليس فقط ممكناً، بل هو ضروري ثابتة عقلاً، ونقلاً، ومغروس فطرياً في النفس البشرية. وإنكار هذه الحقيقة لا يصدر إلا عن تعطيل للعقل، أو تأثر بشبهات سطحية لم تصمد أمام البحث والنظر، أو عن رغبة نفسية في التملص من مقتضيات الإيمان والدين الإلهي. ولا يملك الإنسان المنصف إلا أن يخضع لهذا الحق، وأن يعترف أن وراء هذا الكون خالقاً عظيماً، هو الله، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي إليه المصير. ومن كان خالقاً وموجداً فهو المالك وهو المهيمن على ما خلق دون أدنى شك.

ثانياً: التدبير والتشريع للخالق

إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل شيء، وهو الذي أوجد الموجودات، وبرأها على غير مثال سابق، وكان وحده هو المدبر لأمر هذا الكون بكل تفاصيله، الظاهرة والخفية، فقد لزم بالضرورة العقلية والفطرية والدينية، أن يكون هو وحده المالك المطلق، لا يشاركه في ملكه أحد، لا في خلق، ولا في تدبير، ولا في تشريع، فإن الملك الحقيقي ليس مجرد القدرة على التصرف، بل هو حق التصرف المطلق بلا منازع، وهذا لا يكون إلا لله، لأن كل ما سواه مخلوق له، مملوك بأصله وحركته وغايته. ومن هذا الأصل يتفرع أن الله هو وحده الذي

1. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر تكوين، 1:1.
2. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر إشعياء 42:5.
3. الكتاب المقدس، العهد الجديد، سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 4: 11.

يملك حق التشريع، لأن التشريع تصرف في العباد، وتحليل وتحريم، وتحديد للحقوق والواجبات، وتقرير لما هو خير وما هو شر، وهذه كلها تصرفات في مُلك الله، ولا يجوز أن يتصرف في مُلك أحد إلا بإذنه. فإذا أقر العقل بأن الكون كله مملوك لله، فالقول بأن البشر يملكون حق التشريع فيه دون إذن الله هو اعتداءٌ على سلطان المالك، ومنازعة له في مُلكه، وهذا من أعظم وجوه الشرك والظلم.

اريد ان استطرد قليلاً بهذا الموضوع من خلال التأمل بالواقع البشري البسيط، حيث تتجلى قواعد الملكية وحقوق المالك في أوضح صورها. فكل عاقل يُقر أن من يملك شيئاً، فهو وحده له حق التصرف فيه، ولا يجوز لغيره أن يُقرر عنه أو يضع له نظاماً يُخالف إرادته، وإلا كان هذا اعتداءً واضحاً، وظلماً بيناً، بل وانتهاكاً لحرمة المالك ذاته.

ولكي نقدر حجم الخطأ في السماح لغير الله بالتشريع تخيل معي هذا المثال البسيط: رجل يمتلك بيتاً، هو الذي اشتراه، وبناه، ونظمه، وخصص غرفه، وهو الذي ينفق عليه ويُصلحه، فهل يُعقل أن يأتي شخص غريب - لا يملك هذا البيت - ويضع قانوناً داخلياً يُلزم صاحب البيت وأهله باتباعه دون إذن منهم؟!! او يفرض قواعد على من يُسمح له بالدخول، ومن يمنع؟! أو يفرض عليه كيف يُرتب الأثاث، أو يحدد مَن يسكن ومَن يُخرج؟! كل العقلاء يرفضون هذا، بل يصفون هذا الفعل بالاعتداء الصريح، بل بالوقاحة، لأنه تدخل في ما لا يملك، وتصرف في ما لا يحق له.

ومن الأمثلة الأخرى التي نعيشها في هذا العالم، أن لكل دولة لا بدة لها من سيادة [1] خاصة بها ولا تقبل أن تتدخل دولة أخرى في تشريعاتها أو قوانينها الداخلية، حتى وإن رأت هذه الدولة الأخرى أن ما تقترحه أصلح أو أنفع. لأن السيادة تعني الحق الحصري في التشريع داخل النطاق الذي تمتلكه وتديره، فإذا اعتبر تدخل الدول في شؤون بعضها أمراً عدوانياً يُفضي أحياناً إلى الحروب،

1. السيادة هي الحق الحصري لدولة أو سلطة ما في ممارسة السلطة القانونية والتنظيمية داخل حدودها الجغرافية، دون تدخل من أي جهة خارجية. وفي الدول الحديثة، نرى أن السيادة القانونية للدولة لا تعتمد على موافقة كل فرد على كل قانون. بل إذا سُن القانون بموجب الدستور، اعتُبر ملزماً للجميع، ويُطبق حتى على من يرفضه أو يخالفه، بل يُجبر المخالف بالقوة على الالتزام به، لأنه وُضع من قبل الجهة السيادية المالكة للأرض والسلطة، مع العلم ان هؤلاء الأشخاص الواضعين لهذه القوانين هم مجرد مخلوقين في هذا العالم، وفي أحسن احوالهم يمثلون اغلبية المجتمع وليس كل مجتمع الدولة او البلد. فلو افترضنا أن شخصاً ما رفض قانون المرور، وقرر أن يسير عكس الطريق بحجة أنه "حر في اختياراته"، فإن السلطة لا تتركه وشأنه، بل تلزمه بالقانون ولو بالقوة، لأنه خالف النظام الذي وضعه صاحب السيادة المالك او الحاكم لهذا البلد.

فكيف يُتصور أن يُترك الله سبحانه وتعالى - وهو خالق هذا الكون ومالكه - ويستبدل بخلقه ليُشرعوا في ملكه وخلقه، وهم لا يملكون شيئاً بل هم مخلوقين فيه، وداخلين تحت ارادته؟!

لهذا، فإن العقل يقضي أن حق التشريع لا يكون إلا للمالك، وأنه لا يحق لأحد أن يشرع في ملك غيره إلا بإذنه، وبما ان كل الخليقة ملكا لله، فالتشريع فيها لا يكون إلا بإذنه، أو بتفويض مباشر منه إلى خليفته وحجته. وقد نص القرآن على هذه الحقيقة بوضوح تام لا لبس فيه، قال سبحانه وتعالى: "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**" [1]، وقوله: "**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**" [2]، وقوله: "**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**" [3]. فجمع بين الخلق والأمر، أي بين إيجاد الوجود وتوجيهه، وهذا تلازم عقلي: من خلق، فله أن يأمر، ومن لم يخلق، فلا يحق له أن يشرع او يأمر الا إذا كان مأذون له من المالك الحقيقي لهذا العالم. قال أبو عبد الله عليه السلام: "**لا والله ما فوض الله إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة، قال عز وجل: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله»**". [4]

ويقول السيد أحمد الحسن "**وهذا الأصلُ (الاستخلافُ): هو أصلُ الدينِ وعمودُهُ وركيزتُهُ. فمَن يَنْقُضْهُ فقد نقضَ الدينَ الإلهي ولم يُبقِ منه شيئاً. ولهذا أكدَ الأئمةُ (عليهم السلام) والإمامُ الصادقُ (عليه السلام) على أنَّ مَنِ اغتصبوا حقَ أميرِ المؤمنين (عليه السلام) كانوا أصحابَ الحظِ الأوفرِ في نقضِ الإسلامِ، ليس لاغتصابِهم حقَ أمير المؤمنين (عليه السلام) فقط، بل لأنَّ هذا الاغتصابَ هو عبارةٌ عن نقضِ الأصلِ الذي يرتكزُ عليهِ الدينُ الإلهي وهو الاستخلافُ، ومن ثَمَّ جعلوا الناسَ ينحرفونَ عن هذا الأصلِ الذي هو الدينُ الإلهي من ألفِهِ إلى يائِهِ.**" [5]

وعليه، فإن الله سبحانه هو المشرع الحق، لا لأن له القوة فقط، بل لأنه المالك الذي لا ينازعه أحد، والعالم الذي لا يخفى عليه شيء، والحكيم الذي لا

---

1. القرآن الكريم، سورة يوسف: آية 40.
2. القرآن الكريم، سورة الشورى: آية 21.
3. القرآن الكريم، سورة الأعراف: آية 54.
4. الكافي، الشيخ الكليني، ج 1، ص 316.
5. عقائد الإسلام يليه يسألونك عن الروح، السيد أحمد الحسن، ص 6.

يصدر عنه عبث، والرحيم الذي لا يريد إلا صلاح عباده. ولذلك، فإن كل تشريع لا يصدر عن الله، ولا يوافق شرعه، هو مردود ومرفوض، لأنه اغتصاب لحق المالك، وانحراف عن دينه، ولو سُمي باسم القانون، أو الدستور، أو الإرادة الشعبية، أو السيادة الوطنية.

خليفة الله

بعدما بينا أن الخلق والتشريع حق خالص لله تعالى، لأنه مالك الملك وخالق كل شيء، ننتقل الآن إلى بيان الكيفية التي يوصل بها هذا التشريع إلى خلقه او الناس خصوصاً. الطرق المتصورة التي يمكن أن يُوصل الله بها تشريعه إلى عباده يمكن ان نحصرها في هذه الطرق الثلاثة.

أولاً: هل يخلقهم الله على عقل واحد، وفهم واحد، لا يختلفون فيه؟! هذا باطل، لأن الواقع يكذبه، فقد خُلق البشر مختلفين في عقولهم ومداركهم، ولكل نصيب من الفهم يختلف عن غيره. بل إن الحكمة الإلهية تقتضي هذا التنوع، لأن به تُبنى المجتمعات، وتُستخرج الكفاءات، وتُختبر الإرادات، ويقع الابتلاء، ويظهر التمايز. ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة لا يختلفون، ولكن هذا يخالف سنة الامتحان في هذه الدنيا التي هي أساس الغاية من الخلق.

ثانياً: هل يُوحي إلى كل واحد منهم مباشرة في كل امر عقائدي او تشريعي؟! لم يحدث في التاريخ أن أوحى الله إلى جميع البشر وحياً مباشراً، ولو كان ذلك هو الطريق الأمثل، لفعل الله ذلك، وهو القادر عليه. لكنه لم يفعل، بل اختص بعضاً من خلقه بالوحي، وهذا يدل على أن هذا الطريق - أي الإيحاء المباشر للجميع - ليس هو الطريق الحكيم. بل إن فتح هذا الباب يفضي إلى مفاسد عظيمة، اولها زوال معيار الحجة الموضوعي، إذ سيكون كل امرئ حجة على غيره بمجرد دعواه، ولا يُعرف الصادق من الكاذب، ولا المهتدي من المتوهم، فيضيع الحق بين آلاف الادعاءات المتضاربة. ثانيها تعذر إقامة الشريعة الواحدة، لأن الناس يتفاوتون في فهمهم وتأويلهم، فإذا كان كل واحد يتلقى وحياً

بحسب إدراكه، فسيفضي ذلك إلى أديان متكاثرة، وشرائع متعددة، ويضيع حينها ميزان الوحدة في التشريع، الذي هو ركيزة في هداية الإنسان وحفظ المجتمع.

ثالثها فتح باب الدجل والكذب باسم الله، لأن كل من أراد أن يُثبت رأيه، أو يُضفي الشرعية على مصلحته، يمكنه أن يدعي أن الله أوحى إليه بذلك، فلا يبقى حينئذ سبيل إلى التمييز بين الحق والوهم، ولا بين الهدى والضلال. ولكن لا يفهم من هذا الكلام اننا ننفي وننكر الوحي الإلهي الى الناس بصورة مباشرة من خلال الرؤيا الصادقة او الكشف، بل هذا الطريق ثابت وهو الطريق الاشرف من بين الطرق التي يعرف بها الله. والله كريم ويكلم عباده دائما وبكل شيء وليس فقط الرؤيا او الكشف، حتى يصل الانسان الى مرحلة يرى الله في كل شيء وقبل كل شيء ومع كل شيء [1]، ولكن هذا الطريق كما ذكرت ليس هو المتبع من قبل الله في بيان ما يريده وما لا يريده لعلة أخرى وهي إقامة الحجة على الناس كما قال تعالى: "**رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَّلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ علىَ اللَّهِ حُجَّةُ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**" [2] وهذا الامر موافق للعقل والمنطق السليم، حتى لا يأتي شخص ويقول ان وحي الله كان متشابها او غير مفهوم او لم يأتني شيء من الله، فبوجود الحجة الإلهي يقطع كل الاعذار ان كانت هناك اعذار بالأصل!

فلا يبقى إلا الطريق الثالث: وهو أن يختار الله من بين الناس شخصاً يصطفيه ويوحي إليه، ويجعله واسطة بينه وبين خلقه، يبلغهم التشريع، ويُبين لهم طريق الهداية، ويُقيم الحجة عليهم، ويهديهم بإذنه إلى صراط مستقيم. وهذا هو الطريق الذي يتناسب مع حكمة الله، وعدله، وتدبيره، ويُحقق الغاية من الخلق، ويُحافظ على وحدة التشريع ووضوحه، ويمنع التلاعب به. وقد ابتدأ الله هذا الطريق منذ خلق آدم، حين قال للملائكة: "**إِنِّي جَاعِلُ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**" [3]، فقرن الخلق بالاستخلاف، وجعل وجود الخليفة ضرورة ملازمة لوجود الإنسان، لأن به يُعرَف الله، وبه يُفهَم مراده، وبه تُقام حجته.

ولا يليق بحكمة الله أن يترك هذا العالم الذي يعج بالخلق دون أن يُقيم فيهم حجته، فيتبعونه ويقيمون إرادته في ملكه. فكما أن الملك لا يترك رعيته

1. وكما روي عنه عليه السلام: "**ما رأيت شيئا إلاّ ورأيت اللّه قبله**". علم اليقين في أصول الدين، ج 1، الفيض الكاشاني، ص 182.
2. القرآن الكريم، سور النساء، آية 165.
3. القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 30.

دون من ينفذ إرادته، ويُبلغهم أمره، فكذلك الله سبحانه، لا يليق بكمال حكمته أن يخلق الناس ثم يتركهم من دون نصب من يبلغهم عنه، ويُرشدهم إلى ما خلقهم من أجله. ولهذا لا يصح أن يخلو زمان من وجود خليفة لله، لأن عدم وجوده يفضي إلى ضياع الغاية، ويُبطل الحكمة، ويُسقط الحجة. وهذا ما عبر عنه اهل البيت عليهم السلام في اخبار كثيرة انقل منها:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: "**إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل**".

عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال: "**والله ما ترك الله أرضه منذ قبض الله آدم إلا وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده**".

عن أبي حمزة، قال: "قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): **أتبقى الأرض بغير إمام؟ فقال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت**".

عن الرضا (عليه السلام)، قال: "**قلت له: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا. قلت له: فإنا نروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنها لا تبقى بغير إمام إلا أن يسخط الله على أهل الأرض - أو قال على العباد -. فقال: لا تبقى الأرض بغير إمام ولو بقيت إذن لساخت**"

عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: "**لو بقي في الأرض اثنان لكان أحدهما الحجة على صاحبه**".[1]

اذن فوجود الحجة ليس طارئاً، بل هو سنة إلهية مستمرة.

وإذا نظرنا إلى صفات الله الكاملة من علم وقدرة وحكمة ورحمة، وجدنا أن مقتضاها أن لا يُترك الخلق دون تدبير، ولا دون هداية، ولا دون بيان. فهل يعقل أن يكون الله قادرًا على إرسال من يبلّغ عنه ثم لا يفعل؟ وهل يجوز أن يخلق الإنسان لهداية ومعرفة، ثم لا يضع له سبيلاً واضحًا إليها؟ كلا، بل إن ترك نصب الخليفة مع القدرة عليه، والاحتياج إليه، هو مناقض للحكمة، وهذا لا يصدر من

1. كل هذه الأحاديث من كتاب الغيبة، لابن أبي زينب النعماني، ص 139 - 140.

الحكيم المطلق. ولذلك، فإن الخليفة الإلهي ليس ضرورة دينية فقط، بل ضرورة عقلية ووجودية، لأن به تستمر الهداية، ويُحفظ الدين، وتُقام الحجة.

وهذا الخليفة يُعرف من خلال النص الإلهي من خلال الوحي، أو بالوصية الظاهرة، أو بالعلم الإلهي المؤيد للنص، وسياتي التفصيل في الالية التي يعرف بها خليفة الله. كلنا نعلم أن الناس لا يعرفون مراد الملك إلا بمن يختاره هو، فكذلك لا يُعرف مراد الله إلا بمن يختاره هو. ولذلك، فإن طريق التواصل الإلهي مع الناس لا يمكن أن يكون إلا من خلال هذا الخليفة المنصب من قبل الله، الذي يبلغ عن الله، ويُعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون.

ولهذا قال الله تعالى: "**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**" [1]، فربط المؤاخذة بإرسال الحجة، مما يعني أن الناس لا يُكلفون ولا يُحاسبون إلا بعد أن يُبين لهم الطريق. ولو لم يُرسل الله حجة، لبقيت لهم الحجة على الله، ولقالوا: ما جاءنا من نذير. وقد قال تعالى: "**رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ علىَ اللَّهِ حُجَّةُ بَعْدَ الرُّسُلِ**" [2]، فالحجة قائمة بعد نصب الخليفة والرسول. ومن هنا، فإن القول بانقطاع الحجة، أو بخلو الزمان من خليفة لله، هو قول يناقض مقتضيات العقل والنقل والفطرة، لأنه يُسقط الحجة، ويُبطل الغاية، وينسب إلى الله ما لا يليق به من العبث أو الغفلة. وكل ذلك باطل. فإن وجود الخليفة هو ضمانة لوصول إرادة الله إلى الناس، وهو الصراط الذي من سلكه اهتدى، ومن حاد عنه ضل، وهو تجلي الرحمة والحكمة في تدبير الله لخلقه. وإذا لم يكن الخليفة ظاهراً، فوجوده لا ينقطع، لأنه حجة قائمة، وقد يغيب عن الأنظار دون أن تغيب وظيفته، وفي هذه الحالة يكون الخليفة مبتعد ولا يعلن دعوته بسبب عدم وجود القابل، لان التقصير مرفوع من ساحة الله لأنه كامل لا نقص فيه كما اثبتنا ذلك في الأبحاث السابقة، وأيضا مرفوع من ساحة من ينصبه الله كخليفة له في ارضه في هذه القضية، ويبقى التقصير في ساحة العباد والخلق لانهم غير مستعدين وغير قابلين لهذا الخليفة، لذلك يأمر الله خليفته بعدم التبليغ رحمة من الله بالعباد حتى لا يكذبون هذا الخليفة اذا اعلن عن دعوته. كما ورد في الحديث: "الحجة لا تقوم إلا بمن يُعرفه الله، وإن كان غائباً". فوجود الحجة -

1. القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية 15.
2. القرآن الكريم، سورة النساء، آية 165.

ظاهراً أو مستوراً – هو ضرورة لاستمرار التكليف، ولاستمرار حمل الدين، وإلا بطل التشريع، وبطل الحساب. فالعقل لا يتصور إلهاً يخلق ويشرع، ثم لا يُعرف الناس بتشريعه.

وهكذا يتضح أن الاستخلاف ليس اختياراً بشرياً، بل ضرورة عقلية، وسنة ربانية، ومظهر من مظاهر كمال الله. فلا يكون الدين ديناً، ولا تقوم لله حجة، إلا بخليفة منصوص عليه، يُبلغ عنه، ويُجسد مراده، ويُرشد الناس إلى الحق، فيقطع عذرهم، ويُقيم عليهم الحجة، ويجعل للناس إلى ربهم سبيلاً.

صفات خليفة الله [1]

إن الخليفة الإلهي هو الإنسان الذي اختاره الله سبحانه وتعالى ليكون حجة على خلقه، وواسطةً بينه وبين عباده، ومظهراً لإرادته ومشيئته في الأرض. وقد بيّن السيد أحمد الحسن في كتبه أن هذا الخليفة يتمتع بصفات خاصة تؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة، وهي صفات لا يمكن أن تتوفر إلا في من اختاره الله واصطفاه.

حجة الله: الخليفة الإلهي هو حجة الله على خلقه، وبه يقيم الله الحجة على الناس ويقطع عذرهم، كما في قوله تعالى: "**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**". وهذا يعني أن وجود الحجة الإلهية في كل زمان هو ضرورة لقطع العذر، وايضاً لا يمكن أن يُترك الناس بلا حجة تهديهم وتبين لهم الحق من الباطل.

النبوة والرسالة: الخليفة الإلهي قد يكون نبياً أو رسولاً، بحسب ما يقتضيه مقامه ووظيفته. وقد بيّن السيد أحمد الحسن في كتابه "النبوة الخاتمة" أن النبوة الرسالية التي خُتمت هي النبوة من الله، وافتُتحت النبوة الرسالية من محمد (ﷺ)، خليفة الله الحقيقي المراد الوصول إليه من الخلق، وبالوصول إليه تحققت الخلافة الحقيقية. وبالتالي، فإن الأئمة من آل محمد (ع) هم رسل من محمد (ﷺ) بأمر الله سبحانه وتعالى، وهم يحملون علمه ويبلغون رسالته.

---

1. انظر كتاب عقائد الإسلام، للسيد أحمد الحسن، مبحث صفات خليفة الله في ارضه.

الوصاية: باعتبار أنّ هناك حجة سابق قد أوصى باتباعه ونصرته، وأنه حجة من اللّه وخليفة لله في أرضه من بعده، وليس ضرورياً أنْ يكون الموصي مباشراً للوصي ليكون وصيه، فالباقر والصادق (ع) مثلاً أوصياء لرسول اللّه محمد (ﷺ)؛ لأنه نص عليهم بوصيته.

العصمة: العصمة هي الاعتصام بالله عن محارم الله، والمعصوم هو المعتصم بالله عن محارم الله [1]. والعصمة أمر باطني ليس هناك سبيل للقطع به في الخارج إلا بالنص من الله، أو من خليفة من خلفاء الله السابقين. وخليفة الله المعصوم لا يُخرج الناس من هدى، ولا يدخلهم في باطل. ومن الناحية العقلية، فان العقل يحكم بلزوم عصمة الخليفة الإلهي؛ لأن طاعته واجبة في كل ما يأمر به وينهى عنه. وبما ان الله سبحانه وتعالى حكيم وعالم مطلق فلا يخفى عليه انه إذا امر الناس باتباع غير المعصوم سيكون فيه هلاك الناس، لأنه من الممكن ان يخطا ويدخل الناس في باطل ويخرجهم من الحق، وفي ذلك نقض للغرض؛ لأن الله تعالى أوجب طاعة الأنبياء والأئمة عليهم السلام في كل ما يقولون، لأجل هداية البشر وإرشادهم وإيصالهم إلى الكمال الدنيوي والأخروي؛ فلا محالة لا بد أن يكون الهادي والمرشد معصوماً من الخطأ.

الإمامة: الخليفة الإلهي هو إمام، أي أنه مُنصب ليقود ويأم غيره في هذه الدنيا.

العلم الإلهي: الخليفة الإلهي هو العالم الذي يوحي له الله ويعلمه ما فيه خير وصلاح الناس وإخراجهم من الضلال وإدخالهم للهدى وتعريفهم بالحق، فهو فقط من يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم؛ لأن علمه من الله ومعرفته من الله. أما غيره، فحتى لو عرفوا الحق والصراط المستقيم في آن، فسيجهلونه في آن آخر؛ لأن علمهم ليس من الله ولا يوحى لهم، وبالتالي فلا يمكن وصف أحد من الناس بأنه يهدي إلى الحق وإلى الطريق أو الصراط المستقيم غير خليفة الله في أرضه.

1. انظر كتاب عقائد الإسلام، للسيد أحمد الحسن، ص187.

قانون معرفة الحجة [1]

بعدما أثبتنا أن الله سبحانه وتعالى حكيمٌ مطلق، رحيمٌ مطلق، عليمٌ لا يجهل، وقادرٌ لا يعجز، فكل أفعاله تتصف بالكمال العقلي الذي لا يقبل العبث ولا التناقض، ومن البديهي عقلاً أن الله لم يخلق الخلق عبثاً، بل لحكمة وغاية عظيمة، وهي إيصالهم إلى الكمال الممكن لهم، عبر معرفته وعبادته، ومن أجل تحقيق هذه الغاية، اقتضت حكمته أن لا يترك الناس سدى، بل أن يُرسل إليهم من يعرفهم به، ويوضح لهم طريق الوصول إليه. فكما أن خلق الخلق بلا مرشد ينقض الغاية من الخلق، فإن تعيين خليفة لله في الأرض - يكون واسطة الهداية ومصدر التشريع - يصبح ضرورة عقلية لا تكتمل الحكمة إلا بها. ولكن إذا سلمنا بوجود هذا الخليفة، فلا بد من أن يعرفه الله لعباده بطريقة واضحة، تميزه عن سائر الناس وتقطع العذر المكلفين. ومن هنا تنشأ الضرورة العقلية لوجود "قانون معرفة الحجة"، يحتكم إليه العقلاء في كل عصر لتمييز خليفة الله في أرضه.

فهل يمكن لعاقل أن يصدق أن الله يعين خليفة ثم يترك الناس في حيرة من أمرهم لا يعرفون إليه سبيلاً؟! أو أن كل واحد منهم يُطالب بطاعته دون أن يُعرفهم به؟! هذا يُناقض العدل والحكمة الإلهية، بل يُفضي إلى أن التكليف الإلهي يصبح عبثياً، وهو محال على الله سبحانه.

ومن خلال البحث في التاريخ الديني، والسنة الإلهية المستمرة، والعقل العملي، نجد أن هذا القانون يقوم على ثلاثة معايير مترابطة: **النص الإلهي، العلم الإلهي، والدعوة إلى حاكمية الله.**

أولاً: التنصيب الإلهي (النص)

التنصيب الإلهي هو الركن الأول والأوضح في قانون معرفة خليفة الله. وهو يعني أن الله نفسه، أو أحد خلفائه السابقين، هو الذي ينص على الحجة في

---

1. مع التنبيه على ان حجة الله او الخليفة الإلهي لا يحتاج في الأصل الى قانون او حتى الاعلان عن دعوته بل الناس هي المكلفة بالبحث عنه ومعرفته واتباعه، لان الأصل هو ان يكونوا كلهم صورة الله في الخلق ويعرفون الله. ومع ذلك الله لم يكتفي بإعلانه عن دعوته وارساله بل من رحمته وضع لهم قانون تشخيصي يعرفهم.

كل زمان، فالتنصيب هنا ليس مجرد اختيار بشري أو حالة تعاقد اجتماعي، بل هو فعل رباني، يُثبت أن الخليفة يمثل إرادة الله على الأرض. ويستند هذا إلى القاعدة العقلية التي بينها سابقا من لا يملك لا يحق له أن يُعين، وبما أن الأرض وما فيها هي ملك لله "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**"، فلابد أن يكون تعيين الحاكم فيها من الله، لا من الناس. ولهذا فإن ادعاء الخلافة من دون نص إلهي هو ادعاء المقام زورا وكذبا وافتراء على الله، ولا قيمة له.

وقد ابتدأت سنة النص الإلهي منذ أول إنسان خلقه الله، حيث قال للملائكة: "**إِنِّي جَاعِلُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**" [1]، وجاعل بصيغة اسم الفاعل الدالة على الاستمرار والديمومة. وهو هذا النص الإلهية الذي ابتدأ في ذلك العالم، وثبت به احقية ادم على الملائكة وبقية المخلوقات.

ومن مظاهر هذا النص:

النص المباشر من الله: كما حصل مع آدم ويوسف وعيسى وغيرهم من الأنبياء (ع) من خلال الوحي نص عليهم الله سبحانه وتعالى، وعرف الناس حقهم واختيارهم من قبله ليكونوا حجة على خلقه.

النص من الخليفة السابق: كما في وصية كل نبي لمن بعده، مثل وصية النبي محمد (ﷺ) ليلة وفاته. وهذا الطريق أصبح هو الأصل بعد نبي الله ادم (ع)، لأنه أوضح وأقرب للناس [2]. وينقسم النص من الخليفة السابق إلى نوعين رئيسيين:

1. النص المباشر (التعيين الصريح)

وهو أن يُنص الحجة السابق على الذي يليه بشكل صريح مباشر، وهذا النوع وُجد بكثرة في النصوص الدينية، وله أمثلة عديدة:

---

1. القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 30.

2. ويقول السيد احمد الحسن: "**والنص من الخليفة السابق أكثر وضوحاً وظهوراً للناس من شهادة الله في الملكوت؛ لأنهم غافلون عن ملكوت الله ومنغمسون في المادة وأنسهم بها، فيطلبون نصاً يأتيهم من نفس عالمهم، وليس من عالم الملكوت الذي يجهلونه وهم عنه غافلون.**" – انظر عقائد الإسلام يليه: يسألونك عن الروح – احمد الحسن – الطبعة لأولى – ص68.

- **تنصيب آدم (ع) لابنه هبة الله (شيث):** بعد مقتل هابيل. فقد نص عليه كخليفة وحجة من بعده، وبذلك انتقل النور الإلهي والخلافة عبر النسل المصطفى.
- **تنصيب النبي محمد (ﷺ) للإمام علي (ع):** في حوادث كثيرة، منها في واقعة **غدير خم** التي قال فيها: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)، وهي نص صريح على ولايته وخلافته.
- **تنصيب الأئمة بعضهم لبعض**: كما هو ظاهر في كل وصايا أئمة أهل البيت عليهم السلام، حيث كان كل إمام ينصّ على الذي يليه ويعيّنه إمامًا للناس، وهذا مروي في مئات النصوص الشيعية.

2. النص غير المباشر (الوصية أو البشارة)

وهو أن يكون الخليفة السابق قد أودع نص الخلافة في **وصية مكتوبة**، أو **بشارة نبوية**، أو **علامات تشخيصية مميزة** لمن يأتي بعده، دون أن يلتقي به أو ينص عليه مباشرة. وهو لا يقل قوة عن النص المباشر، لأن الحجة – كما سنبين – هو من أهل العصمة ولا يمكن أن يغرر بالأمة أو يُدخلها في الضلال. وامثلة على هذا النص:

- **نص النبي يوسف (ع) على موسى (ع):** عبر وصايا محفوظة وأخبار موروثة بينت صفات النبي الذي سيأتي بعده، وتركها للأجيال اللاحقة حتى يظهر موسى.
- **بشارة عيسى (ع) بالنبي محمد (ﷺ):** قال تعالى: "**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**" [1]، وهي نص نبوي غير مباشر ولكنها تشخيصية وتقطع العذر.
- **وصية النبي محمد (ﷺ) ليلة وفاته:** وهي وصية مروية ومعتبرة عند طوائف المسلمين، نص فيها على اثني عشر إماماً واثني عشر مهدياً من بعدهم، وعين أول المهديين باسمه وصفاته، وهي وصية تُعد أعظم وأشمل نص تشخيصي للمستقبل بعد رحيل النبي (ﷺ).

---

1. القرآن الكريم، سورة الصف، آية 6.

وبما ان الوصية أو البشارة قد صدرت من معصوم، أو نُقلت بنص إلهي محفوظ أي الكتب السماوي، فإنها - من حيث القيمة الحجية - تُعد مساوية للنص المباشر؛ لأن المصدر في الحالتين واحد وهو الله، والخليفة المعصوم لا ينطق عن الهوى، وإنما يبلغ إرادة الله ويتحدث باسمه. ومن ثم، فإن الوصية المكتوبة أو البشارة التشخيصية ليست مجرد وثيقة تاريخية أو علامة عرضية، بل هي امتداد للخط الإلهي في الهداية، وتُعد من لوازم حفظ الدين. فالله سبحانه لا يكلف عباده باتباع حجته في كل زمان، ثم يترك أمر هذا الحجة معرضاً للضياع أو التلاعب أو الادعاء الكاذب، لأن ذلك يفضي إلى نقض الغاية من الاستخلاف، ويؤدي إلى فتنة الناس بها إذا كانت متاحة للتلاعب او الضياع او الادعاء الباطل، لأنه أي الوصية او البشارة هي كلام من حجة الله في ارضه او قل الله لان الحجة لا ينطق من نفسه بل يأمر بما يريد الله، وعدم حفظها من التلاعب او الاختراق هو مناف لحكمة الله وعدله ورحمته.

اذن حفظ الوصية ليس مجرد مسألة إجرائية، بل هو وعد إلهي، وهدف رئيسي في خط الهداية الناس نحو الحق، كما قال تعالى: "**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**"، والوصايا النبوية التي تتضمن تعيين الحجة هي هذه الاقاويل التي لا يمكن ادعاءها او التقول على الله بها. فالوصية المكتوبة والموصوفة بأنها عاصمة من الضلال لا يمكن أن يحاج بها غير صاحبها ابداً، لأن ذلك يستلزم أحد ثلاثة أمور باطلة: إما أن يكون الله جاهلاً بمن يدعي الكذب، أو عاجزاً عن دفعه، أو راضٍ بالتغرير بعباده، وكلها صفات يستحيل نسبتها إلى الإله الحق. وعليه، فإن منطق العقل والنقل يوجب أن تكون هذه الوصية محفوظة من التزوير، وهي دليل لتبين صاحبها الحق، وبذلك تكون - من حيث الحجة - نصاً إلهياً قائماً بذاته، يقطع العذر ويهدي من أراد الله له الهداية.

وهنا تتضح حُجّية النص بوجهين:

حجية سننية (نقلية): لأن الله بين أن سنته في الأنبياء والرسل هي التنصيب بالنص، وأنه لا يترك الأمة دون بيان.

حجية عقلية: لأن التكليف يتوقف على البيان، والنص أوضح طريق للبيان.

ثانياً: العلم الإلهي (الأعلمية)

إن من الصفات العقلية الضرورية التي لا يمكن أن يتصف بها إلا خليفة لله في أرضه صفة العلم المتصل بالله، وهو العلم الذي يغنيه عن الرجوع إلى الناس، ويجعلهم في المقابل محتاجين إلى علمه، لا يستغنون عنه. فخليفة الله هو العالم الذي لا يحتاج إلى غيره فيما كُلف به من تبليغ الدين وبيان الحلال والحرام وتفصيل أحكام الله التي يستجد بها الزمان والمكان، لأنه موصول بالوحي أو الإلهام الإلهي المستمر، يتلقى مباشرة أو بواسطة ملك ما يحتاجه من العلم الذي يقيم به الحجة على الناس ويحكم به في قضاياهم. وهذا يعني أن مرجعيته العلمية ليست مكتسبة من البشر، ولا قائمة على جمع وحفظ، بل على اتصال معرفي مباشر بالله، فيعلمه الله كل ما يحتاج إليه في مهمته، فيكون هو القول الفصل في ما اختلف فيه الناس. وهذا ما يُفسر اختيار آدم (ع) في بداية الخلق، حين جعله الله خليفة بعد أن علمه "الأسماء كلها"، أي علمه ما يُقيم به الحجة ويميز به مكانته ويجعله أحق بالخلافة من غيره. وهكذا كل خليفة لله في أرضه، يُعرف بأنه أعلم أهل زمانه فيما يخص أمر الدين، لا لأنه قرأ أكثر، بل لأنه يعلم من الله بحسب الحاجة، وإن تعلم فإنما يكمل بالوحي والإلهام، لا بالاكتساب وحده.

انقل كلام السيد أحمد الحسن من كتاب عقائد الإسلام حول العلم: "**وخليفة الله هو العالم الذي يمكنه الاستغناء عن غيره من الناس، وليس لأحد من الناس الاستغناء عنه وعن علمه؛ لأنّ الله يوحي إليه كل ما يستجد في دين الله، وكل ما يحتاجه أهل زمانه في دينهم. والعلم الواجب هنا هو العلم الديني الذي يكلف خليفة الله بتبليغه للناس، فلابد أنْ يكون خليفة الله متصلاً بالله ويعلمه الله ما يحتاج إليه في تبليغ رسالته وإيصال الدين الحق الذي يرضاه الله للناس، وكل ما يستجد من أحكام إلهية، والقول الفصل وحسم ما يختلف فيه الناس.**

ويمكن لمن يطلب الحق أنْ يكون هذا الأمر – أي العلم بما يستجد وقول الفصل وحسم ما اختلف فيه الناس – دليلاً له لمعرفة خليفة الله يعضد دليل النص عليه، ولا يشترط بخليفة الله معرفة علوم استقرائية أو

تجريبية أو حتى دينية سابقة كرسالات خلفاء الله الذين سبقوه، وإنما الواجب في علمه أنْ يكون متصلاً بالله ويعلمه الله أولاً بأول ما يحتاجه في رسالته التي يرسله الله بها للناس. وهذا لا يعني أنه لابد أنْ يكون خليفة الله يجهل رسالات خلفاء الله السابقين أو العلوم التجريبية أو الاستقرائية، وإنما فقط لا يجب ولا يشترط فيه أنْ يعلمها أو يعلم كل تفاصيلها. فهو قد يعلمها بالتحصيل أو حتى بإلهام إلهي أو بكليهما عند وجود ضرورة لذلك، أي أنه يتعلم كغيره بالقراءة مثلاً، ولكن الله يمنّ عليه بأنْ يزيده بالإلهام الإلهي باعتباره خليفة الله، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالدين، كإثبات وجود الله سبحانه أو الدفاع عن الدين عموماً، أما الاعتقادات الساذجة لبعض الحشوية من وجوب العلم بكل اللغات، أو العصمة باللغة وما شابه من جهالات، كالاتصاف بالتأثير بالحجر، فسيأتي مناقشتها وبيان جهل من يعتقدها.

وربما يضطر خليفة الله للصمت فترة من الزمن من خلافته، ولا يظهر علمه كما هو حال أزمنة الفترات. وقد بيّنتها وبيّنت علّتها، وهو عدم وجود القابل للحق، أو يصمت لضرورة يريدها الله سبحانه، كأن يؤدي مهمّته الأولى وهي تهيئة من سيستلم خلافة الله من بعده، فتسليم خلافة الله أمانة كلف بها خليفة الله، ولابد له من تهيئة كل ما يمكنه ليكون هذا الأمر بأفضل صورة تقام بها الحجة على الناس، ولا يكون للمتخلف منهم عذر باتباع خطوات الشيطان، والتخلف عن دين الله أو خليفة الله اللاحق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: 58]، والمراد هو أنّ تسليم خلافة الله للخليفة اللاحق مهمة لابد أنْ يقوم بها الخليفة السابق بأتم وجه؛ لأنها أمانة إلهية في رقبته، ولهذا فقد يضطر إلى الصمت ربما للحفاظ على حياته، حتى تهيئة بعض ما يخص الخليفة اللاحق أو حتى ولادته" [1]

1. عقائد الإسلام يليه: يسألونك عن الروح - احمد الحسن - الطبعة لأولى - ص93 - 94.

وهذا العلم هو ما يمكن الخليفة من أداء دوره: التبليغ، التشريع، والتطبيق الواقعي للدين، وهو ما لا يقدر عليه غيره. فمن لا يملك الفضل في الدين، ليس حجة ولا مرجعاً، بل هو تابع يحتاج إلى من يهديه.

ثالثاً: الدعوة إلى حاكمية الله

يقول السيد أحمد الحسن "**الأرض لا تخلو من الهدى والحق، ولو خليت من راية منصوبة داعية لحاكمية الله لخليت من الهدى والحق، ولهذا فالدعوة لحاكمية الله وخصوصاً إذا انفرد بها داعي الحق في زمانه تكون دليلاً لمن يطلب معرفة الحق يعضد دليل النص المتقدم، فهو دليل بانضمامه إلى النص، أي يكون دليلاً يعضد النص ويزيد من يقين المؤمنين بالحق. والمقصود بحاكمية الله ليس على مستوى التشريع فقط، بل على مستوى التنفيذ أيضاً، مع أنه لا يمكن بحال القول بحاكمية الله على مستوى التشريع دون المستوى التنفيذي؛ حيث إنّ التشريع متجدّد فلابد إذن من منفّذ متصل بالله ليوصل حكم كل مستحدث ومستجد، وليس ضرورياً أنْ يباشر خليفة الله الحكم بنفسه، بل الضروري أنْ يكون مسلّطاً على نظام الحكم وبالخصوص الدماء، أي مثلاً ما يخص قرار الحرب والسلم، أو القصاص أي كأحكام الإعدام.**" [1]

فحاكمية الله التي يدعو إليها خليفته ليست مجرد شعار ديني يرفع لتزيين الخطب، أو مفهوم فكري يتداول في الكتب، بل هي أصل عملي تطبيقي يتفرع إلى شقين متكاملين: التشريع والتنفيذ. ولا يمكن بحال من الأحوال فصل أحدهما عن الآخر، فحاكمية الله في التشريع تعني أن الله وحده هو الذي يضع الأحكام التي تنظم حياة الناس، وتبين لهم ما يحل وما يحرم، وما يطلب فعله وما ينهى عنه. لكن الاكتفاء بالتشريع دون ضمان تنفيذه يجعل هذه الحاكمية معطلة عملياً، وهذا يناقض تماماً غاية الاستخلاف الإلهي، ولذلك فإن خليفة الله لا يكتفي بمجرد إعلان الحكم، بل لابد أن يكون له سلطة حقيقية في تنفيذ إرادة

1. عقائد الإسلام يليه: يسألونك عن الروح - احمد الحسن - الطبعة لأولى - ص99.

الله في الأرض، لا سيما في المواضع الحساسة التي لا يجوز أن تترك للناس، كالدماء وأحكام القصاص والحرب والسلم.

ملحق 1: الثقافة والأخلاق

من نحن؟! ولماذا نحن مختلفون؟!

في هذا العالم الذي ثبت بالدليل العلمي أن مخلوقاته – ومن ضمنها الإنسان – هي نتاج عملية تطورية طويلة، كلها نتجت عن أصل واحد، وبما أنها من أصل واحد فهي بديهياً تشترك مع بعضها البعض في صفات، وإذا ما نفينا أي تدخل خارجي في هذه العملية، فيجب ان تكون كل المخلوقات صفاتها على اقل تقدير لها تفسير ضمن الطرح العلمي، ولا تحتاج الى طرح خارج نطاق العلم. وحسب الطرح العلمي ان اهم ما يميز الانسان هو الة الذكاء التي يتمتع بها، مع ذلك هي لا تعتبر المائز الحقيقي عن بقية المخلوقات، ففي عالم الطبيعة تبرز أوجه تشابه بين القدرات العقلية للإنسان وتلك الموجودة لدى الحيوانات، حيث تُظهر القردة العليا – كالشمبانزي والأورنجوتان – مهارات متقدمة في التفكير وحل المشاكل واستخدام الأدوات، والتواصل مع مجتمعاتهم عبر لغات خاصة، بل يمكنهم حتى تعلم لغات بدائية كلغات الإشارة وتتواصل فيما بينها. وهذا الامر من الحقائق العلمية التي تثبت أن السمات التي ظُن يوماً ما أنها حكر على البشر، كالذكاء والتخطيط، هي في الواقع امتداد لسلسلة تطورية متصلة، تشارك فيها الكائنات الحية بدرجات متفاوتة من التعقيد، تبعاً لاحتياجاتها البيئية ومساراتها التكيفية.

لكن رغم هذا التشابه البيولوجي العميق، فإن التاريخ البشري يحمل مفارقة استثنائية تخرق منطق التدرج التطوري، ففي غضون بضعة آلاف من السنين – وهي لحظة عابرة في المقياس الزمني الجيولوجي – ظهرت لدى الإنسان منظومات ثقافية وأخلاقية معقدة، لا نظير لها في المملكة الحيوانية. تجلت هذه المنظومات فجأة في قوانين حضارية مدونة، وفنون راقية، وفلسفات تجريدية، وقيم أخلاقية تتسم بالتعالي عن الغرائز المباشرة، مثل العدل الذي يقتضي المساواة بين المختلفين، والإيثار غير المشروط الذي يدفع لإنقاذ الغريب حتى لو على حساب النفس، والتضحية من أجل مبادئ مجردة لا تختزل إلى حسابات البقاء أو المنفعة الجينية. هذه القفزة النوعية، التي لا تتوافق مع منطق التكيف البيولوجي البطيء القائم على التراكم التدريجي، تضع العقل

أمام لغز وجودي، كيف انبثقت ثقافة تحمل قيماً تتجاوز المنفعة المادية في كائن نشأ - وفقاً للنموذج التطوري - من سلالة تطورية تهدف بالدرجة الأولى إلى تعظيم فرص البقاء والتكاثر؟!! وإذا كانت الأخلاق الإنسانية العليا، كالعدالة والإحسان والايثار، لا تُقاس بمكاسب بيولوجية أو مادية، فما هو المصدر الذي استمدت منه شرعيتها واستمرارها؟! وهل يمكن لعمليات التطور العشوائية، التي صقلت غرائز البقاء على ضوء الجينة الأنانية، أن تنتج قيماً مجردة تتعالى على قانون الغاب الذي يحكم عالم الطبيعة؟! أم أن هذه الثقافة الأخلاقية الفريدة، بخصائصها المتسامية، تشير إلى وجود "مرجعية عليا" تُعطي للحياة الإنسانية بُعداً مغايراً يتجاوز الصدفة التطورية والضرورة المادية؟! او بعبارة أخرى، ألا يمكن أن تكون هذه القفزة الثقافية المفاجئة في تاريخ البشرية، مع ما تحمله من قيم لا تُقاس بالمنطق البيولوجي، دليلاً على وجود خالق حكيم، زرع في الإنسان بذرةَ الأخلاق ليكون جزءاً من غاية وجودية أسمى من مجرد البقاء والتنافس على الموارد؟!

اود من طرحي لهذا الموضوع إلى التوقف عند بعض المحطات الأولى من تاريخ الإنسان العاقل، مبتدئين بتحديد موطنه الأصلي في القارة الإفريقية، ثم تتبع مسار هجرته الكبرى عبر القارات، مستعرضين ما رافق تلك الرحلة من تحولات وجودية وفكرية. وسنحاول أن نفهم، من خلال هذا التتبع، كيف بزغت أولى ملامح الحضارة الإنسانية: هل كانت نتيجة تدرج طبيعي وبطيء في التطور المعرفي والثقافي، أم أننا أمام قفزة نوعية مفاجئة غيرت مجرى التاريخ البشري جذرياً؟! كما سنتناول بالدراسة والتحليل العوامل العميقة التي قد تكون وراء هذا التحول الحضاري الفجائي، مرتكزين على ما توصل إليه علماء الآثار والأنثروبولوجيا من شواهد وتحليلات، مستمدة من المدونات التاريخية والبقايا الأحفورية التي تشكل اليوم دعائم رئيسية لفهم البدايات.

وسأعتمد على مصدرين رئيسيين يُعدان من أبرز الأطروحات في هذا المجال: الأول هو كتاب "وهم الإلحاد" للسيد أحمد الحسن، الذي يعتبر مناظرة علمية من المستوى الرفيع بي كاتبه وقادة الالحاد اليوم، ويقدم قراءة فلسفية وعقلية متينة وجديدة لنشأة الإنسان ومعنى وجوده واثبات وجود الله من داخل المجال العلمي. والثاني هو أطروحة الدكتوراه للدكتور توفيق مسرور الموسومة بـ "أصل

الأخلاق الإنسانية"، وهي دراسة عميقة ومفصلة تستعرض نشأة الوعي الأخلاقي عبر زوايا العلم التطوري والمنهج الفلسفي والمباحث الدينية. وهي بدورها مبنية على ما قدمه السيد احمد الحسن بكتابه وهم الالحاد. والحق أن هذين المرجعين تعجز الكلمات عن وصفهما، فهما يُقدمان طرحاً متجدداً ومتفرداً، يُحدِث فرقاً نوعياً في فهمنا لأصل الإنسان وحضارته، وأنصح كل باحث جاد بأن يجعلهما ضمن قائمة قراءاته الأساسية لما فيهما من فكر عميق، ومنهجية رصينة، ونظرة شمولية لا تُضاهى.

اين ولد الانسان العاقل

حين نحاول أن نرجع ببصرنا إلى الوراء لنبحث عن نقطة البداية الحقيقية لوجود الإنسان العاقل، فإن الاتجاه العلمي والآثاري يجمع على أن جذور هذا الكائن لم تنبت إلا في القارة الأفريقية، وتحديداً في شرقها، فإفريقيا ليست فقط مهد البشرية بمعناها العام، بل هي المساحة الجغرافية التي استقبلت أول ظهور للإنسان العاقل المكتمل في شكله البيولوجي، والمعروف علمياً بـ "هومو سابينس". ومن هناك بدأت الرحلة الطويلة التي شكلت تاريخ وجوده، داخل القارة وخارجها. وتشير السجلات الأحفورية المتوفرة، المدعومة بالأدلة الجينية، إلى أن الإنسان العاقل ظهر قبل ما يقارب 200,000 سنة في شرق إفريقيا، خاصة في المنطقة الواقعة بين إثيوبيا الحالية وكينيا وربما تنزانيا. ومن أبرز الأدلة التي تدعم هذا الاستنتاج تلك الحفريات التي عُثر عليها في منطقة أومو (Omo Kibish) جنوب غرب إثيوبيا، والتي تعود إلى نحو 230,000 سنة مضت. وتُعد هذه العظام البشرية من أقدم ما تم العثور عليه للإنسان العاقل بتكوينه التشريحي الحديث، أي الإنسان الذي يُشبهنا تماماً من حيث البنية الجسدية والدماغية.

الموقع المحتمل لموطن الانسان العاقل.

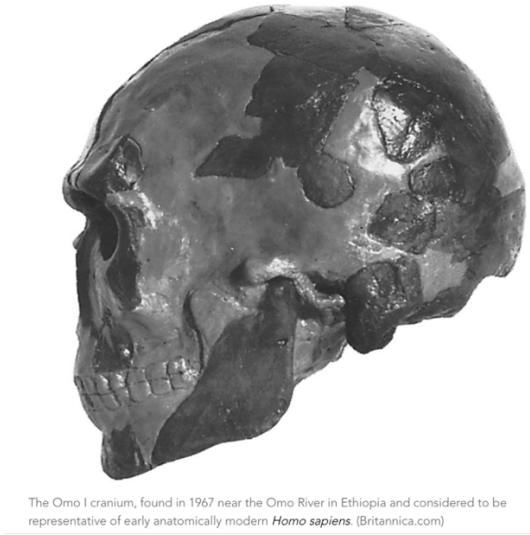

The Omo I cranium, found in 1967 near the Omo River in Ethiopia and considered to be representative of early anatomically modern *Homo sapiens*. (Britannica.com)

الجمجمة المكتشفة في هذا المكان.

أما في شمال إفريقيا، فقد تم العثور على بقايا عظمية في موقع "جبل إيغود" في دولة المغرب، تعود إلى نحو 300,000 سنة، لكنها تعود إلى مرحلة ما قبل الإنسان العاقل المكتمل، أي أنها تنتمي إلى سلالة انتقالية، كانت في طور التحول نحو الشكل النهائي للـ Homo sapiens. وهذا يجعل من شرق إفريقيا الموقع الأكثر ترجيحاً لولادة الإنسان العاقل، حيث تتلاقى الأدلة الجينية والتشريحية والبيئية معاً لدعم هذه الفرضية. وما يميز هذا الموطن الأول هو تنوعه البيئي الكبير؛ من الهضاب المرتفعة إلى الغابات المطيرة، ومن السهول المفتوحة إلى الأنهار المتدفقة، مما وفر لهذا الإنسان بيئة غنية بالتحديات والمصادر الطبيعية في آن واحد. هذه الظروف ساهمت في صقل بعض المهارات الأساسية، كالقدرة على التكيف مع البيئات المختلفة، والتنقل بين التضاريس المتنوعة، واستخدام الموارد المتاحة، وقد عاش هذا الإنسان لآلاف السنين ضمن مجتمعات متنقلة صغيرة، تبحث عن الغذاء والماء، وتصنع أدواتها من الحجر والعظام والخشب.

وقد بدأ الإنسان العاقل بالانتشار التدريجي داخل القارة، فامتد من شرق إفريقيا نحو الجنوب في اتجاه زامبيا وجنوب إفريقيا، حيث تشير بعض المواقع إلى نشاط بشري يعود إلى أكثر من 100 ألف سنة. كما تحرك شمالاً إلى المناطق الساحلية للبحر الأحمر، وامتد لاحقاً إلى وسط وشمال إفريقيا، وصولاً إلى منطقة الصحراء الكبرى التي لم تكن آنذاك صحراء قاحلة، بل منطقة خصبة تحتضن

الأنهار والغابات الموسمية، ولا بد أن نلاحظ أن هذا الانتشار لم يكن قفزة واحدة، بل كان على مراحل، وعلى مدى آلاف السنين. وقد حافظ الإنسان خلال هذا الزمن الطويل على نمط حياة بسيط قائم على الصيد وجمع الثمار. لم يترك آثاراً تدل على ثقافة رمزية متطورة، ولم يُعرف عنه ممارسات عقائدية أو أنظمة اجتماعية معقدة. ولكن، رغم بدائية الحياة، كان هذا الإنسان – هومو سابينس – يحمل في داخله القابلية لنقلة كبرى ستحدث لاحقاً، وتغير مجرى تاريخه كله.

مسارات الهجرة الإنسانية وزمنها من القارة الأم [1]

عند تتبع المسارات التي سلكها الإنسان العاقل في خروجه من إفريقيا إلى بقية أنحاء العالم، تظهر أربع طرق رئيسية محتملة أمام هذا الكائن في بدايات انتشاره. المسار الأول هو الطريق الشمالي عبر مصر وسيناء باتجاه المشرق العربي، والثاني هو الطريق الجنوبي الممتد من شرق إفريقيا، وتحديدًا من إثيوبيا، عبر مضيق باب المندب إلى جنوب الجزيرة العربية. أما المساران الثالث والرابع فيتمثلان في التوجه من تونس أو من المغرب نحو أوروبا عبر مضيق جبل طارق. غير أن الأدلة الأثرية والمناخية والجينية المتوفرة اليوم تستبعد فعلياً طريقي المغرب وتونس، نظراً لصعوبة الظروف البيئية في تلك المناطق خلال الحقبة الزمنية المعنية، ولغياب أي دلائل قوية على بقاء واستمرار المجتمعات البشرية التي مرت عبرها. وبالتالي ينحصر احتمال الهجرة الناجحة في الطريقين الشرقيين، أي عبر شمال شرق إفريقيا (سيناء) أو عبر جنوبها الشرقي (باب المندب). ومع ذلك، فإن المؤشرات المستخلصة من التحليلات الجينية وتوزيع المكتشفات الأثرية تميل إلى ترجيح الطريق الجنوبي باعتباره المعبر الحقيقي الذي شهد الهجرة الكبرى والفعالة للإنسان العاقل خارج القارة الإفريقية. أما المحاولات المبكرة التي سلكت الطريق الشمالي، والتي تم العثور على آثارها في فلسطين وشبه الجزيرة العربية ويُقدر تاريخها بما بين 100 إلى 120 ألف سنة، فلم تحقق نجاحاً طويل الأمد، إذ يبدو أن تلك المجموعات قد انقرضت لاحقاً ولم تساهم وراثياً في السكان المعاصرين خارج إفريقيا.

---

1. انظر أصل الأخلاق الإنسانية، مناقشة أطروحات في الفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والنفس والأعصاب والبيولوجيا، د. توفيق محمد الحسن مسرور، ص 95 – 99.

الهجرة التي تكللت بالنجاح هي مجموعة من الانسان العاقل التي عبرت مضيق باب المندب في أعقاب حدث بيئي هائل، وهو ثوران بركان توبا الذي وقع قبل نحو 74 ألف سنة، وأدى إلى تغييرات مناخية كبيرة شجعت بعض المجموعات البشرية على البحث عن مناطق جديدة أكثر صلاحية للحياة. ويبدو أن هذه المجموعة كانت محدودة عددياً لكنها مؤثرة بشكل حاسم، إذ واصلت تحركها بسرعة نسبية عبر السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، ثم نحو جنوب شرق آسيا وأوقيانوسيا، قبل أن تنتشر لاحقاً في بقية القارات.

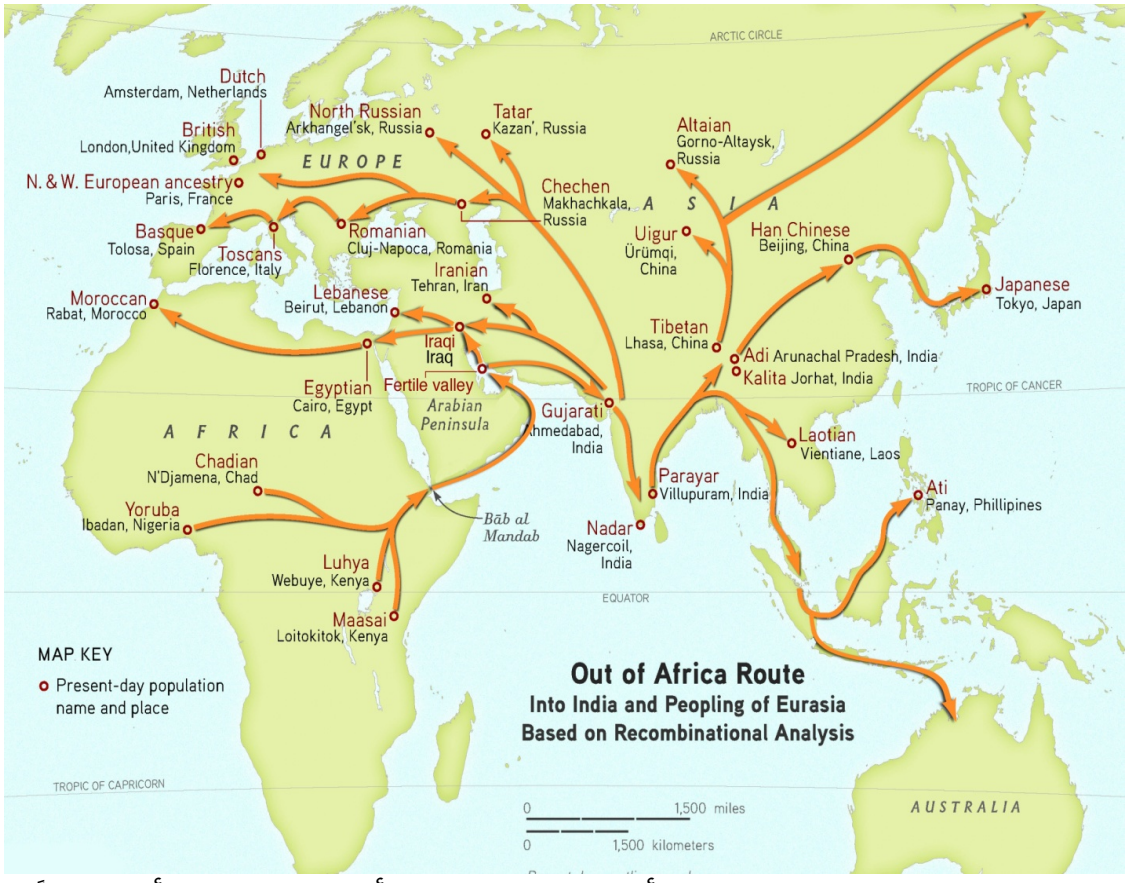

خارطة توضح خروج الهومو سابينس أو الإنسان الحديث من أفريقيا إلى باقي الأرض مروراً بالوادي الخصب.[1]

وتُظهر التحاليل الجينية الحديثة تطابقاً ملحوظاً بين سكان آسيا وأوروبا وأوقيانوسيا الحاليين، مما يدعم بقوة فرضية أن جميع هؤلاء ينحدرون من مجموعة واحدة غادرت إفريقيا قبل حوالي 70 ألف سنة. هذه المجموعة لم تكن فقط الأولى التي نجحت في الاستقرار خارج إفريقيا، بل كانت أيضًا الأساس

1. الصورة مأخوذة من كتاب وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص 131.

الذي انبثقت منه جميع التجمعات البشـرية اللاحقة في العالم القديم، أي في آسيا وأوروبا، وحتى في أستراليا.

الإرث الثقافي للإنسان العاقل في افريقيا

رغم أن الإنســان العاقل قد ولد في إفريقيا، وأنه امتلك منذ اللحظة الأولى البنية الجســدية والدماغية التي نعرفها اليوم، إلا أن وجوده هناك لم يشــهد ولادة حضــارة حقيقية بأي معنى من معانيها. لقد عاش في القارة الأم لآلاف الســنين وهو يتحرك داخـل نطـاق الطبيعـة، متفـاعلاً مع محيطـه البيئي، مستجيباً للضرورات الغريزية كالصيد والاختباء والتكاثر. لكنه ومع امتلاكه نفس المقومات البيولوجية، فإنه لم يترك وراءه ما يدل على ثقافة أو نظام رمزي أو وعي أخلاقي يتجاوز قانون البقاء، وكانت الأدوات التي يســتخدمها بدائية في تصــميمها ووظيفتها، ولم تظهر حتى إشــارات متكررة على وجود طقوس أو رموز أو أنظمة مدونة. صــحيح أن بعض الأدلة المحدودة مثل النقوش على العظام أو اســتخدام الصــبغات ظهرت في مواقع مثل كهف بلومبوس في جنوب إفريقيا، لكنها تبقى مؤشــرات معزولة وغير كافية للدلالة على نشــوء حضارة بالمعنى الجذري للكلمة، بل إنها أقرب إلى محاولات فطرية غير مكتملة، لم تُنتج منظومة ثقافية متماسكة، ولم تتحول إلى ميراث متسلسل ومترابط بين الأجيال. ويؤكد ذلك د. توفيق بقوله: "**وبقي الهومو ســايبنس أكثر من 100 ألف سـنة في أفريقيا، وكان وضعه بدائياً ولم يكن في بداياته حتى يدفن موتاه، ولم يكتمل كهيئة كاملة مطابقة للإنســان الحديث الا قبل 100 ألف ســنة تقريباً**" [1]. وحتى النياندرتال الذي عاش في اوربا مع ان حجم دماغه أكبر نسـبياً من الهومو سـايبنس، فهو لم ينتج أي شـيء من الممكن ان يسـمى حضـارة مميزة عن بقية الحيوانات، او يمكن ان ينافس الانسـان العاقل ابداً، فهو لم ينتج شــيء يســتحق ان يذكر، ولا حتى روابط اجتماعية فيما بينهم، كما هو الحال عند مجموعة الانســان العاقل المهاجرة من افريقيا عبر باب المندب.

1. أصل الأخلاق الإنسانية، مناقشة أطروحات في الفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والنفس والأعصاب والبيولوجيا، د. توفيق محمد الحسن مسرور، ص 90.

هذه الحقبة الخالية من أي أثر حضـــاري يُذكر، رغم توفر الة الذكاء (الدماغ)، يثير تساؤلات فلسفية وعقلية حول ماهية الحضارة وشروط انبثاقها، فلو كانت الحضـــارة مجرد نتـاج لتراكم القـدرات البيولوجيـة، لكـان من المتوقع أن يظهر الســلوك الحضــاري تدريجياً عبر الزمن داخل إفريقيا نفســها، وأن نرصــد تطوراً واضـحاً من البســاطة إلى التعقيد في الرموز والأدوات والمجتمعات. لكن الواقع الأثري لا يدعم هذا التصـور؛ إذ لم يُرصـد داخل إفريقيا أي تسـلسـل منطقي أو تراكمي يدل على تطور معرفي أو أخلاقي حقيقي. اذ لا توجد طبقات ثقافية متدرجة، ولا علامات على تحول تدريجي نحو العقائد أو الفنون أو القوانين، بل ما نجده هو فترة زمنية طويلة خالية من الثقافة او الحضارة المتخصصة، وكأن الإنســان كان حاضـراً بجســده وغائباً بروحه. وهنا تبرز الفرضـية التي تؤمن بأن الحضارة لم تولد في إفريقيا، ولم تكن متدرجة.

فالإرث الثقافي للإنســان العاقل في إفريقيا لا يمكن اعتباره نواة للحضــارة الإنســـانية، بل هو أقرب إلى ســـجل خالي او شـــبه خالي من اثار الحضـــارة المتخصـــصـــة، وما وصـــلنا من تلك الأزمنة يشـــهد على حياة بيولوجية غير متحضـــرة، مهما امتدت زمنياً أو تنوعت بيئياً. وبذلك فإن الحضـــارة – كظاهرة رمزية ووعي غائي – لم تتجذر في إفريقيا، ولم تكن نتيجة تدرج بطيء في المعرفة أو اللغة أو الفن، بل كانت قفزة نوعية حدثت دفعة واحدة بعد مدة من هجرة الإنســان العاقل إلى خارج إفريقيا، وتحديداً إلى شــبه الجزيرة العربية عن طريق باب المندب. هناك وبشـــكل مفاجئ، بدأت تظهر أولى علامات التحول الحاســـم، مثل: دفن الموتى في طقوس رمزية، وبناء ملاجئ منظمة، واســـتخدام أدوات أكثر تعقيداً، وظهور الرموز الدينية، بل وتدوين المفاهيم وتشكل البنية الاجتماعية الأولى كما سيتضح عند تناول الحضارات السومرية الأولى. ومن هنا يمكن القول إن إفريقيا كانت المكان الذي ولد فيه الإنســـان بيولوجياً، أما الهلال الخصـــيب Fertile Crescent فهو المكان الذي ولد فيه الإنسان حضارياً. وهذا الفصل بين "الولادة الجسدية" و"الولادة المعنوية" هو ما يعيد صياغة فهمنا الكامل للتاريخ البشري؛ فالحضارة لم تكن استجابة بطيئة للبيئة، بل كانت نتيجة تدخل نوعي ووعي جديد غير مجرى المســـار البشـــري جذرياً.

فؤوس حجرية من "ميكوك" من العصر الحجري الأوسط (60.000 – 40.000 سنة مضت).

تأمل

وهنا يبرز أمامنا تساؤل ضروري: ما الذي غير هذا الإنسان فجأة، بعد عشرات الآلاف من السنين من الجمود الحضاري والثبات الثقافي؟!! كيف تحول كائن بيولوجي يتصرف وفق غرائزه ويعيش ضمن دورة طبيعية مغلقة إلى كائن أخلاقي منظم، يؤمن بالعدالة، ويدفن موتاه، ويؤسس للمعرفة والقانون؟! ما الذي جعل الإنسان العاقل – بعد أن عاش حوالي مئة ألف سنة دون أي علامة على الوعي الرمزي أو الروحي – ينهض فجأة لبناء حضارة الى يومنا هذا تحتار العقول في تفسيرها، ويؤسس حياة جماعية لها نظام وقيادة وتوزيع أدوار؟!! بل ما الذي جعله يتوقف فجأة عن قتل الآخر لأجل المنفعة، ويتجه إلى قيم مثل الإيثار، والمغفرة، وحماية الضعيف، والوفاء – وهي مفاهيم لم تُعرف في أي كائن آخر على وجه الأرض؟!!!

مع العلم إن مجرد امتلاك الإنسان للدماغ المتطور واللغة لا يكفي لتفسير هذا التحول، فهذه القدرات كانت موجودة فيه منذ آلاف السنين دون أن تُنتج أي نظام حضاري، وحتى عند مقارنة الإنسان ببعض الكائنات الأخرى مثل القردة

العليا والغرابيات التي تُظهر ذكاء وتنظيماً مثيراً، فإننا لا نجد عندها أي مؤشر على نشوء نظام أخلاقي محايد أو رمزي. فهل يُعقل أن كل هذه القفزة الإنسانية التي نراها - من بناء المدن، ونشوء الطقوس والمعتقدات - كانت مجرد نتيجة تراكم عشوائي للتجربة أو اصطفاء طبيعي محض؟!! أليس في هذا تجاهل لحقيقة نوعية الإنسان الجديدة التي لم تكن موجودة من قبل؟!! كيف يمكن أن نفسر هذا الانفجار الرمزي الذي لا سابقة له في تاريخ الأنواع كلها؟ وما الذي حدث تحديداً في تلك اللحظة المفصلية التي أعقبت هجرة الإنسان من إفريقيا حتى تجلت فيه أولى ملامح الحضارة؟ هذه الأسئلة لا يمكن إسكاتها بتفسيرات تطورية جزئية، ولا يُطمأن إليها بتراكمات بيولوجية غير موجهة، بل حتى بعض العلماء والباحثين في هذا المجال قد طرحوا تخيلات غير منطقية من اجل الحصول على تفسير للحلقات المفقودة، كان يكون هناك امتزاج حضاري بين الانسان الأرضي والفضائيين [1]، وهذه التخيلات مع انها مستنكرة ومستبعدة لكنها تبين ان هناك قفزة ثقافية عظيمة قام بها الانسان في زمن سابق، يقول السيد أحمد الحسن "**وما يهمنا من هذه الأطروحة هو أن وضعها واتكاء بعض الناس عليها لتفسير الحضارة السومرية هو مؤشر واقعي واعتراف واقعي من عدد من الناس بأن هناك قفزة حضارية وثقافية لدى السومريين وتحتاج هذه القفزة إلى تعليل، ولهذا وضع هؤلاء هذه الأطروحة التي لاقت قبولاً من بعض الناس. ولكن تبقى هذه الأطروحة عاجزة عن رد النقد العلمي، فهناك إشكالات حول ترجمة وتفسير سيتشن للنصوص السومرية، وهناك إشكالات علمية حول ما يطرحه سيتشن في الكونيات، إضافة إلى أنها تتعارض مع علم الأحياء التطوري.**" [2]

تجيب الاطروحة التي قدمها السيد أحمد الحسن في كتابه وهم الالحاد عن هذه الأسئلة بطريقة موافقة للعلم والعقل، وانفرد بها السيد أحمد

---

1. **أطروحة الفضائيين:** اقترح الباحث زكريا سيتشن، في كتابيه الكوكب الثاني عشر وإنكي المفقود، أن أصل الإنسان العاقل يعود إلى كائنات فضائية، قدمت إلى الأرض منذ مئات آلاف السنين. واستند في طرحه إلى نقوش وألواح سومرية تُظهر معرفتهم المتقدمة بالنظام الشمسي وصوراً لكائنات تفوق البشر طولاً، وفسرها بأنها تشير إلى تدخل فضائي في نشوء الإنسان. ويعتقد أن هذه الكائنات قامت بتعديل جينات الهومو إركتس أو تزاوجت معهم، مما أدى إلى ظهور الإنسان العاقل الذي أسس الحضارة في سومر، ثم في مصر. وقد أيد هذه الفكرة جزئياً باحثون آخرون، منهم المهندس الأمريكي موريس شاتيلان، صاحب كتاب سلفنا الذي جاء من الفضاء.

2. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص291-292.

الحسـن. حيث بين ان هناك هجرة حاسـمة شـكلت نقطة الانعطاف الكبرى في التاريخ الإنساني، حيث انطلقت مجموعة صغيرة من الهومو سابينس من شرق إفريقيا، وعبرت مضيق باب المندب نحو الجزيرة العربية، ثم واصلت طريقها عبر الهلال الخصـيب حتى اسـتقرت في مناطق واسـعة من آسـيا وأوروبا. لكن ما يجعل هذه الهجرة فريدة في نوعها ليس فقط بعدها الجغرافي أو الزمني، بل ما رافقها من تحول ثقافي وأخلاقي مباغت، ففي هذه المرحلة بدأ الإنسـان بدفن موتاه في طقوس رمزية، وبنى الملاجئ المنظمة، وظهرت أولى الرموز الدينية، ورسـومات الكهوف التي تحمل طابعاً عقائدياً، كما تطورت أدواته التقنية بوتيرة متسارعة، مما يدل على انبثاق وعي جديد غير مسبوق، وهذا التحول لا يمكن تفسيره فقط بالظروف البيئية أو التطور التدريجي، بل لا بد من الاعتراف بأن ما حدث هو نتيجة تأثير خارجي نوعي - تدخل ليس مصـدره الطبيعة أو الغريزة، بل العقل الهادف الموجه - وهنا يبرز تفسـير المؤلف أحمد الحسـن بأن ما وقع هو تدخل الإلهي، حيث ابتدأت الخلافة الإلهية في الأرض، وظهر أول معلم سـماوي أُرسـل للإنسـان - وهو نبي الله ادم (ع) - لينقل له مفاهيم العدالة، والتكليف، والمسـؤولية، ويعلمه أن يكون كائنا ذا رسـالة، لا مخلوقا بلا غاية، وأن يبني عالمه على أسـاس القيم لا الفوضـى، وعلى ضـوء المعرفة لا ظلمة الغريزة.

قبل الدخول في زمن الحضارة الإنسانية فلنقسم حياة الانسان العاقل الى هذه المراحل المختصرة، وهي ثلاث مراحل:

مرحلة ما قبل 100 ألف سنة (قبل الهجرة من افريقيا)

في هذه الحقبة الطويلة من وجود الإنسـان العاقل داخل القارة الإفريقية، ورغم اكتماله البيولوجي، لم تُسـجل أي مؤشـرات على نشـوء حضـارة أو نظام ثقافي رمزي. لم يظهر له أي سـلوك يدل على معتقدات أو أفكار تجريدية أو حتى نظم اجتماعية، بل عاش حياة تشـبه في بسـاطتها سـلوك الحيوانات العليا. كان يتنقل بحثا عن الغذاء، مسـتخدما أدوات حجرية بدائية، دون أن يترك أثراً يدل على طقوس أو رسوم أو تنظيم او بداية حضارة متخصصة. وهذا الغياب شـبه الكامل لأي دلالة رمزية يُظهر أن وجوده، رغم طوله ظل حبيس

الغريزة والمادة، وأن الحضـــارة لم تبدأ آنذاك، بل لم تُولد بعد. هذا يجعل من الواضح أن مجرد امتلاك الدماغ المتطور لا يُنتج حضارة تلقائياً، بل لا بد من مؤثر نوعي خارجي يحرك هذه الإمكانيات الكامنة.

مرحلة ما بين 100 ألف و40 ألف سنة قبل الآن (بعد الهجرة من افريقيا)

في هذه المرحلة، بدأت تظهر بعض المؤشـــرات المتفرقة التي قد تُفهم على أنها محاولات بدائية للرمزية أو الإيمان، مثل اســـتخدام المغرة الحمراء (الأوكر)، تصنيع الخرز من الأصداف، ودفن بعض الأفراد في مواضع محددة. لكن هذه المؤشرات كانت قليلة، غير متكررة، ولم تتطور إلى منظومة فكرية أو رمزية متماســـكة. لم يظهر بعدُ دين منظم أو حتى أســـاطير بدائية يمكن تتبعها. ولهذا فإن هذه المرحلة لم تشـــهد تحولاً حقيقيًا في وعي الإنســـان، بل يمكن وصـــفها بأنها فترة ما قبل الوعي الحضـــاري، ظل فيها الإنســـان يتلمس طريقه في الظلام دون أن يخرج بعد من قيد الغريزة إلى عالم المفهوم والقيمة.

مرحلة ما بين 40 ألف سنة وبداية التاريخ المدون

مع الدخول في هذه المرحلة، حدث الانفجار الرمزي والثقافي الحقيقي في حياة الإنســـان. ظهرت فجأة الفنون الجدارية، والنقوش الحيوانية الدقيقة، والتماثيل الصـــغيرة التي تشـــير إلى وجود مفاهيم رمزية وتجريدية متقدمة. لا يوجد أي دليل يربط بين هذا التحول وبين ما سبقه من مراحل، ما يدل على أن هذا الانفجار لم يكن نتيجة تطور تدريجي، بل هو قفزة حاســـمة ومفاجئة في الإدراك والســـلوك. كل المحاولات لتفســـير هذا التحول من خلال مفاهيم مثل الطوطمية أو عبادة الآلهة الأنثوية فشلت في تقديم تفسير شامل ومتماسك. لقد دخل الإنســـان فجأة في زمن الرموز والطقوس والقوانين، وبدأ يؤســـس لمجتمعات ذات قيم، مما يشـــير إلى تغير في طبيعة وعيه لا يمكن رده إلى مجرد الاصطفاء الطبيعي.

سومر بوصفها أول قمة مرئية على سلم الحضارة الإنسانية

تمثل دراسة الحضارة السومرية أعمق ما يمكن للباحثين الوصول إليه من دلائل موثقة حول لحظة التحول الكبرى في تاريخ الإنسان العاقل، ففي حين تشير السجلات الأثرية إلى وجود تطورات تدريجية في فترات ما قبلها، مثل فترة العبيد، إلا أن ما حدث مع بروز سومر لا يمكن تفسيره فقط ضمن هذا الإطار التراكمي، فمنذ لحظة استقرار الموجة الأولى من المهاجرين من إفريقيا في السهل الرسوبي جنوبي العراق، بدأ العد التنازلي لأعظم تحول ثقافي شهدته البشرية المبكرة. هذا التحول لم يكن مجرد استمرار لمسار بطيء، بل مثل طفرة حقيقية على سلم تطور الحضارات، فخلال فترة قصيرة زمنياً نسبياً ظهرت نظم متكاملة تشمل الكتابة والقانون والحكم والتخصص المهني والرياضيات والفلك والزراعة المروية والقيم الأخلاقية العليا، وهو ما يتجاوز ما يمكن تفسيره بالتطور التدريجي وحده. بالإضافة الى ذلك السومريون أنفسهم عبروا عن هذا الانفجار في حضارتهم بنصوص واضحة تعزو ما وصلوا إليه إلى قوى عليا وأسلاف متفوقين، في تعبير صريح عن إدراكهم أنهم لم يبنوا هذه الحضارة من الصفر، بل انطلقوا من أساسٍ معرفي جاهز.

إن الحضارية السومرية ظهرت دفعة واحدة تقريباً، وهو ما يدل على اكتمال سابق لمكونات المنظومة، قبل أن تتجلى على أرض الواقع. فالكتابة المسمارية، التي تطورت بسرعة من رموز محاسبية إلى نظام لغوي متكامل، لم تكن مجرد أداة إدارية، بل ركيزة لنظام معرفي شامل طال الدين، والأدب، والتاريخ، والقانون. إلى جانبها ظهرت أولى القوانين المكتوبة بوعي متقدم لمفاهيم كالعدالة، والتعويض، وحماية الضعفاء، كما في شريعة أورنمو وإصلاحات أوروكاجينا. هذه المنظومة التشريعية تدل على أن السومريين لم يبدأوا من عرف قبلي بسيط، بل استوعبوا مسبقاً بنية قانونية متكاملة تم تنظيمها وتدوينها. أما النظام الاجتماعي، فقد تأسس على هرمية دقيقة ضمت طبقات متعددة، وتنظيماً سياسياً مركزياً يستند إلى الملكية "النازلة من السماء"، بحسب تعبيراتهم. هذه التفاصيل لا تشير فقط إلى تطور شكلي، بل إلى نضج مبكر واستيعاب لأنظمة الحكم والتنظيم قبل أن تُصاغ مادياً، وهو ما يصعب تفسيره دون القفزة النوعية.

أما في مجال العلوم، فقد طور السومريون نظام العد الستيني، الذي لا يزال أثره قائماً في حساب الزمن والزوايا، كما وضعوا تقاويم فلكية دقيقة اعتمدت على المراقبة المنتظمة للنجوم. هذه الابتكارات التي تفترض درجة عالية من التجريد الرياضي، ظهرت دون مقدمات طويلة في السجل الأثري، ما يثير التساؤل حول مصدر هذه المعرفة. أضف إلى ذلك قدرتهم على تخطيط المدن، وبناء الزقورات، وتنظيم شبكات الري المتطورة، واختراع العجلة والمحراث، وهي كلها مؤشرات على مستوى تقني ومعرفي متقدم جداً. وإذا كانت بعض الأدوات تطورت من مراحل سابقة، فإن استخدامها ضمن منظومة متكاملة ومترابطة يظهر أن سومر لم تكن مجرد محطة في طريق طويل، بل يمكن اعتبارها التجلي الملموس لتعاليم الأجداد الأوائل الذين هاجروا من إفريقيا عبر باب المندب، واستوطنوا منطقة الهلال الخصيب، وكأنها صفحة مدوّنة من حضارة أولئك الأسلاف الذين وضعوا اللبنات الأولى للتقدم البشري.

وما يدعم هذه الرؤية أن السومريين أنفسهم لم ينسبوا إنجازاتهم إلى اكتشافات فردية أو تجارب طويلة، بل قالوا بوضوح إن المعرفة جاءت إليهم من مصدر أعلى، تجسده مفاهيم مثل "المي" التي تُعطى من الآلهة، والأسلاف "الأبكالو" الذين أنزلوا فنون الحكم والمعرفة. كما ينسبون الملكية والكتابة والقانون إلى الآلهة بشكل مباشر، ويصورون أنفسهم كمستلمين لحزمة حضارية مكتملة. وفي أسطورة "إنانا وإنكي"، تأخذ إنانا عناصر الحضارة وتوزعها على البشر، مما يؤكد الفكرة الجوهرية أن الحضارة في وعي السومريين لم تكن وليدة مسار تجريبي بطيء، بل نظام جاهز نُقل إليهم. إن هذا الفهم الداخلي - الشهادة الذاتية - التي يقدمها مجتمع سومر نفسه، تضيف بعداً تفسيرياً جوهرياً لا يمكن تجاهله، لأنها تُعبر عن إدراك حضاري لذات الجماعة، وتضعنا أمام نموذج مختلف لفهم نشأة المجتمعات المعقدة، ليس كما طرحه بعض المختصين ان الحضارة جاءت بشكل تدريجي او من خلال الكائنات الفضائية او ما شابه من هذه الاطروحات الخالية من أي دليل.

كلام السيد أحمد الحسن حول الثقافة الإنسانية ومصدرها وكيف ظهرت بهذا الوقت: "**الثقافة الإنسانية:**

لا شـــك أن ظهور الكائن الذي يســـمى الإنســـان الحديث أو العاقل (الهومو سـابينس) مثل طفرة واضحة في التطور الثقافي والحضاري كما تبين سـابقاً، ولكن لو نظرنا إلى تاريخ نفس هذا الكائن الهومو سـابينس وبالذات إلى المجموعة المهاجرة من أفريقيا فســنجد أيضـــاً أن هناك معطيات اكتشـفت في الآثار تؤشـر طفرة ثقافية واضحة في فترة زمنية معينة للهومو سابينس، وقد يصعب علمياً تشخيص بدايتها بدقة لعدم وصول شيء مادي يمكن الاعتماد عليه لتشخيص بداية الطفرة الحضارية بشـــكل قطعي، أما مؤشـــرات بداية القرى الزراعية قبل عشـــرة آلاف عام تقريباً في الشرق الأدنى فلا تمثل البداية بل هي انتشار وتوسع للبداية جعل تشخيصها آثارياً ممكناً لبقاء آثار لها.

ولكن يمكننا الوصـــول إلى شـــيء من الحقيقة - إذا لم نقل الحقيقة كاملة - من خلال دراسـة علمية وموضـوعية لأقدم ما حفظ ودوّن، وأقدم حضارة وثقافة دونت تاريخها هي الحضارة السـومرية أو الاكادية بالكتابة السومرية والتي من المؤكد أنها تمثل الوارث أو أحد الورثة الأقرب لحضارة وثقافة المجموعة المهاجرة الأولى حيث إنها استوطنت الوادي المنخفض الذي يقع في الخليج الحالي. ثم إن هذه الحضـــارة انتقلت بعد الطوفان إلى شـــمال (الوادي - الخليج) الحالي وكونت في الحدود التي تســـمح بالســـكن وعلى حدود الأهوار أو البحيرات قرى ما قبل التاريخ الســـومرية (الاكادية) في بلاد ما بين النهرين (العراق)، ويصـل تاريخ بعض ما وصـلنا منها إلى آلاف الســـنين قبل الميلاد، ولكن بما أن حضـــارة أولئك الأقوام المتقدمين معتمدة على القصـب خصـوصـاً أنهم كانوا يعيشـون في وادٍ مليء بالبحيرات فأكيد لم يصـــل منها شـــيء وإنما وصـــلتنا حضـــارتهم المتأخرة أي بحدود الألف الخامس قبل الميلاد، وما هو مســـجل ومكتوب منها بعد أن بدأت الكتابة والتدوين يؤشـــر طفرة حضـــارية وثقافية بكل معنى الكلمة، ويمكننا القول: إن هذه الطفرة تجلت بعدد كبير من البشـر في العراق وبأدوات بحيث لم تتمكن الظروف من طمســـها، وأكيد أن هذا العدد جاء من أفراد وَرَّثوا هذا المســـتوى الثقافي الراقي في الســـلوك الإنســـاني للأبناء وبالتالي فهي طفرة حضـــارية تعود إلى آلاف الســـنين

الأخرى التي ربما طمسـها الفيضـان ودرسـتها المياه المالحة التي غطت الخليج الحالي.

وأبناء الحضارة السومرية (الاكادية) عندما يتكلمون عن أسلافهم في الرقم الطينية تجدهم يعبرون عنهم بأنهم أكثر رقياً أخلاقياً وثقافياً منهم - هم أنفسهم - وهي ثقافة وحضارة مختلفة تماماً عن ما تقدمها، فنحن لا نتكلم هنا عن مجرد أدوات بل عن نظام اجتماعي وسـياسـي وأخلاق عليا وبالتالي فهناك قفزة ثقافية وحضـارية لا يمكن تفسـيرها علمياً وقد سجلت في فترة ما من تاريخها ووصلتنا من شومر أو سومر أو بلاد اكاد وسومر أو جنوب العراق الحالي، وهذه الطفرة الحضارية أوصلت بعض الباحثين مثل زكريا سيتشن إلى أن يفترض أصلاً سماوياً للسومريين (الاكاديين) وأنهم جاءوا من الفضاء الخارجي،

> "وبوسعنا ان نفترض ان هؤلاء القوم الذين سموا السومريين قد انحدروا من الاقوام التي سكنت (قدمت) العراق في عصور ما قبل التاريخ وهي العصور التي سبقت عصر فجر السلالات وانهم عرفوا باسـم خاص وهو اسـم السـومريين في الازمنة التاريخية نسبة الى الجزء الخاص من العراق الذي تمركزوا فيه وهو القسم الجنوبي الذي سمي باسم شومر او سومر ولعل اقوى ما يجعل هذه الفرضـية رأيا قريبا من الواقع أن اسـس الحضـارة التي سميناها السومرية والتي ازدهرت في عصر فجر السلالات يمكن اقتفاؤها الى الاطوار الحضـارية التي سـميناها بعصـور ما قبل السـلالات مما يكون اسـتمرارا حضـاريا أي ان اصـول الحضـارة السومرية نشأت في العراق ويمكن تتبع أسسها واصولها فيه منذ أقدم الازمان فبامكاننا مثلا ان ندعو اهل طور العبيد من السومريين قياسا على ظهور أبرز مقومات الحضارات السومرية فيه كالمعابد والقرى على الرغم من اننا نجهل اللغة التي تكلم بها أهل العبيد"[1].

1. المصدر (طه باقر - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة): ص89 ـ 90.

ومن المؤكد أن الحضارة المصرية أيضاً تمثل قارئاً ممتازاً لهذه الطفرة الثقافية والحضارية ولكنها متأخرة زماناً عن الحضارة السومرية، وكذلك فبعض البحوث الجينية الأخيرة تثبت أن أصول المصريين وشمال أفريقيا تعود إلى منطقة السومريين القديمة أي جنوب العراق، ولهذا فسأكتفي بالحضارة السومرية أو الاكادية - باعتبارها حضارة الآباء - لإثبات هذه الطفرة الحضارية من خلال المثال السومري (الاكادي)." [1]

ومن خلال جمع الأدلة الأثرية [2]، والنصوص السومرية، والأنظمة المتكاملة التي ظهرت في جنوب العراق، يتضح أن ما حدث ليس مجرد استمرار لقرى زراعية صغيرة، بل قفزة معرفية ومجتمعية غير مسبوقة. وإن التفسير الوحيد المتسق مع حجم التغيير وسرعته هو ما طرحه السيد أحمد الحسن في ان هناك شيء دخل الى المعادلة، وهو اتصال هذه الأجساد بالأنفس السماوية. [3]

والنتيجة؛ إن هذا التطور الهائل الذي سجلته الحضارة السومرية، بما تضمنته من تنظيم ديني وتشريعي وأخلاقي وعلمي متكامل، يُعد بحد ذاته - كما بيّن السيد أحمد الحسن في كتابه وهم الإلحاد - دليلاً صريحاً على وجود الله ودينه وخلفائه في الأرض، لا سيما حين تُقرأ هذه الشواهد الحضارية ضمن سياق معرفي وروحي شامل. ولذلك، فإن من الحكمة والإنصاف - كعقلاء وباحثين عن الحقيقة - أن نربط حلقات هذه السلسلة من الأدلة مع بعضها البعض حتى تكتمل الصورة، بدلاً من تفكيكها أو عزلها عن سياقها؛ فالأدلة التي تثبت وجود الله، وتلك التي تثبت صدق الأنبياء، إضافة إلى المعطيات المستخرجة من أولى الحضارات الإنسانية وما بعدها، لا تشكل شواهد متفرقة، بل هي أجزاء متماسكة من منظومة واحدة تشير إلى مشروع إلهي ممتد في التاريخ، بدأ بآدم ونوح، وامتد عبر خلفاء الله في الأرض الى ان وصلنا اليوم. ومن الظلم العلمي والمنهجي أن نتعامل معها كمعطيات مستقلة لا رابط بينها، لأن في جمعها تكمن الحقيقة، وفي تفريقها يضيع الطريق.

---

1. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص 323 - 324.
2. انظر وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن في موضوع الثقافة الإنسانية وما بعده من المواضيع الخاصة بالسومريين.
3. انظر وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، السيد أحمد الحسن، ص 320.

ملحق 2: دفع الضرر المحتمل [1]

(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ) [2]

إن من أعظم النعم ما جُبل عليه الإنسان وأودع في فطرته، هو ميله التلقائي إلى درء الضرر وجلب المنفعة، لا على مستوى الغريزة البيولوجية فحسب، بل على مستوى إدراك المصير والبحث عن النجاة. فالإنسان، بطبيعته العاقلة يحرص على تفادي الخطر قبل وقوعه، ويتخذ من الحيطة سبيلاً للسلامة، لا سيما إذا كان ما ينتظره من أذى لا يُحتمل، أو إذا كانت عاقبته الهلاك الأبدي. هذا الأصل الفطري هو ما يعبر عنه العقلاء بما يُعرف بـ "قاعدة دفع الضرر المحتمل"، وهو حكم عقلي عملي يحكم بوجوب التحوط وتجنب أي طريق يُحتمل أن يؤدي إلى ضرر عظيم، ولو لم يكن وقوعه يقينياً، لأن الاحتمال نفسه كاف لتحريك العقل نحو اتخاذ موقف وقائي، ومن العجب أن هذه الفطرة العقلية الواضحة كثيراً ما تُعطل عند الحديث عن القضايا المصيرية الكبرى كالإيمان والموت والمعاد، فيُسَوف الناس ويغفلون ويؤجلون، وكأن المصير الأخروي خاضع للتجريب أو قابل للتعويض. وهنا يأتي دور القرآن الكريم والوحي الإلهي، ليوقظ هذا الوعي النائم، ويهز كيان الإنسان بنداءات صارخة من مشاهد القيامة، حيث لا عذر ينفع، ولا رجعة تُقبل. ومن أبلغ تلك النداءات، ما ورد في سورة الأحزاب: "**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ**" فهذه الآية الكريمة ترسم لوحة من الحسرة المطلقة، يُعبر فيها المعذبون عن ندمهم على عدم طاعتهم لله ورسوله بعد فوات الأوان، وهي ليست مجرد وعيد، بل دعوة صريحة لتفعيل حكم العقل قبل حلول اللحظة التي لا يُجدي فيها التمني.

وإن هذا الندم المتأخر، الذي عبرت عنه الآية، يمثل في الحقيقة صرخة العقل المعطل، ونكسة الفطرة التي لم تُلبي دعوتها في الوقت المناسب، وهو ما يفرض على العقلاء، لا سيما في دار التكليف، أن لا يهملوا ما يحتمل فيه الخطر الأخروي، وأن يأخذوا بأسباب النجاة، ولو من باب التحوط، فضلاً عن أن الحق قد أُقيمت عليه الحجج والبينات. ولهذا فإن تسليط الضوء على هذه

---

1. طُرحت هذه الحجة في الفلسفة الغربية باسم "رهان باسكال" إلا أن أهل البيت (عليهم السلام) كانوا أول من طرحها قبل ذلك بوقت طويل جداً.

2. القران الكريم، سورة الاحزاب، آية 66.

القاعدة العقلية والشرعية الكبرى، يوضح كيف أنها ليست نظرية هامشية، بل هي من اللبنات الأساسية التي بُني عليها الفكر العقدي في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، سواء في مسألة وجوب التحقيق في الدين، أو لزوم التوبة من الذنب، أو حصر المرجعية في المعصوم، أو ضرورة اتباع طريق الهداية الربانية، فهذه القاعدة ليست محصورة فقط في باب البحث عن الاله، بل هي اعم من ذلك وتدخل في كل مفاصل الحياة.

وليعلم القارئ والباحث في هذه المسائل، إننا حين نطرح هذه القاعدة، فليس لأننا نُسلم بعدم قيام الدليل العقلي أو النقلي على وجود الله تعالى، أو على حججه وخلفائه في الأرض، بل العكس هو الصحيح تماماً؛ فإن البرهان قائم والحجة تامة والدلائل العقلية والنصوص الإلهية متظافرة على إثبات هذه الأصول، بحيث لا يسع العاقل المنصف إنكارها إلا بتعطيل العقل أو الإعراض عن النص. غير أننا – من باب الاستقصاء والرحمة الفكرية – نطرق أبواب الضمير الإنساني من كل جهة، ونسلك كل سبيل إلى إيقاظ الغافل وتحريك الساكن، ولو من مدخل الفطرة التي فُطر الناس عليها في طلب السلامة وخشية العواقب. فقاعدة دفع الضرر المحتمل ليست بديلاً عن الدليل، وإنما هي نداء إضافي يتوجه إلى وجدان الإنسان، ليقول له: إن كنت قد توانيت في النظر، أو تلكأت في الحسم، فحسبك أن تفكر في المصير المحتمل، وأن تدرك أن التفريط في أمر مصيري كهذا لا يليق بعاقل، حتى لو فرضنا جدلاً أنه لم تقم حجة، فكيف والحجة قائمة والسبيل مهيأ؟!!

وهذا ما تعلمناه من أهل البيت (عليهم السلام)، الذين كانوا في مناظراتهم مع المنكرين والملحدين، لا يبدأون بطرح هذه القاعدة، بل يشرعون بتقديم البراهين العقلية والنقلية الصريحة، ويقيمون الحجج الواضحة على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى لزوم اتباع أنبيائه وأوصيائه. غير أنهم، إذا وجدوا أن الطرف المقابل لا يزال يناور أو يعاند أو يهوّن من شأن المصير، انتقلوا معه إلى خطاب آخر، أقرب إلى مخاطبة الوجدان واستنهاض الحس الفطري، فيطرحون عليه هذه القاعدة لعلها توقظه من غفلته، وتنبهه إلى فداحة الطريق الذي يسلكه، وتنقذه من الاسترسال في المكابرة قبل فوات الأوان. فهي ليست بديلاً

عن البرهان، بل ملاذ أخير لمن لم تنفعه الحجج، ولم تهده البصائر، فيكون هذا النداء التحذيري بمثابة الفرصة الأخيرة للعقل كي ينهض من سباته.

الأصل القرآني لهذه الحجة

يُعد موقف مؤمن آل فرعون، كما صوره القرآن الكريم في سورة غافر، مثالاً عملياً واضحاً على استعمال منطق الحذر من العواقب المحتملة في الحجاج العقلي أي حجة او قاعدة دفع الضرر المحتمل، بقوله تعالى: "وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ **وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ" [1] ففي هذه الآية يعرض مؤمن آل فرعون حجته بصيغة احتمالية ثنائية: فإن كان موسى (عليه السلام) كاذباً، فإن ضرر كذبه سيقع عليه وحده دون أن يلحق بكم ضرر، أما إن كان صادقاً، فسينالكم - على الأقل - بعض ما أنذركم به، وهذا بحد ذاته موجب للحيطة والامتناع عن الإقدام على قتله أو معاداته. ومن هنا يبنى المنطق على مبدأ تحمل أقل الضررين المحتملين، وهو ذات الأساس الذي استندت إليه حجج أهل البيت (عليهم السلام) في عدد من مناظراتهم.

في كلام اهل البيت (عليهم السلام)

جاء في مناظرات أهل البيت (عليهم السلام) مع الملاحدة أنهم، بعد تقديمهم للأدلة القطعية على وجود الله، كانوا يلجؤون أحياناً إلى طرح حجة دفع الضرر المحتمل، استنهاضاً لضمير الطرف الآخر وتنبيهاً له إلى خطورة طريق الذي يسير فيه من انكار وجود الله.

ويُعد الحوار الشهير بين الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) والزنديق ابن أبي العوجاء من أبرز النماذج على استخدام هذه الحجة، وهو طويل انقل منه

1. القران الكريم، سورة غافر، آية 28.

محل الشاهد: "فقال له العالم عليه السلام: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟ فقال: عادة الجسد وسنة البلد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة؟ فقال له العالم عليه السلام أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم فذهب يتكلم فقال له عليه السلام: لا جدال في الحج ونفض ردائه من يده **وقال: إن يكن الامر كما تقول وليس كما تقول نجونا ونجوت وإن يكن الامر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكت، فأقبل عبد الكريم على من معه فقال: وجدت في قلبي حزازة فردوني فردوه فمات**" [1] في هذا الموقف اللافت بعد أن رأى الإمام الصادق (عليه السلام) إصرار ابن أبي العوجاء على إنكاره وعناده رغم وضوح الحق وقيام الحجة، لجأ الإمام إلى أسلوب آخر في الإقناع، لا يُخاطب فيه العقل المجادل فقط، بل ينفذ إلى أعماق الفطرة وضمير الإنسان، فطرح عليه حجة بسيطة من حيث الصياغة، لكنها بالغة الأثر في منطقها ومقاصدها، تهدف إلى إيقاظ الحس الفطري وتنبيه النفس إلى ما قد يترتب على هذا الإنكار من عواقب وخيمة. وللعلم لم يكن الإمام في مقام التشكيك بما يعتقد، بل على العكس تماماً، فقد ثبت يقينه بقوله: "وهو كما نقول"، لكنه ـ من باب استنفاد وسائل الهداية ـ وجه خطابه إلى منطق التحوط، قائلاً بلغة العقل العملي: إن كنت غير متيقن، فلم لا تحتاط لنفسك؟!! فان المسألة تتعلق بمصير لا يُعوض، والتفريط فيه جنون. ويبدو أن هذا الخطاب ـــ رغم بساطته ـ قد لامس شيئاً دفيناً في وجدان ابن أبي العوجاء، بالرغم من عناده وجداله، فقال: "وجدت في قلبي حزازة" والحزازة وجع في القلب، وهي ان دلت على شيء فهي تدل على تزلزل داخلي، لا يحصل إلا حين يهتز الغافل لهول ما كان يغفل عنه.

وفي موضع اخر الامام الصادق يطرح هذه الحجة بطريقة أخرى، بقوله: "**أرأيت إن كان القول قولك فهل يخاف على شئ مما أخوفك به من عقاب الله؟ قال: لا. قلت: أفرأيت إن كان كما أقول والحق في يدي ألست قد أخذت فيما كنت أحاذر من عقاب الخالق بالثقة وأنك قد وقعت بجحودك وإنكارك في الهلكة؟ قال: بلى.**" [2]

---

1. لكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 126.
2. بحار الأنوار، ج 3، العلامة المجلسي، ص 154.

وفي مناظرة أخرى بين الامام الرضـــا واحد الزنادقة، فقال: "عن محمد بن عبد الله الخراساني خادم الرضا عليه السلام قال: دخل رجل من الزنادقة علي أبي الحسـن عليه السـلام وعنده جماعة فقال أبو الحسـن عليه السـلام: **أيها الرجل أرأيت إن كان القول قولكم وليس هو كما تقولون ألســـنا وإياكم شرعا سواء، لا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا**؟ فسكت الرجل، ثم قال أبو الحســـن عليه الســـلام: **وإن كان القول وهو قولنا ألســـتم قد هلكتم ونجونا**؟. فقال رحمك الله أوجدني" [1] وهنا يعيد الإمام الرضـا (عليه السـلام) استعمال نفس منهج جده الصادق (عليه السلام)، ليقرع ذهن الزنديق بمفارقة عقلية لا تحتمل الرد: نحن إن كنا مخطئين، فلا خسارة علينا، أما أنتم فإن كنتم مخطئين، فقد وقعتم في الهلاك الابدي.

قاعدة دفع الضرر المحتمل بعبارة موجزة

تقوم قاعدة "دفع الضرر المحتمل" على أصل واضح لا يختلف فيه اثنان: إذا كان هناك احتمال واقعي لوقوع ضرر جسيم، خصوصاً إذا كان ذلك الضرر أبدى ولا يمكن تداركه، فإن العقل الحصيف يُوجب على الإنسان أن يتحوط ويتفادى طريق الهلاك، حتى وإن لم يكن وقوعه محققاً، فمجرد احتمال الهلاك كاف لاســتدعاء الحذر واليقظة، فكيف إذا كان هذا الاحتمال مصحوباً بأدلة وبراهين ساطعة، ولا يمكن ردها الا عناداً؟! وفي المقابل فان طريق النجاة آمن ولا يترتب على سلوكه خسارة، بل يتضمن طاعة الخالق والسعي إلى الحق. من هنا كان لزاماً على العاقل ألا يغامر بمصـيره الأبدي، كما انه لا يغامر بجســده في هذه الدنيا الزائلة. وهذا الخطاب الذي تبناه أئمة أهل البيت (عليهم الســلام) ليس من باب المقامرة الإيمانية، بل من منطلق عقلاني رشـيد، يحرك الضـمير حين يُعرض عن البرهان، ويستنهض الفطرة في وجه المكابرة، ليكون الإيمان سبيل النجاة عقلاً ونقلاً، لا مجرد تقليد أو شعور عابر.

1. الكافي، ج 1، الشيخ الكليني، ص 126.

ملحق 3: لا حياة للإلحاد

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى) [1]

أجدُ من الأهمية بمكان أن نفتح نافذة فكرية تَسمح لنا بالتأمل في قضية جوهرية ظلت تراودني منذ بداية مشروع هذا الكتاب الذي بين يدك، وكان بودي ان اجعلها في بداية الكتاب لأهميتها الكبيرة، لكني آثرتُ تأجيلها لتكون بمثابة نتيجة مستنبطة لدى القارئ لهذا الكتاب من خلال الأدلة المطروحة فيه، لأنها تشرح مدى أهمية وقيمة هذه المبادئ السماوية، من خلال بيان المصيبة العظيمة عند غيابها او فقدانها تماماً.

أود أن أطرح هنا فكرة تتمحور حول سؤال وجودي مُقلق **ماذا لو كان العالم خالياً من أي وجود مُتعال ومُطلق**، وهو مصدراً للقيم السامية كالخير والرحمة والحكمة؟!! **ماذا لو افتقدنا ذلك المنبع الذي يفيض على وجودنا بالمعنى والقيمة**، ويُرشد سفينتنا في بحر الحياة المتلاطم؟!! لستُ هنا بصدد طرح سيناريو خيالي مُجرد او طعن في معتقدات الغير فهذا ليس منهج الحوار الراقي الذي نتبناه. بل إن هدفي الأساسي هو تسليط الضوء على الأفكار الإلحادية التي تُقدم على أنها بديلاً عن الإيمان، والتي تدعو البعض إلى التخلي عن قيمة الإيمان بوجود قوة عليا تسير الكون بدستور الاخلاق والقيم الحسنة. وفي هذا السياق، أرى أن التعرف على هذه الأفكار وتفصيلها يُعد دليلاً كافياً لكل طالب حق وعاقل يدرك أن الإيمان بما هو فوق هذا العالم ليس مجرد خيار عابر، بل هو أساس يستند إليه في بناء نظرة شاملة للحياة، وهذا ليس كلامي فقط، بل هي حقيقة واضحة لكل مطلع على هذا المبحث، واذكر تعليقاً للفيلسوف **جيمس أندرسون** حول كتاب "دليل الملحد إلى الواقع"، الذي ألفه الفيلسوف الأمريكي الملحد ألكسندر روزنبرج، حيث قال: "**في المرَّة القادمة التي تُصادفُ فيها نُسخةً من كتاب: "دليل المُلحد" في متجرٍ لبيع الكُتُب، فكِّر في نقله إلى قِسْم: "الدِّفاع عن الإيمان"**." فهو يريد ان يبين ان بيان حقيقة الالحاد هي دليلا من ادلة الايمان وليس العكس، كما يتصورها عامة الملحدين.

---

1. القران الكريم، سورة طه، آية 124.

حقيقة الإلحاد: عالم بلا أخلاق!

إن الفكر الإلحادي في جوهره الفلسفي، ليس مجرد إنكار لوجود الخالق، بل هو الجحود او الكفر الجذري بكل المُسلمات التي تُشكل أساس القيم والمعاني في الوجود الإنساني. فالملحد الحقيقي وفقاً للرؤية الإلحادية الحقيقة هو شيء لم يكن واقعاً ولن يصبح حقيقة ابداً، لأن الإنسان الذي نعرفه - بكل تعقيداته الوجدانية والأخلاقية - لا يمكن أن يوجد خارج إطار المعنى الذي تمنحه الإيمان بالغاية، حتى وان كابر او حاول ان يخفي ذلك. ولو أردنا أن نتصور عالماً إلحادياً خالصاً، فهو لن يكون الا صورة وجودية قاحلة تذوب فيها كل المُثل في بوتقة العدم، فالإلحاد المادي يجرُ أتباعه إلى هاوية العدمية الوجودية(Existential Nihilism)، حيث لا غاية للحياة ولا معنى لها سوى التفكك في الفراغ الكوني. هذه العدمية ليست اختياراً فلسفياً ثانوياً لمن يدعي الإخلاص للإلحاد، بل هي قدرٌ محتوم لكل من يتمسك بالإلحاد بصدق ويستسلم لمنطقه حتى النهاية؛ فبدون الإله، تتهاوى كل الأسس التي تُبنى عليها القيم، ويصير الخير والشر مجرد أوهام ناتجة عن صراعات بيولوجية أو اجتماعية، لا عن حقائق مطلقة.

في هذا السياق، يبرز نيتشه كأنموذج لفيلسوف يُعبر عن مآلات الإلحاد بصراحة قاسية، مُعلناً أن انهيار الإيمان بالله يعني انهيار كل القيم المطلقة، ليحل محلها فراغ وجودي لا يُجابه إلا بإرادة القوة أو بالاستسلام للسوداوية. فالحقيقة عند نيتشه - كما تُصورها فلسفة ما بعد الحداثة - سراب لا يُدرك، والحياة مجرد شرارة عابرة في ظلام أبدي. هذه الرؤية تتجلى بوضوح في كتابات ريتشارد دوكينز الذي يصف الكون بأنه "**يَحملُ بكلِّ دقَّة الخصائص التي ينبغي لنا أن نتوقَّعها إذا كان في جَوهره بلا تصميم، ولا غاية، ولا شرّ، لا شيء غير عدم اكتراثٍ قاسٍ**" [1]. هنا، يُقر دوكينز - ربما عن غير قصد - بأن الكون الإلحادي لا مكان فيه للرحمة أو العدالة، بل هو فضاءٌ صامتٌ لا يهمه إلا بقاءُ الجينات، كما يُصوره في كتابه "نهر خارج من عدن" وأيضا في اعماله الاخرى. لكن المفارقة تكمن في أنَّ دوكينز وغيره من الملاحدة يُحاولون مع ذلك الحديث عن قيم إيجابية كالتعاطف والعدل، وكأنهم يُريدون إنقاذ الإنسانية

1. Richard Dawkins, River out of Eden (New York: Basic Books, 2008), p133.

من براثن فلسـفتهم نفسـها! وهذا التناقض يُفضـي إلى سـؤال جوهري: كيف يُمكن للعدمية أن تنتج قيماً وهي تنفي أسـاسـها الميتافيزيقي من خلال طروحاتهم المادية؟!

إنَّ الإلحاد، بحسـب هذا التحليل، هو ليس مجرد تفسـير قاصـر بل هو مسـتحيل التطبيق، لأنه لا يتماشـى مع الوجود الانسـاني فحتى الملاحدة أنفسـهم يعيشـون - في الواقع - على "**ميراث قيمي**" نتج عن ثقافات دينية تراكمت عبر آلاف السـنين، بينما يُنكرون مصـدرَه. ولعل أبلغ دليل على هذه الاستحالة ما ظهر في محاولة الفيلسوف الإلحادي أليكسي روزنبرج، الذي حاول في كتابه "دليل الملحد إلى الواقع: الاسـتمتاع بالحياة دون أوهام" تقديمَ رؤية متفائلة للوجود دون إله، فانتهى به المطاف إلى تبني العدمية الكاملة، حيث أقر بأن الحياة لا معنى لها، وأن كل محاولات صـنع المعنى هي مجرد أوهام لمواجهـة حقيقـة الفراغ. غير أن روزنبرج تعرَّض لانتقـادات لاذعـة حتى من زملائه الملاحدة، الذين اتهموه بالقسـوة وعدم المبالاة، وكأنهم - دون وعي - يُدركون أن الإلحاد لا يُنتج إلا يأسـاً، وأن أي محاولة لتجميله هي هروب من منطقه الداخلي. فلا يُمكن فهمُ عمق الأزمة الوجودية للإلحاد إلا بإدراك أن إنكار الغاية يُلغي بالضرورة إمكانية تأسيس أي نظام أخلاقي مُتسق أي منظم ومحكم. فإذا كان الكون قد وُجد بالصـدفة، وتطور بعشـوائية، فمن أين تأتي قدسـية الحياة الإنسـانية؟!! وكيف نُبرر الإصـرار على العدل أو المحبة إذا كانت هذه المبادئ مجرد أدوات تطورية لضـمان بقاء الجينات؟!، وهذه الجينات هي انانية حد النخاع، ولا تمتلك شـيء اسـمه الاخلاق كما يبين دوكينز وغيره من الملحدين. وكلامهم صـحيح إذا رفعنا الاله المطلق من المعادلة، فالمادة هي صـماء لا تفقه هذه المعاني وهي أصـلا لا تعطي معنى، لأنها فاقده لهذا الشيء وفاقد الشيء لا يعطيه.

الإلحاد يفتح باب الجحيم: تجسيد الفكرة خيالياً!

في مدينـة متهالكة تُدعى "نيالوس"، تشـكّلت عصـابة من الشـباب المُعجبين بفلسـفة التيار الالحادية امثال نيتشـه ودوكينز، سـموا أنفسـهم

"السـوبرمان"، مُعلنين أن "الإله قد مات" وأن عليهم خلق قيمهم الخاصـة بهم دون اكتراث لأي شـيء، فبدأوا بطقس بشـع أمام كاتدرائية "سـانت ماريا"، حيث ربطوا الكاهن العجوز "الأب لويس" إلى عمود رخامي، وصبوا البنزين على جسده المرتعش. بينما كان يتوسـل إليهم لكنهم لا يعرفون معنى الرحمة او الشـفقة، أشـعلوا النار فيه وهم يصـرخون: "**الله قد مات، ولن ينقذك أحد!**". انتشـى الأعضاء برائحة لحمه المحترق، بينما بثوا المشهد على منصات التواصل تحت عنوان: "**طهرنا العالم من أوهام الرحمة!**". لم تتوقف وحشـيتهم عند ذلك، ففي اليوم التـالي اقتحموا داراً للمسـنين والعجزة مسـتفيـدين من كلام الفيلسـوف الملحد جيمس راتشـلز في كلمه عن هذه الفئة من الناس تحديداً: "**ماذا ينبغي أن نقول عنهم؟ سـتكون النَّتيجة الطَّبيعية، وفقًا للمذهِب الـذي نحن بصـدده "الـدّاروينيـة"، أن مكـانتهم هي فقط مثـل مكـانـة الحيوانـات، ورُبَّمـا ينبغي علينـا الاسـتمرار لكي نسـتنتج أنَّـه يُمكن اسـتخدامهم كما تُسـتخدم الحيوانات غير البشـرية، وربما كمواد في المُختبر أو كطعـام؟**" [1]، فعلقوا العجزة على أعمـدة الكهربـاء وهم يهتفون: "البقاء للأقوى!". وقاموا بجر امرأة في الثمانين من عمرها في شـوارع المدينة حتى فارقت الحياة، بينما الناس تشـاهد بتلهف واسـتمتاع وتردد: "**هذه هي إرادة القوة التي تحـدث عنهـا نيتشـه**!". تحول العنف إلى طقوس يوميـة مستمرة؛ حيث أنشأوا حلبة سرية في أنفاق المدينة أسموها "**سيرك العدم**"، أجبروا فيها المُشـردين على القتال حتى الموت ولا مجال للرفض او الانسـحاب، فعندما رفض شـاب يُدعى "كارل" قتل خصمه، قطعوا لسانه وعلقوه على باب الحلبة مع لافتة مكتوب عليها: "**هذا مصـير من يؤمن بالضـعف.**"! مع مرور الوقت، انقلبت العصابة على نفسـها. حيث اشـتبك القائد "فريدريك" مع نائبه "ديريك" حول من يملك حق "تشـكيل القيم الجديدة". في اجتماع سـري، قام ديريك بطعن قائده فريدريك 23 طعنة بسكين نقش عليه "إرادة القوة"، صارخاً: "**لم تكن سوبرماناً بما يكفي!**" وسلخ جلده وعلقه على جدار المقر كـ "علم جديد للفرقة"، بينما بدأ الأعضاء ينهشون بعضهم كالحيوانات، حتى "لينا" تلك الطفلة الصغيرة ذات 11 سنة لم تسلم منهم، حيث حاولت الفرار بعد مشاركتها

1 James Rachels, Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism (New York: Oxford University Press, 1990), 186. Cited in: Norman L. Geister & Frank Ture: / Don't Have Enough Faith to Be an Atheist (Kindle Locations 3296-3299). Crossway, Kindle Edition.

في تعذيب طفل صـــغير يعاني من مرض مزمن، اخذوه من أمه لأنه لا ينفع القطيع بل هو عالة عليهم باعتمادهم على مقولة الملحد بيتر ســـتنجر "**إنّ حيـاة الطفـل حـديـث الولادة أقـل قيمـة من حيـاة الخنزير أو الكلـب أو الشمبانزي**" [1]، فقيدوها في غرفة مظلمة، وكووا جسدها بحديد مُحمى بينما يقرأون مقاطع من كتاب "هكذا تكلم زرادشـت"، وأجبروها على أكل لحم فخذها المحروق قبل أن تموت من النزف.

وبعد سنوات، وُجدت جثث أعضاء العصابة مُشوهة في مكب نفايات، وآخر ناج منهم "فيكتور" وُجد في غابة يهذي عن "صـــرخة نيتشـــه التي التهمت روحه" وبعدها انتحر وكَتب على جدار زنزانته قبل انتحاره: "**قتلنا الإله... فصرنا شياطين**!".

هذه الكلمات – رغم كونها من وحي الخيال، ما عدى الاقتباســـات فهي اقوالهم حقا! – الا انها تســلط الضـوء على واقع الإلحاد الحقيقي. والأدهى من ذلك أننا وفقاً لهذا التصـــور لا يمكننا حتى إدانة هذا الواقع، فكما أن القصـــة الســابقة كانت خيالية، فإن الإلحاد الخالص لا يمنح أصـحابه أسـاسـاً موضـوعياً للاعتراض على أفعال هتلر وســـتالين وغيرهم من المجرمين عبر التاريخ الذين عبثوا في الخلق. ذلك لأنهم يفتقرون إلى المعيار الذي يمكنهم من التمييز بين الصـواب والخطأ. وبناءا على هذا المنظور، فإن كل ما يفعله البشـر ليس سـوى انعكاس لحتمية مادية تحركها الجينات الأنانية التي تســـير هذا الكون المادي، وهذا ما أكده الفيلسوف والمؤرخ الملحد يوفال نوح هراري في كتابه "sapiens": "**لا توجـد الهـة في الكون... ولا حقوق انســـان ولا قوانين ولا عـدل خـارج الخيـال الجمعي للبشـــر**" [2]، فهو يقر بان هذه كلها مجرد خيالات لا قيمة موضـــوعية لها، وبذلك لا يوجد أي مســـتند أخلاقي او قانوني يردع من يتمكن من تطبيق قصتنا الخيالية في الواقع الذي نعيشه لان "البقاء للأقوى"!

---

1 .Peter Singer, Practical Ethics, 1st ed. (Cambridge: Cambridge University 1979), 122–123; quoted in Scott Klusendorf, "Death with a Happy Face: Peter Singer's Bold Defense of Infanticide," Christian Research Journal 23, no. 1 (2001): 25. See also Helga Kuhse and Peter Singer, Should the Baby Live? (Brookfield, Vt.: Ashgate, 1994), 194–197. Cited in: Norman L. Geisler & Frank Turek: / Don't Have Enough Faith to Be an Atheist (Kindle Locations 3287–3289). Crossway. Kindle Editio

2 .Yuval Noah Harari, Sapiens: A Brief History of Humankind (London, Vintage Books, 2014), p31.

ويعبّر الروائي الروسي **فيودور دوستويفسكي** عن تساؤله العميق حول الأساس الذي يمنعه من أن يكون مجرماً أو سفاح دماء، قائلاً: "**افترض جدلاً أنَّه لا يُوجد إله، ولا روح ازلية. الان أخبرني لماذا ينبغي عليّ أن أكون شخصاً صالحاً، وأن أعمل عمالاً صالحة، لو أني سأموت في النّهاية على الأرض؟ ... ولو أنَّه كذلك، لماذا لا ينبغي عليّ، ما دام أنّي سأعتمد على ذكائي ورشاقتي لاجتناب المحاكمة القانونية، أن أطيح برقبة إنسان، وأغتصب، وأسرق؟**" [1]، وعلاوة على ذلك، إذا كان المبدأ المادي هو الحاكم، وكانت "الجينة الأنانية" هي الأساس لتفسير السلوك البشري، فما الداعي أصلاً لوجود المحاكم والقوانين؟!

يخطر في بالي سؤال هل يمكن لأولئك الذين يروجون للإلحاد، أمثال ريتشارد دوكينز ومن لف لفه، أن يعيشوا في عالم لا وجود فيه لشيء يُعتبر "خاطئاً"؟!!

الإلحاد ليس مجرد فكرة يُناقشها مروجي الالحاد في أبراجهم العاجية او في المقاهي وهم يحتسون القهوة، بل هو تجربة وجودية تكشف عن إفلاسها كلما تعمق الإنسان في تفاصيلها، فالسير مع الإلحاد حتى نهايته المنطقية يُفضي حتماً إلى العدمية المقيتة، وإلى انهيار كل ما يجعل الحياة جديرة بالعيش. ولذلك، فإن الدعوة إلى "**معرفة الإلحاد على حقيقته**" ليست سوى نداء لاستفاقة العقل من غفلته المادية، والتذكير بأن الإنسان، بطبيعته – الفطرية – لا يُمكن أن يكون إلا كائناً مُتديناً، يبحثُ عن المعنى حتى في أحلك لحظات اليأس. وقد تبين ان الإلحادُ بهذا المعنى محاولةٌ مستحيلة للعيش خارج التاريخ، والتفكير المنطقي والعملي، وهذا كله هرباً من الحقيقة.

هنا بالضبط يبرز دور القضية التي أردتُ طرحها إن مجرد قدرتنا على تصور فراغ أخلاقي ووجودي ناتج عن غياب المتعالي سيكون عالماً لا يطاق ابداً، وهذا الامر – عدم القدرة على العيش في عالم بدون اخلاق- في حد ذاته دليل على أننا نحمل في أعماقنا بذرة الحقيقة التي ننكرها، لأننا لا نستسيغ هذه الأفعال ونرفضها بفطرتنا، فكما أن الجائع لا يدرك قيمة الخبز إلا لأنه

1 .Letter to N. L. Ozmidov in Selected Letters of Fyodor Dostoyevsky, trans. Andrew R. MacAndrew, ed. Joseph Frank and David I. Goldstein (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1987), p. 446.

يعرف، ولو بشكل بديهي، أن الجسد معد للتغذية، فإن إحساسنا بالفراغ الأخلاقي في السيناريو الافتراضي عن عالم بلا إله، يشير ضمنا إلى أننا خلقنا لنعيش في كون مختلف، كون تنبعث فيه القيم والأخلاق التي يجب ان يكون مصدرها يتجاوز حدود المادة والزمن، وإن هذا الحنين الميتافيزيقي، إذا جاز التعبير عنه بـ"الحنين" ليس وهماً يعالجه العلم، بل هو نداء يجسد العلاقة الجوهرية بين الخالق والمخلوق، مثلما يعكس الظل وجود الضوء.

لذا، فإن استعراض هذا السيناريو الافتراضي، الحياة دون وجود إلهي، ليس تمرينا فكرياً مجرداً، بل هو مدخل لفهم أعمق للبرهان الأخلاقي الذي تم طرحه من قبل خلفاء الله من خلال سيرتهم العملية وهذا ما أكده النبي الأعظم (ﷺ) بقوله: "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**" [1]، وجاء بعد ذلك الفلاسفة والعلماء وصاغوه نظرياً. فإذا كانت الأخلاق، بمعناها الموضوعي، ووجودها الحقيقي يستلزم بالضرورة وجود مشرع حكيم، فإن تصور عالم يخلو من هذا المشرع يعيدنا إلى نقطة البداية نفسها: إما أن نعترف بأن الخير والشر مجرد أوهام نفعية، أو نسلم بأن وجودها المطلق يقتضي وجود مصدر متعال يمنحها شرعيتها.

أنانية الجينات واستحالة نشوء القيم العليا منها

مسألة "أنانية الجين" تُعد من الثوابت في علم الأحياء التطوري، وهي فكرة أصبحت من البديهيات التي لا تحتاج إلى إثبات أو جدال بين العلماء، فهم يقرّون بأن الجينات بطبيعتها تسعى للحفاظ على بقائها وانتقالها عبر الأجيال، فالجينات تعمل كمصممات غير واعية، تسعى بشكل أعمى لتحقيق غاية واحدة وهي **البقاء والتكاثر عبر الأجيال**، دون اكتراث بمصير الكائن الحي ذاته إلا بمقدار ما يخدم استمراريتها [2]. وفق نظرية "الجين الأناني" كما يطرحه دوكينز او علماء التطور. وكل جين يُشبه برنامجاً دقيقاً مبرمجاً لتنفيذ أوامر محددة فقط، مثل توجيه الجسم لإنتاج بروتين معين، أو تحفيز سلوك يزيد من

---

1. الآداب الدينية للخزانة المعينية، الشيخ الطبرسي، ص 5.

2. حيث تدفع الجينات الآباء غريزياً للتضحية بأنفسهم من أجل حماية نسلهم، باعتبارهم امتداداً لمملكتهم الجينية، عند تعرض الأبناء للخطر.

فرص نقل الجين إلى الأجيال القادمة. وهي أي الجينات لا تكتفي فقط ببناء الكائن الحي في المرحلة الجنينية، بل تظل نشطة طوال حياته، تُعدل وظائف الجسم وتستجيب للبيئة بطريقة تزيد من فرص البقاء، مثلاً في حالة التوتر أو الخطر، تُحفز الجينات إفراز هرمونات مثل الأدرينالين لزيادة اليقظة والقدرة على الهروب أو الدفاع، وهذا التفاعل التلقائي هو جزء من برنامج تطوري صُمم لضمان استمرار الكائن الحي حتى يتمكن من التكاثر ونقل جيناته إلى الجيل اللاحق. وبهذا المعنى، كل آلية بيولوجية تُديرها الجينات تُفسر كأداة في خدمة بقائها، وعندما ننظر إلى السلوك البشري من هذا المنظور، يصبح من السهل فهم كيف أن الجينات تُشكل الكثير من الدوافع الأساسية للإنسان؛ فالرغبة في الطعام، العطش، الحاجات الغريزية، كلها وظائف حيوية تُحفّزها الجينات لضمان استمرار الحياة، وحتى بعض السلوكيات المعقدة، مثل البحث عن شريك، يمكن تفسيرها على أنها نتاج برمجة جينية تهدف إلى تحقيق التكاثر وحفظ السلالة، وفي هذا الإطار، الجينات تمارس نوعاً من السيطرة الصامتة على الكائن الحي، تدفعه بشكل غير مباشر إلى التصرف بطرق تُعزز فرصها في البقاء، دون أي وعي أو إرادة حقيقية من الكائن نفسه، وهذا الفهم لعمل الجينات يُظهر أنها ليست أكثر من أدوات مادية تعمل وفق قوانين الكيمياء الحيوية، دون إدراك أو غاية واعية، فهي ببساطة تستمر لأنها نجحت في البقاء، وكل كائن حي هو في جوهره مجرد وعاء لهذه الجينات، تُوجهه من الداخل لتحقيق هدفها الأوحد: الاستمرار ثم الاستمرار ثم الاستمرار، او قل انا ثم انا ثم انا. ومن هذا المنظور الجيني الاناني البحت هل يمكنك ان ينتج سلوكاً يقضي على هذه الجينات؟!

من منظور "الجين الأناني" البحت طبعاً لا. فالجينات لا يمكنها ان تنتج سلوكاً يؤدي إلى إبادتها أو القضاء على استمرارها، لأن بقاؤها واستمراريتها هي الغاية المطلقة عندها. فحتى لو حدثت طفرات أو أخطاء جينية أدت إلى ظهور صفات تهدد الكائن الحي نفسه - وهو الوعاء الحامل لهذه الجينات - فإن الانتخاب الطبيعي سيتدخل لتصفية هذه الطفرات الضارة، بحيث لا تستمر إلا الجينات التي تعزز فرص البقاء والتكاثر. بالإضافة الى ذلك فان الجينات تمتلك آليات تصحيحية مذهلة، فعند حدوث خلل يهدد استمراريتها، تنشط

نظم الإصلاح الجيني، أو يُستبعد الجين المعطوب عبر الانتخاب الطبيعي في دورات الحياة المتعاقبة، مما يضمن إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي، حيث تظل الأنانية الجينية هي المحرك الأساسي. وبذلك، فإن أي سلوك مدمر للجينات أو الكائن الحي الذي يحملها لن يُكتب له الاستمرار، لأنه ببساطة يتناقض مع المبدأ الجوهري الذي يحكم الجينات "**البقاء بأي ثمن**"، حتى لو تطلب الأمر تعديل استراتيجياتها مراراً وتكراراً لضمان استمرار تدفقها عبر الأجيال. وفي نهاية المطاف الجينات التي تبقى هي تلك التي أثبتت نجاحها في الصراع المستمر من أجل البقاء، وتلك التي أخفقت في حماية نفسها أو دفعت الكائنات الحية لسلوكيات انتحارية ستُمحى تدريجياً من الوجود، لتبقى فقط الجينات التي تنجح في التكيف مع البيئة واستغلال كل ما يعزز فرصها في الخلود الجيني.

وهذا يعني أن كل سلوك بشري يجب أن يكون مبنياً ومفسراً بمنطق البقاء والتكاثر لا غير، لكن الواقع الإنساني يعارض هذا التفسير في مواقف كثيرة تكشف عن أبعاد تتجاوز المادة البحتة. فالإنسان قد يضحي بنفسه لإنقاذ غريب لا يربطه به أي رابط وراثي، أو يتخلى عن ثروته في سبيل الدفاع عن مبدأ مجرد كـ "العدالة"، وهي تصرفات لا يمكن اختزالها إلى مجرد استراتيجيات بيولوجية لتعزيز بقاء الجينات. فالعالم المادي، الذي يقوم على قوانين الطبيعة الفيزيائية والكيميائية غير قادر على إنتاج سلوكيات أو مفاهيم تتعارض مع مصلحته البيولوجية المباشرة، مثل **الإيثار الحقيقي**. فهو يركز على البقاء والتكاثر وفقاً لقوانين الداروينية، ولا يعترف بالقيم التي تتجاوز الذات أو تتطلب التضحية من أجل الآخرين دون مصلحة مباشرة. **فالإيثار الحقيقي** الذي يظهر في بعض السلوكيات البشرية مثل التضحية بالنفس لإنقاذ الآخرين أو تقديم الدعم بدون انتظار مقابل، يتعارض بشكل صريح مع هذا المنطق المادي. وهو **يتطلب رغبة حقيقية وقوية تغير المعادلة الانانية في منظومة الجينات**، وهذه التضحيات التي لا تعود بالنفع المباشر على الفرد، بل في بعض الأحيان تؤدي إلى أضراره او حتى هلاكه، سواء كان ذلك من خلال مخاطر جسدية أو فقدان للموارد. كيف يمكن للعالم المادي، الذي تحكمه القوانين الفيزيائية والتفاعلات الكيميائية، أن ينتج مثل هذه

الســـلوكيات التي تُظهر تجاهلاً للمصـــلحة الذاتية، بل وتتناقض مع القيم التي من المفترض أن تحكم البقاء؟!!

الواقع أن الإيثار يشير إلى وجود بعد غير مادي في الإنسان، لا يمكن تفسيره فقط من خلال السعي المادي للبقاء أو تكاثر الجينات. فهذا النوع من التضحية يعكس إيماناً بقيم تتجاوز المصـــالح الفردية، مثل العدالة، أو حب الآخرين، أو حتى التضحية في سبيل مبدأ أسمى، وهذه القيم ليست نتاجاً لعوامل مادية أو تطورية كما بينا سابقاً. وفي نقاش موضوع الإيثار الحقيقي انقل كلام للسيد احمد الحســـن في كتاب وهم الالحاد حيث يضـــع النقاط على الحروف: "**فلا الجينات يمكنها تفسير صفة الايثار الحقيقي، لأنها صفة مضادة وعدو لدود للجينات الفردية، ولا الميمات أيضاً يمكنها تفسير وجود هذه الصفة؛ لأنها كميم ثقافي لا يمكنه أن يظهر للوجود فضـــلاً عن أن ينجح ويبقى لأنه عبارة عن صـفة مضـادة وعدوة للبنية الأنانية التي رسـختها أنانية الجينات فينا، والتي بنتنا ككيانات أنانية لتضـــمن بقاءها، ولا يوجد اســـتثناء لأنانية الكيانات (أي أجســـامنا) إلا تلك الحالات الإيثارية المبنية على الأنانية الجينية نفسـها أو الايثار المتبادل والتي بيناها فيما سـبق كإيثار الأهل لأبنائهم واطعام الخفاش مصـــاص الدماء لجاره في الكهف على مبدأ (حك ظهري اليوم لأحك ظهرك غداً)، وهذا النوع من الإيثار لا علاقة له بالإيثار الحقيقي المتعمد.**

وفي كتابه (الجينة الأنانية) وفي فصل الميمات بالذات فإن د. دوكنز لم يناقش هذه المسـألة رغم أنها أهم مسـألة في هذا الموضـوع، فليس المطلوب – من الملحد ليثبت صـحة منهجه – وضـع نظرية تفسـر اختراع الوحدات الثقافية عند الحاجة إليها أو الاستفادة منها ونسخها وتناقلها بعد ذلك، بل المطلوب هو تفسـير الثقافة المتخصـصـة للإنسـان كالايثار وسبب ظهورها ومبدأها.

"ومن المحتمل أن يتفرد الانســـان بميزة أخرى هي المقدرة على الايثار الحقيقي الأصيل والمحايد. وإن كنت آمل ذلك، فلن أناقش هذه

المســـألة بطريقة أو باخرى، كما لن أخمن تطورها الممكن من حيث التقليد" [1].

هل يمكن أن نعتبر هذا التصريح عبارة عن اعتراف من د. دوكنز بالعجز عن إيجاد تفســير منطقي للايثار الحقيقي يتوافق مع نظريته الإلحادية، أم ماذا؟ هل من المعقول مثلاً أن يكون لديه تفسـير لأهم المسـائل التي تنقض مذهبه الإلحادي ثم يتركها هكذا تبرعاً؟ أترك الجواب للقارئ." [2]

"فصل الخطاب: أنانية الجين لا تسمح بمرور الإيثار الحقيقي

الجينات أنانية ولكن هذا لا يعني أن الأجســاد تســلك ســلوكاً أنانياً محضاً، فمعنى أن الجينات أنانية هو أن الأجساد لا يمكن أن تسلك سلوكاً إيثارياً مضــاداً لأنانية الجين، فالجين من حيث إنه أناني حريص على بناء أجسـاد تضـمن بقاءه وانتقاله عبر الأجيال، ولهذا فقانون الجين الأناني لا يســمح للميمات المضــادة له - ميمات الإيثار الحقيقي - والتي تســعى للقضــاء عليه بالمرور في الطبيعة، فوجود الانتخاب الطبيعي ســيجعل مرورها مستحيلاً حيث إن أي فرد أو مجموعة تتحلى بها سيكون مصيرها الهلاك والفناء وبالتالي فناء هذه الصـفات الإيثارية الحقيقية واسـتحالة تواجدها في الطبيعة.

أضــف أن الجينات باعتبار أن البقاء هو هدفها الأســاس فلابد لها من بناء جينات مضــادة للإيثار الحقيقي في حال ظهوره في النوع وإلا فهي لن تكون أنانية وتهتم بالبقاء والانتقال عبر الأجيال كما هو ثابت، وفي الحقيقة إن أنانية أجسـادنا واضـحة جلية لنا فهي مبنية لمحاربة الايثار الحقيقي ونحن لا نتصـف بالإيثار الحقيقي كصـفة أصـيلة مترسـخة في أجسـادنا بل نحن نتصـف بالأنانية كصـفة أصـيلة مترسـخة في أجسـادنا وأدمغتنا، ولهذا فالإيثار الحقيقي يحتاج ثورة حقيقية كبرى على الجسـد ليكون له وجود معتد به بيننا كما هو الواقع اليوم، فنحن ســواء كنا - كأفراد - نمارس أم لا نمارس الإيثـار الحقيقي نتفق بغالبيـة كبيرة على

---

1. المصدر (دوكنز - الجينة الأنانية): ص323.
2. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، أحمد الحسن، ص291-292.

أنه هدف سام وصفة محبوبة نتمنى الاتصاف بها، وهذا التمني ليس وليد اليوم بل هو مسجل منذ أول عصور التدوين لدى الإنسان أي منذ الإنسان السومري، وهذا يعني أن هناك ثورة إنسانية حقيقية حصلت قبل آلاف السنين على الجسد وعلى أنانية الجسد، ولا يمكن تفسير هذه الثورة علمياً على مستوى الجسد فقط بل إنه أمر مستحيل كما بينت، ولهذا فنحن عند هذه المرحلة مضطرون لإدخال النفس والروح في المعادلة لحل هذه المعضلة، ومن شاء أن يرفض فرض الروح لأنه يكره الإيمان فهو أيضاً مضطر لفرض شيء آخر فليفرض الطوطم أو ميماً مجهول الأصل أو ما يشاء ولكنه بالنتيجة فرض لا علاقة له بالجسد وبعلم الأحياء، بل ولا حتى بالمنطق السليم أبداً." [1]

1. وهم الالحاد آيات الربوبية في الكون، أحمد الحسن، ص306.

خاتمة

بعد أن طوينا صفحات هذا الكتاب بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، نجد من الضروري أن نقف وقفة بسيطة لنُلخص فيها أهم المحطات التي مررنا بها، ونبين الخيط الجامع الذي انتظمت به مباحث هذا الكتيب. لقد بدأنا رحلتنا مع القاعدة العقلية التي تعد اهم المباحث في موضوعنا الا وهي السببية، باعتبارها قاعدة عقلية لا غنى عنها في أي نقاش حول الوجود والحقيقة. فالسببية لم تكن مجرد قضية نظرية، بل هي القانون الذي يضبط تفكير الإنسان ويمنعه من انزلاقنا إلى الفوضى والقول بالصدفة أو العدم المنتج. وقد رأينا كيف أن العقل، منذ أبسط تأملاته، يُلزمنا بالاعتراف بأن لكل حادث سبباً، وأن هذا التسلسل لا بد أن ينتهي إلى سبب أول وهو الحقيقة المطلقة او واجب الوجود، غني عن غيره، لا يحتاج إلى علة تسبقه أو قوة تحتضنه. ومن هنا كان مبحث السببية تمهيداً لا بد منه لتثبيت المباحث والأدلة العقلية على أرض صلبة، تمنحه القدرة على الانطلاق نحو بقية المباحث.

ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الأصل الأصيل في معرفة الله "طريق الوحي"، وبينا أن هذا الأصل لا يقوم على مجرد اجتهادات بشرية أو تصورات عقلية متفرقة، وإنما هو الوحي الإلهي الذي شاء الله أن يجعله طريقاً للناس أجمعين. فقد أثبتنا أن الإنسان عاجز في ذاته عن الإحاطة بالحقائق المطلقة ما لم يُمده الله بنور منه سبحانه، وأن المعرفة الصحيحة لا تستقر في القلب إلا إذا كان مصدرها الخالق العالم بما خلق. ومن هنا جاء الوحي ليكون الحبل الممدود بين الأرض والسماء، والدليل الأوثق الذي يُعرف الناس بربهم ويكشف لهم غايتهم. ولكن هذا لا يعني أن العقل معطل أو أن دوره ثانوي، بل أكدنا أن الأدلة العقلية حاضرة بقوة، وأنها - وإن تناولنا بعضاً منها - إلا أن مجالها أوسع مما احتملته هذه الصفحات. لقد آثرنا الاكتفاء بما يقيم الحجة ويوضح الطريق، تاركين الكثير من التفاصيل لمن أراد التوسع، لأن غاية هذا الكتاب ليست إغراق القارئ في متاهات الجدل بقدر ما هي تزويده بالبوصلة التي تعينه على الاهتداء.

ومن ثم بدانا بالأدلة العقلية المعتمدة على البديهيات او الأوليات العقلية، التي تعتبر اوزان قياسية يصل به الإنسان إلى إدراك شيء من الصورة الحقيقة التي لا يمكن أن يغفلها عاقل.

وبعدها وحسب الضوابط النقلية والعقلية تناولنا مبحث صفات الخالق سبحانه، فبعد أن أثبتنا وجوده وبينا أصل المعرفة به عبر الوحي، لم يكن بدّ من أن ننتقل إلى الحديث عن صفاته، لأن الإيمان بوجود إله مجرد لا يكفي، بل لا بد من معرفة من هو هذا الإله، وما هي صفاته، وكيف يثبت لنا انه الكامل المطلق، حتى لا ننقص من قدره، وننفي عنه كل نقص. وقد سعينا إلى أن نعرض الصفات بما ينسجم مع مقتضيات الشرع والعقل، بعيداً عن التشبيه والتجسيم، أو عن التعطيل والإنكار، فالله سبحانه هو الكامل في ذاته، لا يحده حد، ولا يقاس بغيره، وهو الحي القيوم، العليم الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء.

ثم تدرجنا بعد ذلك إلى الحديث عن إرسال الرسل وطرق معرفتهم، لأن مجرد الاعتراف بوجود الخالق وصفاته لا يكفي في رسم الطريق العملي للإنسان، بل لا بد أن يكون هناك سبيل واضح للوصول إلى مراد الله ومعرفة أوامره ونواهيه. فالرسل كانوا هم الأمناء على هذا الوحي، والواسطة بين السماء والأرض، لكننا لم نرد هنا أن نخوض في تفاصيل البراهين الخاصة بكل رسول أو في الجدل الكلامي الطويل حول المعجزات، بل سعينا إلى تقديم خطوط عامة تضع القارئ على الطريق، وتمنحه معايير شرعية وعقلية يُمكنه بها التمييز بين المدعي الصادق والكاذب من خلال قانون معرفة الحجة، الذي بينه بأفضل صورة واحكم صورة السيد أحمد الحسن.

وأخيراً، ختمنا هذا العمل بإضافة بعض الملاحق والرد على بعض الشبهات المهمة التي رأيت أنها تُعين القارئ على ربط الصورة الكلية وفهم بعض الإشكالات المتداولة في هذا الموضوع. فقد جمعنا فيها ما يوضح الفرق بين البرهان العقلي الصحيح والجدل العقيم، وما يُظهر أن كثيراً من الاعتراضات ليست سوى شبهات سرعان ما تنهار أمام المنهج العقلي السليم والوحي الإلهي الصادق. ولم يكن قصدنا الإحاطة بكل ما يمكن أن يثار من إشكالات، إذ ذلك مما

لا يتسع له كتاب واحد، وإنما هدفنا أن نقدم للقارئ مادة متكاملة في عناوينها الكبرى، تختصر عليه الطريق وتفتح له أبواب البحث والتمحيص.

إن هذا الجهد، وإن كان متواضعاً، يرسم معالم واضحة: يبدأ من السببية بوصفها أصلاً عقلياً لا غنى عنه لفهم العالم، ثم يقرر أن الوحي الإلهي هو الأصل في معرفة الله والمرجع الأوثق لمعرفة الحقيقة، ويعزز ذلك بجملة من الأدلة العقلية، قبل أن ينتقل إلى صفات الخالق، ثم إلى قضية إرسال الرسل ومعرفتهم، لينتهي إلى خلاصة عامة تجمع هذه الحلقات في منظومة واحدة. وما لم نتناوله من الأدلة العقلية أو الاعتراضات التفصيلية فُترك عمداً للتخفيف على القارئ، ولأن المقام يقتضي التركيز على الأساسيات، مع التأكيد أن الباب ما زال مفتوحاً لكل باحث كي يغوص في التفصيلات بحسب قدرته واهتمامه.

وإني لا أدعي ان هذا الكتيب كامل لا نقص فيه، ولا هو خاتمة المطاف في هذا الباب، بل هو بوصلة وإطار عام، يُسلم القارئ إلى عتبة البحث الجاد، ويضع بين يديه أدوات منهجية يستطيع أن يواصل بها رحلته نحو الحقيقة. وإن غاية ما نرجوه أن يكون هذا العمل معيناً لكل من يبتغي معرفة الله بصدق، وأن يكون حافزاً على طلب الهداية من الله نفسه، فهو وحده الحقيقة المطلقة والنور الذي يبدد الظلمات.

والحمد لله خير حمده، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد وآل محمد الائمة والمهدين الطيبين الطاهرين.

مهما تكاثرت الشبهات، وتنوعت ألوانها، وتفنّن أصحابها في زخرف القول وإحكام المغالطات، فإنها تبقى حواجز وهمية لا تصمد أمام عزيمة الإنسان العاقل إذا ما صدق في طلب الحقيقة. فالعقل السليم يدرك أن الحق لا يضيع وسط ضجيج الافتراضات، وأن الطريق إلى اليقين ليس في الدوران حول المجهول، بل في التوجه مباشرة إلى مصدر النور الذي يكشف الظلمات. إن كل محاولة لتفسير الوجود أو تأويله بعيداً عن أصله الأعلى، ستظل قاصرة، ومهما بلغت من العمق فإنها كالسائر في صحراء مترامية بلا دليل. فخير الطرق، بل أوثقها وأصفاها، أن يطلب السائر نحو الحقيقة الهداية من ذات الحقيقة، فالله بكونه الحقيقة المطلقة هو وحده الذي يدلك عليه، ويعرفك بذاته، ويفتح لك الأبواب الموصدة. ومن أدرك هذا، لم يرهبه تعدد الطرق ولا كثرة المنعطفات، لأن عينه صارت معلقة بالغاية لا بالوسيلة، وقلبه صار مطمئناً بأن النور الذي يهتدي به هو من عين الحقيقة ذاتها.

محمد تقي العقيلي

منشورات شركة نجمة الصباح للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد/ كرادة داخل/ هاتف +964781564368
البريد الالكتروني: contact@najmatalsabah.com
رقم الإيداع لدى دار الكتب والوثائق/ بغداد 2502 لسنة 2021